الإمام محمد أبو زهرة

الخطابة

أصولها - تاريخها في أزهر عصورها عند العرب

الإمام محمد أبو زهرة

دار الفكر العربي

دار الفكر العربي

الإمام محمد أبو زهرة



أصولها . تاريخها في أزهر عصورها عند العرب

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الإدارة : ١١ ش جواد حسني - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم،

أما بعد: فقد كلفت تدريس تاريخ الخطابة العربية بكلية أصول الدين من كليات الجامع الأزهر، فكتبت مذكرات فيها موجز لما ألقيته من محاضرات. ولما اعتزمت أن أخرجها كتابا للناس أردت أن أقدمها بمقدمة شاملة لبعض أصول الخطابة وقوانينها، ولكن المقدمة استطالت لتشعب المسالك، ولشعوري بحاجة القراء إلى كل قوانين الخطابة، ولذلك شملت المقدمة القسم الأكبر من هذا الكتاب.

ولقد قيدت نفسي في هذا القسم بالمصطلحات العربية القديمة التي جاءت في تلخيص ابن رشد لكتاب الخطابة لأرسطو، وفي قسم الخطابة من كتاب الشفاء لابن سينا؛ لأن في ذلك ضبطاً للمسائل، وجمعاً لها، وإحياء لتراث السابقين ومجهودهم. ولكني لم أقيد نفسي بالمعلومات القديمة لا أعدوها، فقد جد في العلوم النفسية والاجتماعية والخلقية ما يكون غذاء قوياً صالحاً لذلك العلم. وإن من القديم نفسه ما هو مفيد في أصول الخطابة، ولكن لم يضف إلى بحوثها، فأضفت الجديد الصالح والقديم المفيد، وتكون من هذا كله مجموعة من المعلومات أرجو أن يكون فيها ما ينفع الناس.

ولم أقصد بكتابتي في هذا أن تكون مادة يدرسها الدارس، فيكون خطيباً؛ فإننا لانعلم أن كتابا يجعل من العيي فصيحاً، ويفك عقدة اللسان فيكون طلقاً، ويبث في قارئه شعوراً حياً فياضاً يجري على لسانه عبارات قوية تهز الحس، وتملك النفس.

بل قصدت بكتابتي أن تكون مرشدا لمن عنده استعداد للخطابة ويريد أن ينميه، فهي تنير له السبيل ليسير على هداية، ويكون على بينة من أمره، ولا يكون كحاطب ليل.

وقصدت أيضاً أن تكون كاشفة عن السر في تأثير الخطباء واستيلائهم على مشاعر من يخاطبونهم، واجتذابهم لنفوسهم، وإصابتهم لشغاف قلوبهم.

وسيجد القارئ الكريم في كتابتنا هذه فوق ذلك، ما يصح أن يكون مقاييس تقريبية للموازنة بين أقدار الخطباء البيانية، وأقدار الخطب. والمعاني الخطابية، والأساليب والألفاظ، وكل ما هو عدة التأثير، وطريق الإقناع الخطابي.

أما القسم الثاني (وهو تاريخ الخطابة في أزهر عصورها عند العرب) فقد اتجهت فيه إلى بيان الخطابة في تدرجها علوا وانخفاضا في تلك العصور متحريا أن أرد الأمور إلى أسبابها، والظواهر إلى عللها. وقد حاولت أن أبين في كل عصر ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها وأحوال الخطباء، موازنا في ذلك بينه وبين العصور الأخرى، لتكون للخطابة صور واضحة في ذهن القارئ، وليرى الأدوار التي تعرض للمعاني والأغراض والألفاظ والأساليب تبعاً لحاجات العصر، ومقتضيات الاجتماع، وشئون السياسة.

ولذلك صدّرت كل عصر بكلمة مصورة للحال الاجتماعية والسياسية والدينية، ليتبين منها السر فيما يطرأ على الخطابة من تغير في ذلك العصر، ولأن الخطابة أثر لتلك الأحوال، ولايعرف الأثر على وجهه إلا إذا عرف المؤثر.

وإني لأرجو أن ألحق هذا الكتاب بثان أبين فيه أحوال الخطابة العربية على ذلك النحو في بقية العصور، ثم ألحق الثاني بثالث أدرس فيه بعض الخطباء الذين لهم في البيان والتأثير قدم جعلتهم مثلا عالية تؤتسى.

وماتوفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

مارس ١٩٣٤

محمد أبو زهرة



القسم الأول

أصــول الخطابة

علم الخطابة

✻ تعريفه وثمرته:

اعتقد الأقدمون أن للخطابة علماً، له أصول وقوانين، من أخذ بها، أو بعبارة أدق من استطاع الأخذ بها، والسير في طريقها- عد خطيباً. وعرفوا هذا العلم بأنه مجموع قوانين، تعرف الدارس طرق التأثير بالكلام، وحسن الإقناع بالخطاب؛ فهو يعنى بدراسة طرق التأثير، ووسائل الإقناع، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات، وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني في الموضوعات المختلفة. وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة، وأساليبها، وترتيبها، وهو بهذا ينير الطريق أمام من عنده استعداد الخطابة؛ ليربى ملكاته، وينمي استعداداته، ويطب لما عنده من عيوب، ويرشده إلى طريق إصلاح نفسه؛ ليسير في الدرب، ويسلك السبيل.

هذا العلم ينير الطريق، ولا يحمل على السلوك؛ فهو يرشد دارسه إلى مناهج، ومسالك، ولا يحمله على السير فيها، هو يعطيه المصباح، ولا يضمن له أن يرى به إذا كان في عينيه رمد؛ وإن أرسطو واضع كتاب الخطابة لم يكن خطيباً، بل قال فيه الجاحظ إنه كان بكيء اللسان. وليس علم الخطابة بدعا في ذلك، فعلم النحو لا يضمن لمتعلمه أن ينطق بالفصحى ما لم يمرس نفسه عليه؛ وعلم الأخلاق لا يضمن لعارفه سلوكا قويماً ما لم يرض نفسه على الأخذ به، وعلم العروض لا يكوِّن شاعراً، وعلم المنطق يسن قانونا لاعتصام الذهن، ولا يضمن للعالم به عصمة الذهن ما لم يرض نفسه عليه رياضة كاملة.

وهكذا كل العلوم النظرية التي تظهر ثمرتها في العمل، تعطي من يريدها قانونا يساعده، ولا تضمن له العمل إلا إذا راض نفسه على قانونها.

علاقة علم الخطابة بالمنطق:

عندما ترجم كتاب الخطابة لأرسطو إلى اللغة العربية في القرن الثالث الهجري؛ اعتبره كثير من الفلاسفة جزءاً متمما لعلم المنطق. وابن سينا في الشفاء يجعل الخطابة من أقسام المنطق، واستمر ذلك حال الفلاسفة، ينظرون إلى المنطق بتلك النظرة الشاملة، إلى أن قصر المتأخرون النظر فيه على صور القياس، وأشكاله، وأدواته.

ولم يبعد أولئك الفلاسفة عن الصواب كثيراً؛ إذ أن كتاب الخطابة لأرسطو ترى فيه المنطق واضحاً وضوحاً تاماً، ترى الكلام على الحد والرسم والدليل، وكيف يتكون القياس الخطابي؟ ثم ترى فيه الكلام على التصديق الذي يكتفى به في الخطابة، وغير ذلك مما يعد من

المنطق. فعلم الخطابة على هذا له صلة وثيقة بالمنطق، من حيث إن المنطق خادم له، ومن حيث إن كثيراً من قوانين الخطابة، يعتمد على المنطق في مبادئه؛ وفوق تلك العلاقة الواضحة بين المنطق وعلم الخطابة نرى أن علم المنطق، قد أخذ يسلك مسلكا جديداً، يزيد به على مسالك المتقدمين؛ إذ صار لا يبحث عن القوانين التي تعصم الذهن عن الخطأ فقط، بل يستنبط أيضاً ما يرشد الذهن إلى الأخذ بالقوانين السابقة؛ فهو يبحث أيضاً عن أهواء النفس، وخواطرها، وأسباب الغلط، وتسلسل الخواطر، وكل تلك أمور تساعد الخطيب على أداء مهمته، وتمد قوانين الخطابة بمناحي التأثير، وطرق الإقناع.

والحق أن المنطق ألزم العلوم للخطابة، وبينهما من وشائج القربى، وتداخل المسائل، وتقارب المناهج، وتداني المآخذ– ما سهل على الأقدمين عدهما علما واحداً، وما يجعلنا نحن المتأخرين نعدهما أخوين متحدي النسب.

علاقة علم الخطابة بعلم النفس:

لا يصل الخطيب إلى غايته (وهي إقناع السامعين وحملهم على المراد منهم) – إلا إذا استطاع أن يثير حماستهم، ويخاطب إحساسهم. ويتصل كلامه بشغاف قلوبهم، ولا يمكنه ذلك– إلا إذا كان عليما بما يثير شوقهم، ويسترعي انتباههم، وعليما بطبائع النفوس، وأحوالها، وغرائزها، وسجاياها، وذلك لا يكون إلا بعلم النفس، وإذا كان علم النفس دعامة لعلم التربية، فهو أيضاً دعامة لعلم الخطابة؛ لأن كليهما يهدي الإنسان إلى وسائل الإقناع، والتلقين والتأثير، غير أن الأول لنشء حدث، والثاني لكبار لهم أفكار، ومذاهب، تجعل التأثير فيهم أبعد منالا، والوصول إلى قلوبهم أعز مطلباً، والاستيلاء على نفوسهم أشرف منصبا؛ لذلك نقول: إن علم الخطابة له صلة وثيقة بعلم النفس؛ إذ يجب أن تكون قوانين الخطابة ملائمة كل الملاءمة لقوانين هذا العلم؛ بل يجب أن تستمد منها ناموسها، وطرقها، ومناهجها.

علاقة الخطابة بعلم الاجتماع:

قال الفارابي: إن الخطيب إذا أراد بلوغ غايته؛ وحسن سياسة نفسه في أموره– فليتوخ طباع الناس وتلون أخلاقهم، وتباين أحوالهم، قال أفلاطون: لكل أمر حقيقة، ولكل زمان طريقة، ولكل إنسان خليقة؛ فعامل الناس على خلائقهم، والتمس من الأمور حقائقها، واجر مع الزمان على طرائقه.

وهذه قوانين تنفع الخطيب في متصرفاته مع كل طائفة من أهل طبقته، ومن دونه، ومن فوقه على سبيل الإيجاز والاختصار.

وهذا يدل على أن انتصار الخطيب فيما يتقدم في الدعوة إليه- يستدعي إلماما بسياسة الناس، وما يجب لكل طبقة من المعاملة، وما يلزم لكل صنف من الناس من خطاب، يجب أن يكون عليما بروح الجماعة، دارسا لأخلاقها، فاهما لما يسيطر عليها، وإذا كان ذلك جد لازم للخطيب – فمن الواجب إذن أن تكون قوانين الخطابة متصلة بقوانين الجماعات وناموسها، مستمدة منها قوة، ومن مشاربها مسالك، وأنت ترى من هذا قوة الاتصال بين علم الاجتماع وعلم الخطابة.

هذه العلوم الثلاثة ينابيع صافية، استمد علم الخطابة منها قوانينه، وعلى ضوئها سلك طريقه؛ ولذا اقتصرنا ذكر علاقتها به دون سواها؛ إذ هي الأنهار التي يأخذ منها هذا العلم ماء الحياة.

تاريخ علم الخطابة:

أول من كتب في هذا العلم اليونان، بل هم مستنبطو قواعده، ومشيدو أركانه، ومقيمو بنيانه، وذلك لأن أهل أثينا في عصر بيركليس، قويت فيهم رغبة القول، واشتدت فيهم داعيته؛ إذ صار يأسرهم القول البليغ دون سواه. قال المسيو شارل سنيوبوس: امتازت أثينا أولا ببلاغة خطبائها؛ فكانت حقاً بلد الأدب وحسن الإلقاء؛ فبالخطب في مجلس الأمة يقرر شهر الحروب، وعقد السلم، ووضع القطائع والضرائب، وكل الشئون العظيمة، وبالخطب التي تلقى في المحاكم يحكم على الوطنيين والرعايا، أو يبرءون؛ فللخطباء السلطة، وعلى الأمة أن تعمل بنصائحهم ومواعظهم، وربما عهدت إليهم بإدارة شئون المملكة، فقد عين كليون قائداً، ورأس ديموستين الخطيب حرب فيليب، وللخطباء نفوذ كبير، وكثيراً ما يلجئون إلى بلاغة قولهم للنيل من عداتهم في سياستهم، وربما أثروا لأنهم ينالون من المآرب ما يرضيهم من المال؛ ليعاضدوا أحد الأحزاب، فقد أخذ إشيل مالا من ملك مقدونيا، وقبض ديموستين دنانير من ملك الفرس. ثم إن بعض الخطباء كانوا ينشئون خطباً، ليلقيها غيرهم؛ إذ لا يسوغ لمن كانت له قضية أن يرفعها بوكالة محام كما هو الحال عندنا، بل تقضي شريعة البلاد أن يتكلم صاحب القضية في قضيته بالذات، فمن ثم كان عليه أن يقصد إلى أحد الخطباء، يلتمس منه تأليف خطاب له يحفظه ليتلوه في مجلس القضاء، وكثيراً ما كان بعض الخطباء يجوبون البلاد

اليونانية، ويتكلمون في موضوعات، توحيها إليهم المخيلة؛ فتحتفل لذلك المحافل، وتعقد الأندية والمؤتمرات.

وإذا كان التسابق البياني وصل إلى ذلك الحد- فلا عجب إذا رأينا أن من لم يكن قديراً على فنون القول، يحاول أن يتعلمها؛ ولذا اتجه الناس إلى تعلم الخطابة، والدربة عليها، والتمرين على الإلقاء، وتعويد اللسان النطق الصحيح، والبيان الفصيح؛ لذلك أخذ العلماء يستنبطون قواعد الخطابة وقوانينها بملاحظة الخطباء، وطرق تأثيرهم، وأسباب فشل من يفشل منهم.

ويظهر أن أول من اتجه إلى استنباط تلك القواعد السوفسطائيون؛ فإنهم كانوا يعلمون الشبان في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميدان السبق الكلامي؛ وكيف يغالطونهم؟ وكيف يلبسون عليهم الحقائق؟ ويمرنونهم على القول المبين، والإلقاء المحكم؛ وطبعي أن يتجه من نصبوا أنفسهم لذلك إلى استنباط قواعد وقوانين من أخذ بها أمن العثار، وسبق في الخصام. ولقد قيل إن أول من وضع هذه القواعد ثلاثة من هؤلاء السوفسطائيين وهم: بروتكوس[1] القوسي المتوفى سنة ٤٣٠ ق م، وبروتاغوراس[2] (٤٨٥ - ٤١١) ق م، وجورجياس[3] (٤٨٥ - ٣٨٠ ق م).

. وقد جاء من بعد هؤلاء أرسطو فجمع قواعده، وضم شوارده، في كتاب أسماه الخطابة، كان أصلاً لذلك العلم، ومرجعاً يرجع الخطباء والمؤلفون في الخطابة إليه، ومصدراً يصدرون عنه، ويردون موارده.

. وقد جاء بعد أرسطو عصر نشطت فيه الخطابة عند الرومان نشاطها عند اليونان، قال المسيو شارل الآنف الذكر:

كان الخطباء يأتون إلى ساحات الاجتماع، حيث تلتئم مجالس الأمة في أواخر عهد الجمهورية، يخطبون ويكثرون من الحركات وسط ذوي القوم، وشيشرون أعظم أولئك الخطباء، وهو الوحيد الذي بقيت بعض قطع من خطبه.

---

(١) كان سوفسطائياً يأخذ أجراً باهظاً في تعليم الخطابة وقد أنفق كل ما جمع على ملاذه وقد حكم عليه بالإعدام بالسم لأنه قال إن الآلهة من مخترعات العقول.

(٢) أثرى من الأجور التي كان يأخذها وكان يقول: لا أستطيع أن أعرف أتوجد آلهة أم لا.

(٣) فتح مدرسة تعلم فيها الخطابة فأثرى واشتهر. وكان يقول: لا يوجد شيء وإن وجد لا تمكن معرفته، وإذا أمكنت معرفته لا يمكن تعريفه.

ويقول في شأن المدارس في عهد الإمبراطورية الرومانية: والمدارس العامة تقبل الشبان الأغنياء خاصة، يرسلهم آباؤهم إليها، ليتعلموا فيها الخطابة. وإلغاء المنابر لم ينزع من الناس ذوقهم في الخطابة، ومرانهم عليها؛ ولذلك بدأ المفوهون والخطباء يكثرون، ويعلمون الناس طريقة الأداء، فافتتحوا منذ القرن الأول في روما مدارس، يقبلون فيها الفتيان الأغنياء، وكان بعضهم يمرن تلاميذه على إنشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة. وقد حفظ لنا الخطيب سينيك عدة من هذه الدروس وموضوعها أطفال مخطوفون، وشطار من اللصوص. ولهذا النشاط وجدت عدة مؤلفات أخرى في علم الخطابة ينسب بعضها لشيشرون، وألف كونيتليان (٤٢ – ٩٥م) كتابا سماه تهذيب الخطيب. وألف لنجينوس الحمصي (٢٤٠ – ٢٧٣م) كتابا سماه المقلق.

ولنترك الآن الحديث في اليونان والرومان، ولنول وجهنا شطر العرب. فإنا قد وجدنا أن الخطابة في صدر الإسلام– وصلت إلى الذروة وبلغت كمال أوجها. وجاء العصر الأموي، فوجدت الخطابة لها غذاء من الفتن والثورات التي أظلت ذلك العصر، وقد أخذ الفتيان والكهول يتبارون في الخطابة، ويتسابقون في ميدانها. وكان مكان ذلك الوفادة، ومجالس الخلفاء والأمراء والولاة، وقد نشأ من هذا أن وجد أناس يعلمون الشبان الخطابة، ويمرنونهم عليها. وقد ظهر ذلك واضحاً كل الوضوح في العصر العباسي الأول؛ فقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ وفي العقد الفريد لابن عبد ربه أن بشر بن المعتمر مر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب[1]، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحاً، واطووا عنه كشحاً. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وفي هذه الصحيفة وصف جيد لأساليب الخطابة، وألفاظها ومعانيها. وسنبين خلاصتها في موضعه إن شاء الله تعالى.

ويظهر أنهم لم يقتصروا على استنباطاتهم العربية، بل كانوا يستعينون بما في آداب الأمم الأخرى، ليعاونهم ذلك في استنباطهم، ويمدهم بما ليس عندهم، وينبههم إلى ما عساه يعزب عن خواطرهم. ومن ذلك ما جاء في البيان والتبيين والصناعتين: قال معمر أبو الأشعث قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند: ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة؛ فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها. قال أبو الأشعث: فلقيت بتلك

(١) إبراهيم بن جبلة كان من أصحاب عبد الملك بن مروان وعمر إلى خلافة المنصور. ومن ذلك تعرف أن ابتداء استنباط قواعد الخطابة كان في آخر العصر الأموي.

الصحيفة التراجمة، فإذا فيها: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة: وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح؛ إلى آخر ما فيها من وصف جيد للخطيب. والأسلوب الخطابي.

ألا ترى من هذا ما يدل دلالة واضحة على استعانتهم بالآداب الأجنبية، وتغذيهم بها، وقد استمر البحث في الخطابة، وأصولها، ينمو، ويكثر، ما كانت الخطابة ناهضة. وكان أكثر من يقوم به أئمة المعتزلة الذين احتاجوا إليها ليحتازوا مجالس المناظرات، ويتغلبوا على خصومهم من ذوي الجدل؛ ولذا نبغ فيهم خطباء كثيرون، ومنهم من يعرف بعض أصول الخطابة، وقوانينها، كعمرو بن عبيد، وبشر بن المعتمر، وثمامة ابن أشرس، وإبراهيم النظام، والجاحظ، وغير هؤلاء كثيرون.

غير أن بحوث أولئك الأدباء لم تجمع في كتاب مستقل، بل كانت نثيراً في الكتب، وعلوم اللغة، ولم يعن أحد بتدوينها في كتاب مستقل، لتكون علماً قائماً بذاته، حتى ترجم إسحق بن حنين كتاب الخطابة لأرسطو؛ وشرحه الفارابي. وقد عد من المنطق كما ذكرنا.

جاء في الفهرست لابن النديم في أثناء سرد ما كتبه أرسطو في المنطق: الكلام على ريطوريقا، ومعناه الخطابة، ويصاب بنقل قديم، وقيل: إن اسحق نقله إلى العربي، ونقله إبراهيم ابن عبد الله، وفسره الفارابي أبو نصر: رأيت بخط أحمد بن الطيب هذا الكتاب نحو مائة ورقة بنقل قديم. وقد أتى ابن سينا في كتاب الشفاء بلب كتاب الخطابة لأرسطو مع تصرف غير ضار.

وبنقل كتاب الخطابة لأرسطو صار في العربية قواعد للخطابة مدونة في بحث مستقل، وإن كان جزءاً من علم المنطق على ما رأيت. وهنا نلاحظ ثلاثة أمور:

أولها — أن تلك الترجمة صادفت عصراً قد ركدت فيه الخطابة وخمدت، وأصبحت مقصورة على الوعظ، وصار الخطباء ممن لا يجيدونها؛ فاقتصروا على خطب يحفظونها ويلقونها ويتوارثونها بنصها، يلقي الخلف ما كان يلقيه سابقه، وإن تصرف ففي دائرة محدودة، ووسط أقطار من جمود؛ فكان طبيعياً ألا تستفيد الخطابة من تلك الترجمة؛ لأنها فقدت روحها، وذهبت الرغبة في السبق فيها؛ فبقيت القواعد هيكلاً من غير لحم.

ثانيها — أن كتاب الخطابة صار جزءاً من الفلسفة، ولم يضف إلى الأدب، وإن كان الأدباء قد [illegible] وا منه، ونالوا أشطرا؛ إذ هو مع تلك لم يخرج بقواعده كلها عن نطاق الفلسفة، إلى حيث يتناوله الأدباء بالبحث، والنقد، والتقريظ، أو التزييف، بل بقي حيث الفلسفة رمقها، وجفافها؛ ولعل السبب في ذلك خمود ريح الخطابة، وضعف شأنها.

وإن الفلسفة ذاتها من بعد ابن سيناء وابن رشد، أخذت تهجر كتاب الخطابة؛ فقد انفصل عنه المنطق، وصار أمره يصغر، وشأنه يهون، حتى كاد الزمن يجر عليه ذيل النسيان، لولا أن سجل خلاصته ابن سينا في كتاب الشفاء؛ فصار مرجعا يرجع إليه عند الحاجة.

ثالثها - أن علم الخطابة المترجم لم يرطب باستشهادات من الأدب العربي. والسبب في ذلك عدم خروجه عن نطاق الفلسفة، ولو أنه خرج عن ذلك النطاق، وتناوله بحث الأدباء بالتأييد أو الرد، لوجدت الشواهد على قواعده، ولانتقل إلى علم عربي، ولبس حلة قشيبة من ذلك البيان.

هذه هي الأمور الثلاثة التي نلاحظها على تلك الترجمة وزمانها؛ ومنها نرى أن الخطابة ذاتها لم تفد من تلك القواعد، ولم تفد من هذه العناصر؛ لأنها قد صارت صورة من غير روح.

ولما استيقظت الخطابة في العصور الحديثة، وعظم أمرها، وصارت سبيلا من سبل الجد، وطريقا من طرق الغلب والسبق، في ميادين السياسة، وفي المجالس النيابية، وفي دور القضاء، اتجه بعض الباحثين إلى إحياء المقبور من قوانينها، ونشر المدفون من آراء العلماء فيها، وأظهر كتاب ظهر في ذلك كتاب علم الخطابة للعالم الباحث لويس شيخو؛ فقد جمع في هذا الكتاب خلاصة ما كتبه أدباء العرب، وفلاسفتهم، وما ترجم إلى اللغة العربية من قوانين الخطابة، وقواعدها، غير أنا نلاحظ أن فيما كتبه كثيراً مما يتعلق بالمنطق، قد وضعه في الخطابة؛ ونلاحظ جفافا في الكتابة يجعله غير قريب للمتناول؛ ونلاحظ أيضاً أن المؤلف في أكثر المسائل لم يقدم لنا رأيه؛ بل يتركنا وسط نقول وآثار. ومهما يكن من شئ فله فضل الباحث المنقب، والكاتب السابق؛ إذ غيره له لاحق.

وقد كتب بعض الذين تثقفوا بثقافات أوروبية بحوثاً قيمة على النحو الذي وجدوه في أوربا، ولكل منهم ناحية فيما كتب، فبعضهم اتجه إلى مخارج الحروف، وبعضهم اتجه إلى الإلقاء، وبعضهم زاد عن هذين قليلا من البحث في أساليب الخطابة، ولكل فضل فيما عني به.

وأرجو أن يوفقني الله جلت قدرته إلى أن يكون في بحثي هذا نفع بمقدار ما أبغي، وفائدة بمقدار ما أقصد. والله المستعان.

محمد أبو زهرة

الخطابة

تعريفها. أقيستها. موضوعاتها. فائدتها. طريقة تحصيلها

الخطابة مصدر خطب يخطب أي صار خطيبا، وهي على هذا صفة[١] راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول؛ لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم، وإقناعهم، فالخطابة مرماها التأثير في نفس السامع، ومخاطبة وجدانه، وإثارة إحساسه للأمر الذي يراد منه؛ ليذعن للحكم إذعانا، ويسلم به تسليما.

وقد قال ابن سينا: إن الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر في أقسام المنطق؛ لأن المقصود من المنطق أن يوصل إلى التصديق، فإن أوقع التصديق يقينا- فهو البرهان، وإن أوقع ظنا أو محمولا[٢] على الصدق- فهو الخطابة[٣] - أما الشعر فلا يوقع تصديقا، لكنه لإفادة التخييل الجاري مجرى التصديق؛ ومن حيث إنه يؤثر في النفس قبضا أو بسطا، عد في الموصل إلى التصديق. والتخيل عنده إذعان للتعجب، والالتذاذ، تفعله صورة الكلام.

وترى من هذا أنه يضع المنطق، والخطابة، والشعر، في ثلاث مراتب، فالأول يتجه إلى اليقين، والثانية تتجه إلى الأقيسة الظنية، والشعر يتجه إلى إثارة الخيال والإعجاب، والالتذاذ بصورة الكلام، ونحن نخالفه في غير المنطق، ويهمنا ما نحن بصدده وهو الخطابة؛ فليس بصحيح أن أقيسة الخطابة، لا تعتمد إلا على الظن، بل كثيراً ما تعتمد على أقوى الأدلة إلزاما، وأشدها قطعاً في الاستدلال، ومن أبلغ الخطب ما حملت حقائقها بأقيسة المنطق، وبراهينه؛ إذ يجتمع فيها دقة المنطق، بجمال الأسلوب.

---

(١) عرف الخطابة المنطقيون والحكماء بأنها القياس المؤلف من المظنونات أو المقبولات لترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم. والمظنونات هي الأمور التي يحكم العقل فيها حكماً راجحا اتباعا لغلبة الظن. كقولك فلان يطوف الليل فهو لص، والمقبولات هي الآراء التي يكون مصدر التصديق فيها- وقوعها ممن لا شبهة في صدقه مع كونها قابلة للأفكار- وتطلق الخطابة بمعنى الخطبة وهي الكلام المنثور المسجوع أو المزدوج أو المرسل الذي يقصد به التأثير، والإقناع.

(٢) المراد من المحمول على الصدق ما يقبله الإنسان لصدوره عمن عرف بالصدق.

(٣) الخطابة هنا معناها الخطبة.

وقد يكتفى فيها بالأمور الظنية، وقد يستعان فيها بأقوال من عرفوا بالصدق، وبعد النظر، والحكمة الصائبة، وإن كان الاحتجاج بها فى ذاتها لا ينتج يقينا فى نظر العقل المجرد، وقد يتجه الخطيب إلى تصوير الحقائق فى صورة تثير الخيال، وتعجب بملاحتها، ويضع الحقائق فى أسلوب شعرى ليجتمع التصديق مع إثارة الخيال، ويلتقى الإذعان وإثارة الوجدان.

فالخطابة فى الحقيقة قد تستمد قوتها من العناصر الثلاثة، وتكون تلك العناصر كالينابيع تمدها بماء الحياة؛ قد يعمد الخطيب إلى المنطق، وأقيسته اليقينية، ويقتصر على ذلك إذا كان يخاطب أقواما، قد غلب على حياتهم الفكر والعقل، لا يرضيهم إلا الحقائق عارية، وقد يعمد إلى الظنيات، وأقوال من عرفوا بالحكمة، إذا كان من يخاطبهم ممن يقدسون أولئك اللذين ينقل عنهم، وقد يضيف إلى الظنيات صوراً كلامية، تثير الخيال، وتفعل فى النفس ما يفعله الشعر. ومن الخطب ما تجتمع فيها تلك العناصر الثلاثة؛ فتبلغ القمة من التأثير، والروعة، والجودة.

موضوعها:

قال ابن رشد ناقلا عن أرسطو: ليس للخطابة موضوع خاص، تبحث عنه بمعزل عن غيره، فإنها لا تحيم عن النظر فى كل العلوم والفنون، ولا شئ حقيراً كان أو جليلا معقولا أو محسوساً إلا يدخل تحت حكمتها، ويخضع لسلطان لسانها؛ ومن ثم يترتب على الخطيب أن يكون له إلمام بكل صنف من المعارف، بل ينبغى له أن يوسع كل يوم نطاق مداركه، وذلك حق لاريب فيه؛ فإن كل مسألة عامة، أو لها صلة بشأن عام، يصح أن تكون موضوع الخطابة: كحب الوطن، وإقامة العدالة والنظام، وتسكين الفتن، والتمسك بالفضيلة، وغير ذلك، بل من المسائل الخاصة ما هو موضوع الخطابة كالخصومات؛ فإن المحاكم ميدان الخطابة، والقول البليغ. وكثير من القضايا ليست إلا مسائل خاصة كالعقود والمدايتات، ونحو ذلك. بل إن ابن رشد يقول فى تلخيصه لكتاب أرسطو: كل واحد من الناس يوجد مستعملا لنحو من أنحاء البلاغة ومتجها منها إلى مقدار، وذلك حق؛ فالتاجر ينادى لسلعته بشئ من البيان يلفته يستعمل فيه كل وسائل الإغراء؛ وكل ذى رغبة فى أمر، يجتهد فى استخدام عبارات خاصة، يستميلون بها من يريد حمله إلى ما يبغى ويريد. ولو تسامحنا لسمينا ذلك النحو من الكلام خطابة. وعلى أية حال هو يدل على مقدار عموم الموضوعات الخطابية، وأنها ليست مقصورة على ناحية خاصة من النواحى، وإن كان الناس قد اصطلحوا على الخطابة فى موضوعات، وجعلوها أقساما لها، وأنواعا، كما سنبين ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى.

فائدتها:

قال ابن رشد ناقلا عن أرسطو: ليس كل صنف من أصناف الناس ينبغي أن يستعمل معه البرهان في الأشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها، وذلك إما لأن الإنسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحق، فإذا سلك نحو الأشياء التي نشأ عليها- سهل إقناعه؛ وإما لأن فطرته ليست معدة لقبول البرهان أصلا، وإما لأنه لا يمكن بيانه له في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منه وقوع التصديق فيه، فهذا الصنف الذي لا يجدي معه الاستدلال المنطقي؛ تهديه الخطابة إلى الحق الذي يراد اعتناقه؛ لأنها تسلك من المناهج، ما لا يسلك المنطق.

وهذه أول ثمرة من ثمرات الخطابة؛ وللخطابة فوق ذلك ثمرات كثيرة؛ فهي التي تفض المشاكل، وتقطع الخصومات، وهي التي تهدئ النفوس الثائرة، وهي التي تثير حماسة ذوي النفوس الفاترة، وهي التي ترفع الحق، وتخفض الباطل، وتقيم العدل، وترد المظالم، وهي صوت المظلومين، وهي لسان الهداية. ولأمر ما، قال موسى عليه السلام عندما بعثه ربه تعالت حكمته إلى فرعون: **﴿ رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾**. ولا يمكن أن يتصور صاحب دعاية، ومناد بفكرة، وصاحب إصلاح إلا بالخطابة.

والخطابة هي الدعامة التي قامت عليها الانقلابات العظيمة، والثورات الكبيرة التي نقضت بنيان الظلم، وهدمت قصور الباطل؛ فهذه الثورة الفرنسية قامت على الخطابة، وهي التي كانت تؤجج نيرانها، وتذكي لهيبها. والخطابة قوة تثير حمية الجيوش، وتدفعهم إلى لقاء الموت، وتزيد قواهم المعنوية؛ ولذلك كان قواد الجيوش المظفرون في القديم، والعصور الحديثة خطباء مصاقع؛ فبيركليس، ويوليوس قيصر، ونابليون، خطباء، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وطارق بن زياد، خطباء مصاقع، حملوا معهم سلاحا معنويا بجوار السلاح الحديدي.

«والخطباء هم المسيطرون على الجماعات، وهم الذين يقيمونها، ويقعدونها. وفي الحكومات الشورية، يكون الخطباء هم الغالبين؛ تصدع الأمة بإشاراتهم، وتخضع لسلطانهم؛ لأن الغلب في ميدان الكلام، والسبق في حلبة البيان لهم، فآراؤهم فوق الآراء، لأنهم يستطيعون أن يلحنوا بحجتهم، ويسبقوا إلى غاياتهم؛ وفي ذلك نشر لسلطانهم، ورفعة لهم. فالخطابة طريق للمجد الشخصي كما أنها طريق النفع العام.

والحق أن الخطابة مظهر اجتماعي للمجتمع الراقي تحيا برقي الجماعة، وتخبو بضعفها. ولقد قال ابن سينا في فائدتها: إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جداً؛ وذلك لأن الأحكام

الصادقة فيما هو عدل وحسن أفضل نفعاً؛ وأعم على الناس من أضدادها فائدة؛ لأن نوع الإنسان يعيش بالتشارك، والتشارك محوج إلى التعامل والتحاور، وهما محوجان إلى أحكام صادقة، وهذه الأحكام الصادقة تحتاج إلى أن تكون مقررة في النفوس، ممكنة في العقائد، والبرهان قليل الجدوى في حمل الجمهور على الحق؛ فالخطابة هي المعنية بذلك. انتهى بتصرف قليل.

وقال في الخطيب: إن الخطيب يرشد السامع إلى ما يحتاج إليه من أمور دينه ودنياه؛ ويقيم له مراسيم لتقويم عيشه؛ والاستعداد إلى معاده.

طرق تحصيلها:

لا شك أن الخطابة منصب خطير، ومرتقى صعب المنال، لا يصل إليها طالبها بيسر، بل يحتاج مبتغيها إلى زاد عظيم، وصبر ومعاناة، واحتمال للمشاق؛ ليصل إلى تلك الغاية السامية. وطرق تحصيلها في الجملة ما يأتي:

١ – فطرة مواتية وسليقة تلائم الخطابة:

بأن يكون الخطيب خالياً من العيوب الكلامية؛ من فأفأة ونحوها، وأن تكون مخارج حروفه صحيحة، وأن يكون فصيحا، طلق اللسان، ثابت الجنان، ذكي القلب. وقد يكون بعض الناس مستعداً كل الاستعداد للخطابة؛ إذ يكون قد منحه الله كل مؤهلاتها من صوت جهوري، وعقل ألمعي، وقلب ذكي، ونفس متوثبة، ولسان مبين، وخاطر حاضر، وبديهة متيقظة، وفراسة مدركة، ونظرات نافذة، ومثل هذا لا يحتاج إلا إلى التعليم والممارسة، وتنمية مداركه ليكون خطيبا مصقعا، ومدافعاً مدرها.

٢ – دراسة أصول الخطابة:

لا شك أن هذه الأصول لابد لها من عوامل أخرى؛ إذ هي وحدها لا تكفي؛ بل لا بد أن يكون معها استعداد كامن، أو رياضة ومران شديد. قال ابن سينا في منزلة أصول الخطابة في تحصيلها: هذه الصناعة قد يتعاطى أفعالها كل إنسان، بأن يتأمل ما يختلفون فيه من مدح أو ذم أو شكاية أو اعتذار أو مشورة؛ فمنهم من يكون تصرفه في بعض هذه المعاني، ومنهم من هو متصرف في جميعها، ومنهم من يعد في ذلك بملكة حصلت له من غير أن تكون القوانين الكلية محصلة عنده، ومنهم من يجمع إلى الملكة الاعتيادية ملكة صناعية، حتى تكون القوانين

محققة عنده وهو الذى أحاط بهذا الجزء من المنطق (الخطابة) علما واكتسب الملكة بالمزاولة. والملكة الاعتيادية وحدها لن تنجح فلا عن بصيرة، فالقوانين على هذا هادية مرشدة، تساعد فى تحصيل الخطابة بإنارة السبيل ولا تكون وحدها الخطيب، بل هى مهذبة للفطرة، مساعدة لها.

٣- قراءة كلام البلغاء:

دراسته دراسة متعرف لمناحي التأثير، وأسرار البلاغة، ومتذوق لما فيها من جمال الأسلوب، وحسن التعبير، وجودة التفكير، قال ابن الأثير فى المثل السائر: إن فى الاطلاع على أقوال المتقدمين من المنظوم والمنثور فوائد جمة؛ لأنه يعلم منه أغراض الناس، ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم وإلى أين ترامت به صنعته فى ذلك؛ فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة، وتذكي الفطنة. وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها تصير المعانى التى ذكرت، وتعب فى استخراجها كالشيء الملقى بين يديه، يأخذ منه ما أراد؛ وأيضا، فإنه إذا كان مطلعاً على المعانى المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه. ومن المعلوم أن خواطر الناس (وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة) فإن بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنه إلا بشئ يسير. فقراءة كلام البلغاء تقدم للقارئ أوسالا من المعانى والأساليب ينال منه بيسر وسهولة من غير معاناة ولا كد ذهن.

٤- الاطلاع على كثير من العلوم التى تتصل بالجماعات:

كالاقتصاد والشرع، والأخلاق، والاجتماع، وعلم النفس، والأديان؛ فإن الاطلاع على هذه العلوم فوق أنه ينمي فكره، ويوسع مداركه؛ يجعله على بصيرة فى مهمته، ويضع أمامه المصباح الذى يهديه إلى طرق التأثير؛ فيصيب غايته، وينال غرضه.

٥- الثروة الكثيرة من الألفاظ والأساليب:

يحفظ كثيرا من خطب من اشتهر باللسن والبيان؛ فإن الخطابة تحتاج إلى تعابير كثيرة، تحتاج إلى أن يعبر عن المعنى الواحد بعدة عبارات، وأساليب متغايرة؛ لكيلا تذهب جدة المعنى، ويصيب السأم النفوس. ولا يمد الخطيب بالعبارات المتغايرة المتحدة المعنى إلا ثروة فى الألفاظ والأساليب؛ وحفظ كثير لأقوال المتقدمين، واستيلاء تام على نواحي البيان.

٦- ضبط النفس واحتمال المكاره:

إن الخطابة منصب خطير؛ إذ قد تعترض الخطيب زوابع من كل ناحية، وقد يقابل بالسخرية والاستهزاء، وقد يكون المخاطبون ممن يتقصون عوراته، ويتسقطون هفواته، وكلهم له

رقيب عتيد. فإذا لم يدرع الخطيب بضبط نفس وسيطرة تامة على إحساسه ومشاعره، لم يستطع السير إلى غاياته. وقديما قال خطيب عربي: «لقد شيبني ارتقاء المنابر» وهو قول يدل على مقدار ما كان يعانيه ذلك الخطيب في الاستيلاء على نفسه حتى لا تجشأ ولا تجيش، وحتى لا يضطرب، ولا تأخذه الحبسة؛ لذلك نقول: يجب أن يربي مريد الخطابة نفسه على احتمال المكاره والحلم، وضبط الإحساس، ومحاربة مظاهر الاضطراب والوجل؛ فإن الاضطراب يورث الحيرة، والحيرة من أسباب الأرتاج، والوجل يضعف أثر الخطبة في نفوس السامعين، إذ تهون عليهم لهوان قائلها.

٧- الارتياض والممارسة:

إن الفطرة والاطلاع، وثروة الألفاظ، والقراءة الكثيرة، والعلم بالأصول الخطابية لاتكفى في تكوين الخطيب؛ لأن الخطابة ملكة وعادة نفسية لا تتكون دفعة واحدة. بل لابد لمريدها من المعاناة، والممارسة والمران؛ لكي ينمي مواهبه، إن كانت فيه فطرتها، ولكي يطب لعيوبه إن كان فيه عيوبها. فإن وجدت في نفسك أول الأمر نقصا خطابيا فكمله، ولا يؤنسك إعراض الناس عنك من النجاح؛ فإن كثيراً من الخطباء الممتازين كانت فيهم عيوب كلامية، فأصلحوها.

جاء في كتاب تاريخ الحضارة في الحديث عن ديموستين خطيب اليونان: إنه عندما خطب على المنبر العام قوبل كلامه بالقهقهة، إذ كان صوته ضعيفاً جداً، ونفسه قصيراً، فتوافر عدة سنين على رياضة صوته.

ويروى أنه كان ينقطع شهورا طويلة ونصف رأسه محلوق؛ لئلا يحاول الخروج. وكان يلقي خطبا وفي فمه حصى، وهو على شاطئ البحر؛ ليمرن نفسه على التغلب بصوته على جلبة الناس. ولما رجع إلى المنبر كان قد أخضع صوته لإرادته. وقد كان يحافظ كل المحافظة على إعداد جميع خطبه قبل إلقائها؛ ولذا صار أرقى خطيب، وأعظم مفوه في بلاد اليونان. وكانت تلك حال كثير من خطباء العرب الممتازين؛ فقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ: ويقال إنهم لم يروا قط خطيبا بلديا إلا وهو في أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلا مستصلفا أيام رياضته كلها إلى أن يتوقح وتستجيب له المعاني، ويتمكن من الألفاظ- إلا شبيب بن شيبة؛ فإنه ابتدأ بحلاوة، ورشاقة، وسهولة، وعذوبة؛ فلم يزل يزداد منها، حتى صار في كل موقف، يبلغ بقليل الكلام، مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره. ورياضة النفس على الخطابة، تكون بأمور كثيرة، بعضها يتعلق بالإلقاء، وبعضها يتعلق بالأسلوب والفكرة؛ لأن

الخطابة فكرة، وأسلوب، وإلقاء محكم، ومن الرياضة التي تتعلق بالفكرة؛ أن يعود نفسه ضبط أفكاره، ووزن آرائه، وعقد صلة بينهما وبين ما يجري في شئون الناس، وعامة أمورهم، ليكون على أهبة القول الخطابي إن وجدت دواعيه. ومنها أن يكون كثير التأمل في شئون الحياة؛ عميق الفكرة فيها، كثير الدراسة لأحوالها؛ وأن يعود نفسه الاتصال بالناس؛ ليخلط نفوسهم بنفسه، فيحس بإحساسهم، ويكون قريبا منهم، إن وجد ما يدعو إلى خطابهم. ومن الرياضة التي تتعلق بالأسلوب أن يتحدث بجيد الكلام، أو يكتبه كثيراً، وأن يكون في مرانه الخطابي محاكيا البلغاء في أساليبهم؛ أو مقتبساً منهم، أو سائراً في مثل دربهم. ومن الرياضة التي تتعلق بالإلقاء أن يعود نفسه إخراج الحروف من مخارجها، وأن يقرأ كل ما يستحسنه بصوت مرتفع؛ مصوراً بصوته معاني ما يقرأ، بتغيير النبرات، ورفع الصوت، وخفضه، وأن يغشى الجماعات والمحافل التي تكون ميادين قول، وإذا عنت له فكرة ووجد الفرصة سانحة- فليقل غير هياب ولا وجل ولا مستحي؛ فإن الاستحياء في هذا نوع من الضعف، وهو يجر إلى الحبسة، وموت المواهب؛ وعليه أن يقول مرتجلا ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وإن ضعف أسلوب ارتجاله، أو أصابته حبسة مرة لا ييأس من أن يجيد مرتجلا، ويسيب سيب بلاغته مرة أخرى؛ بل قد يصير ذلك له عادة، وشأناً.

والقول الجملي، يجب على المريد أن يروض نفسه على الخطابة الجيدة؛ حتى تصير له شأناً. وقد قال الجاحظ في هذا كلمة محكمة، فقد جاء في البيان والتبيين: «وأنا أوصيك، ألا تدع التماس البيان والتبيين، إن ظننت أن لك فيهما طبيعة، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة، ويشاكلانك بعض المشاكلة، ولا تهمل طبيعتك، فيستولي الإهمال على قوة القريحة، ويستبد بها سوء العادة، وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوة المنة يوم الحفل، فلا تقصر في التماس أعلاها في البيان صورة، وأرفعها في البيان منزلة»، وليست الرياضة فقط لطالب الخطابة، بل هي لازمة لمن شدا فيها، وعظم أمره، وعد من أفصح الخطباء، فقد كان شيشرون أخطب خطباء الرومان يتمرن على إلقاء الخطبة قبل أن يقدم على إلقائها. وكانت تلك حاله حتى قتل.

أصول الخطابة

تكوين الخطبة

مقدمــــة

لا شك أن من يريد إلقاء خطبة في موضوع، يجمع العناصر أولاً، ثم يرتبها، ويضع كل عنصر في موضعه اللائق به، ثم يعبر عن ذلك وقد تحدث منه تلك الأعمال الثلاثة في أسرع وقت، وأقصر زمن، كما ترى في الخطب الارتجالية، وفي المحاورات، والمناقشات الخطابية. وقد تحدث بعد ترْوية وإمعان وتفكير وفي زمن طويل، وذلك في الخطب التي تهيأ وتحضر، وتعد إعداداً. ومهما يكن من حال الخطيب والخطبة فتلك الأعمال الثلاثة لابد أن تكون. وقد جاء في كتاب علم الخطابة للعالم لويس شيخو، قال ابن المعتز والشيباني: إن البلاغة بثلاثة أمور: أن تغوص لحظة القلب في أعماق الفكر، وتتأمل لوجوه العواقب، وتجمع بين ما غاب وما حضر، ثم يعود القلب على ما أعمل الفكر، فيحكم سياق المعاني، والأدلة، ويحسن تنضيدها، ثم تبديه بألفاظ رشيقة مع تزيين معارضها، واستعمال محاسنها. قال بعض الحكماء: العلوم الأدبية مطالعها من ثلاثة أوجه: قلب مفكر، وبيان مصور، ولسان معبر.

ويسمى العمل الأول إيجاداً أو اختراعاً، والثاني التنسيق، والثالث التعبير، وتلك هي الأركان، التي تقوم عليها الخطبة، والعناصر التي تتحد في تكوينها.

الإيجاد

وهو إعمال الفكر لاستنباط الوسائل التي من شأنها إقناع السامع واجتذابه، وإثارة حماسته إلى ما يدعو إليه المتكلم. إن عمل الخطيب أن يقدم حقائق، أو ما يشبه الحقائق، ويجب أن يكون عند تقديمها بحال لا تمنع من قبول كلامه، بل يجب أن يكون بحال تجذب الناس إليه، وتدفعهم إلى الإنصات له، وتقبله بقبول حسن، وأن يجتهد في حمل السامعين على الإذعان لما يقول، والتسليم به، وإثارة حماستهم له. قال ابن سينا في الشفاء: التصديقات الصناعية التي يحتال لها بالكلام ثلاثة أصناف: الأول العمود، والثاني حال المتكلم عند تأدية الكلام في سمته كما يتفق أن يكون، سمت صالح متخشع فاضل، أو سمت

صادق جاد، أو خلاف ذلك، أو يكون له لطف في تأديته. والثالث: استدراج السامعين، ويجب أن يكون الإيجاد شاملا لكل هذه العوامل؛ ولذا قالوا إن الإيجاد يشملها، وسموا الأول الأدلة، والثاني الآداب الخطابية؛ والثالث إثارة الأهواء.

الأدلة

الدليل ما يتوصل به إلى بيان صحة الحكم سلباً أو إيجاباً، والأدلة الخطابية لا يلزم أن تكون قطعية موجبة لليقين، بل يصح أن تكون ظنية توجب في ذاتها الظن، ولكن بما يستخدمه الخطيب من وسائل يرفع ذلك الظن في نفوس السامعين إلى مرتبة اليقين؛ بل يجعله في أعلى درجاته، ومثال الأدلة القطعية في الخطب قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في بيان قدرة الكائنات، بجوار قدرة الله سبحانه وتعالى: بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها؛ ولو قدرت على الامتناع دام بقاؤها.

فهذا الدليل قطعي إلزامي، ولا شبهة فيه عند أهل النظر. ومثال الأدلة الظنية قوله لعمر، عندما استشار الصحابة في سفره على رأس الجيش لفتح فارس: مكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز، يجمعه ويضمه، فإذا انقطع النظام، تفرق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً. والعرب اليوم (وإن كانوا قليلا) فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع؛ فكن قطبا، واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب؛ فإنك إن شخصت من هذه الأرض، انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها؛ حتى يكون ما تدع وراءك من العورات، أهم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً، يقولوا هذا أصل العرب؛ فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك، وطمعهم فيك.

ونرى أن كل ما اشتمل عليه هذا الكلام من أدلة ظني؛ ولكنه مع ذلك يسوق النفس إلى الإقناع كرها، لا طوعا.

والأدلة الخطابية سواء أكانت إلزامية أم إقناعية، تحذف في الغالب إحدى مقدماتها؛ لأن الأساليب الخطابية تتجافى عن الأساليب المنطقية الجافة؛ إذ يقبح الأسلوب المنطقي فيها إلا إذا كانت الخطابة قضائية، فإن الأسلوب المنطقي قد يحسن، وقد يكون مجملا لها. وقد قال ابن سينا في علة حذف إحدى المقدمات في الكثير الشائع: إن الخطابة إنما تحذف الكبريات فيها؛

لأنها لو صرح بها لزال الإقناع، لأن تلك الأحكام إذا حصرت بالكلية، علم كذبها، وخصوصا في المشهورات منها.

والأدلة لها ينابيع تصدر عنها، وتستنبط منها، ويتجه إليها عند طلبها، وتسمى (مواضع) وقد ذكرها الأقدمون من اليونان؛ ليسهل على الخطباء والجادلين الحصول على ما يبرهنون به دعاواهم؛ وليمتحنوا بها قضاياهم التي يسوقونها؛ وقد قال ابن سينا فيها: إن الحجج في الخطابة تكتسب من المواضع، فمن طلب الإقناع وهو لا يعلمها كان كحاطب ليل، يسعى على غير هداية، لا لبخل من الموجود، بل لنقصان في الاستعداد.

المواضع

المواضع هي المصادر التي يمكن الخطيب أن يتخذ منها ما يستدل به على دعواه، كالتعريف، فإن الخطيب يمكنه أن يتخذ منه في بعض الموضوعات مصدرا لاستدلاله، فإذا كان مثلا يدعو إلى الصدق، يصح أن يبرهن على ضرورة الأخذ به، بتعريفه، وذكر خواصه، ولوازمه التي من شأنها أن تبينه نافعا. وكالتشبيه؛ فإن الخطيب يستطيع أن يعقد صلة بين شئ غير مسلم به، وآخر مسلم به من السامعين؛ ويتخذ من تلك المشابهة دليلا على ضرورة ما يدعو إليه وصدقه، وهكذا. وقد قسم العلماء المواضع إلى ذاتية وعرضية.

المواضع الذاتية

فالذاتية تؤخذ من ذات الموضوع، لا من شئ خارج عنه، كأن يبين فوائد العلم، بذكر خواصه اللازمة له، وقد ذكر الفلاسفة عدداً من المواضع الذاتية، نكتفي ببيان ما نراه كثير الشيوع على ألسنة الخطباء قديماً وحديثاً، ومن ذلك:

١ -التعريف:

تعريف الشئ، يكون دليلا خطابياً، أو بعبارة أدق مقدماً لدليل خطابي. ولذلك طرق عدة منها:

١ - أن يعرفه بخواصه التي تفيده فيما يدعو إليه، كقول علي رضي الله عنه داعياً إلى الأخذ بهدى المتقين، واصفا لهم:

«والمتقون هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء، كالتي نزلت في الرخاء[1]، ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب، وخوفاً من العقاب».

٢ - ومنها أن يعرفه بالاستعارات أو التشابيه أو نحوها، كقول شبيب بن شيبة في مدح خليفة: «ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة: الأسد الخادر[2]، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر، فأما الأسد الخادر، فأشبه منه صولته ومضاءه، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر، فأشبه منه نوره وضياءه، وأما الربيع الناضر، فأشبه منه حسنه وبهاءه».

٣ - ومنها أن يعرفه ببيان أنواعه، وذكر أقسامه. ومن ذلك قول علي رضي الله عنه في بيان الرزق «الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك، كفاك كل يوم على ما فيه، فإن لم تكن السنة من عمرك فإن الله تعالى سيؤتيك في كل غد جديد ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك، فما تصنع بالهم لما ليس لك. ولن يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يغلبك عليه غالب، ولن يبطئ عنك ما قد قدر لك».

ونرى من هذا أن طرق التعريف الخطابي ليست هي الطرق المنطقية وحدها، بل تكون بها وبغيرها، مما لا يقره المنطق تعريفاً مصوراً للموضوع.

والتعريف يكون موضعاً خطابياً:

١ - عندما يرى الخطيب أن التعريف كاف لفض النزاع، وإنهاء الخصومة، إذ يكون تعيينا لموضع النزاع، وبذلك يسير في طريق يجتمع فيه الخصمان، فلا تتشعب مسالكهما، إذ في تشعبها توسيع لهوة الخلاف، وتطويل لمداه.

٢ - وعندما يرى أنه يستطيع استنباط الدليل من خواص الشيء، إذ تكون هي مناط الحكم، كما إذا ادعى أن العدل محمود، فإنه يذكر صفاته وخواصه النافعة، ويكون ذلك دليلا على جدارته بالتفضيل وإعلاء مكانته.

(١) معنى هذه الجملة أنهم في البلاء كما هم في الرخاء لا يهنون ولا يحزنون لأملهم في الله، وطمعهم في رحمته، وصبرهم وخشوعهم.

(٢) الخدر: يطلق على أجمة الأسد، فأسد خادر مقيم في أجمته.

٣- وعندما يريد مدحاً أو ذماً لأحد من الناس، فيذكر صفاته الحسنة، كما رأيت في وصف شبيب بن شبة للخليفة مادحاً.

٤- أو يريد حضاً على أمر، أو تنفيراً منه، فإنه يذكر صفاته الحسنة إن أراد الأول، وصفاته القبيحة إن أراد الثاني.

٥- وعندما يريد إيضاح أمر أشكل فهمه على السامعين، فيعمد إلى تعاريف كاشفة، تجذب القلوب إليه، وتوضح للسامعين ما أشكل عليهم أمره.

٢- التجزئة:

المراد بالتجزئة أن تتجه في الحكم إلى الجزئيات تتبعها بالحكم الذي تريده، جزئياً جزئياً، حتى تستخلص النتيجة التي تريدها، ولها طريقان:

أحدهما - أن تتبع الجزئيات، لتستنبط منها حكماً واحداً لكليهما. وذلك مثل قول قطري بن الفجاءة في وصف الدنيا:

«كم واثق بها قد أفجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي نخوة قد ردته ذليلاً، وكم من ذي تاج قد كبته لليدين والفم، سلطانها دول، وعيشها رنق[1]، وعذبها أجاج[2]، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام[3]، وأسبابها رمام[4]، وقطافها سلع[5]، حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اهتضام. مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محروب[6]، مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحاكم العدل، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى».

ألا تراه في ذلك قد تتبع الجزئيات، ليتخذ من حالها حكماً كلياً، على ما في الدنيا، فإنه إلى زوال، ومن فيها إلى الموت، والوقوف بين يدي الحاكم العدل، وبأنها لا يصح أن تكون غاية العباد، ومطلبهم الأسمى.

---

(١) رنق: معناها كدر.

(٢) أجاج: معناها مر.

(٣) سمام: جمع سم.

(٤) الأسباب الحبال. ورمام: معناها بالية، واهية.

(٥) القطاف: الثمر. وسلع: مر.

(٦) المحروب: المسلوب.

وثانيها -- أن تتبع الجزئيات لتخص واحداً من بينها، بحكم لزيادة التنبيه. على خصائصه، وللحث على الأخذ به، أو التنفير منه، كقول جامع المحاربي للحجاج، وقد شكا إليه سخط أهل العراق عليه: «أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، فدع ما يبعدهم عنك إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية ممن دونك، تعطها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك»، فترى من هذا أنه استقرى أحواله حالا حالا، ونفى عنها السبب في الكراهية، ثم قصر السبب على الحكم، وأشار إليه إشارة في قوة التصريح، ثم أخذ ينبهه إلى ما يجب، وما من شأنه إدناء القلوب النافرة.

وترى من ذلك كله أن التجزئة منهج خطابي، يعمد إليه الخطيب عندما يريد المبالغة في إثبات الحكم، والحرص على تأكيده، وتقريره في نفوس السامعين. وهي لا يعمد إليها إلا في مقام الإطناب، ولا يتجه الخطيب إليها في مقام الإيجاز، لأن غيرها يغنى عنها، ففى كلمة المحاربى السابقة لو كان يقصد إلى الإيجاز، لقال له من أول الأمر: إن السبب في السخط حكمك، ثم بنى عليه ما أراد، ولكنه بدأ بالنفى عن الأحوال السابقة واحدة واحدة، ثم خص الحكم بالسبب، فكان ذلك دالا على مزيد العناية به، وذلك من نوع الإطناب المفيد.

٣ - التعميم ثم التخصيص:

هذا مقابل التجزئة، إذ يبتدأ فيه بذكر العام، ويحكم بما يراد، ثم ينزل منه إلى الخاص. وذلك كثير على ألسنة الخطباء، يبتدئون خطبهم بقضايا كلية مسلم بها، أو في منزلة المسلم به، للتقرير، ثم يخصون بعد ذلك بعض الجزئيات بالذكر، وما الحكم الرائعة التي يبتدئ بها كثير من الخطباء خطبهم، إلا من ذلك النوع، ولقد قال ابن سينا في هذا: «جملة ما يقال في ذلك، إن الخطباء قد اعتادوا أن يأتوا في صدر خطبهم بنظر عام في مقصدهم، لما يأتون في خطبهم». ومن أبلغ التعميم ثم التخصيص قول النبي ﷺ في خطبة الوداع: «أما بعد أيها الناس، اسمعوا مني، أبين لكم، فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب».

فتراه ﷺ، يبتدئ بحكم عام، فيسقط الربا كله، ثم يخص ربا العباس بالإسقاط، ليبين للناس أنه يبتدئ بتنفيذ الأحكام على أقرب الناس إليه، فيكون في ذلك أسوة حسنة، ثم يبين أن دماء الجاهلية ساقطة، وأول دم يسقطه دم من يعد هو من أوليائه؛ ليكون أول الآخذين بحكم الدين. وفي هذا ترى الانتقال من العام إلى الخاص على أبلغ وجه.

ومن الابتداء بقضايا كلية مسلم بها، لتكون تمهيداً للمطلوب قول الأحنف بن قيس في وفادته لعمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين: إن مفاتيح الخير بيد الله، والحرص قائد الحرمان، فاتق الله فيما لا يغني عنك يوم القيامة قيلاً ولا قالاً، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود، واستماحة الممتاح».

٤ – العلة والمعلول:

التعليل روح الاستدلال، فالعلة الباعثة على الفعل، والغاية المنشودة منه، طريق للحكم عليه بأنه خير، أو شر، وبأنه صحيح، أو باطل، وبأنه سائغ، أو غير سائغ؛ لذلك يعمد الخطباء إلى ذكر البواعث على الأفعال، والدوافع إليها؛ ليتخذوا منها سنداً في الحكم عليها. وأخص من يفعل ذلك المحامون، ورجال النيابة، فإنهم يتخذون من الدافع على الجريمة دليلاً موجباً لتخفيف العقوبة، أو دليلاً على وجوب التشديد فيها، ويتخذون من البواعث على الإقرار، أو الإنكار دلائل موجبة أو سالبة. ومن ذلك ما جاء في مرافعة أحد المحامين الفرنسيين في إثبات أن الدافع لإقرار المتهم، يحمل على عدم الأخذ به، فقد قال: تقولون إنه لابد من الحكم، لأنه أقر، وتقولون إن هذا الإقرار حر، أما رأيتم كيف وصف لكم الشهود ذلك المنظر؟ ألم يظهروا لكم التأثير الذى كان المتهم فريسته؟ ألم يظهروه لكم يقاوم، ويبكى، ويقع على الأرض، ويجذب شعر رأسه؟ ألم تروا أن العذاب النفسي الذى وقع المتهم فريسته هو الذى دفعه لأن يقر، ثم ما كاد ينهض على قدميه حتى لجأ لكل إنسان يحاول أن يسترد إقراره، فأسرع إلى محاميه، وطلب منه بكل الطرق أن يدفع به للمحاكمة؛ وصار يصيح في كل فرصة، وفي كل مكان: إنني بريء، إنني بريء... افرضوا يا حضرات المحلفين، أن نظام التعذيب. كان لايزال قائماً، وجاءكم المتهم وأثر الحديد في يديه، وقد أفلت من قسوة معذبيه، فهل كنتم تقولون له أنت مذنب؛ لأنك اعترفت؟ إنه يقول لكم: لقد رأيت دمي يتساقط، وسمعت عظامي تتحطم، فغلبني الألم. وقال الطبيب إن الموت قاب قوسين أو أدنى؛ فغلبني الخوف، فأقررت، ولكني بريء؛ أكان منكم أنتم الذين تحاكموننا، أو أنتم الذين تتهموننا- أكان منكم من يقول له: لقد

أقررت وأنا أحكم عليك بإقرارك؟ لا لا، ليس فيكم هذا الشخص. ففي هذا الدفاع القيم، ترى أن ذلك المدره الجيد قد اتخذ علة الإقرار، والداعي إليه حجة على بطلانه، ودليلا على أن الواجب عدم الأخذ به.

وقد يتجه الخطيب إلى المعلومات والآثار؛ للدلالة على أن الفعل لا يصح أن يقع، وإن وقع، فهو محل للوم، يجب الإقلاع عنه، وأخذ الأهبة لمقاومة من هم واقعون فيه، أو من يدعون إليه، ويحثون عليه.

ومن ذلك خطبة ديموستين التي يبين لليونان فيها آثار فتح فيليب المقدوني لبلادهم؛ وهي التضييق على الحرية، وموت الديمقراطية اليونانية.

وقد قال في تلك الخطبة: إن أخشى ما يخشاه فيلبس، وأمقت ما يمقته، هو حريتنا، هو نظامنا الديمقراطي؛ فلكي يقضي على هذه الحرية، وهذا النظام، يهيئ جميع شراكه، ويدبر جميع تدابيره؛ أو ليس يجري على مبدأ واحد في كل أعماله هذه؟ إنه يعرف تمام المعرفة، أنه لو أخضع بلاد الإغريق كافة، وعمها بفتوحه؛ فإنه يظل غير آمن، مادامت ديمقراطيتكم صحيحة، لم تمس؛ وهو يعرف أنه إذا أصابته هزيمة من تلك الهزائم التي تقدرها الأقدار لبني إنسان، فإن جميع الأمم التي قرنها عنوة إلى نيره تسارع إلى الانضواء إليكم... أفي العالم أمة مقهورة تحتاج إلى رد حريتها إليها؟. هاكم أنتم. وإنما ذكر التضييق على الحرية، وضياع الديمقراطية وحدهما؛ لأنهما أعز شيء عند اليونان، فذكرهم بهما؛ ليحفز همتهم إلى مقاومة فيليب، ومحاربته. فترى من هذا أنه استخدم الآثار في الاستدلال على وجوب المقاومة، ورد الأعداء، وترى كيف استخدم المعلول في الاستدلال على المطلوب.

٥-المقابلة:

بين شيئين؛ ليبين الحق فيهما؛ فإن الأشياء تتميز بأضدادها وتعرف بنظائرها. وهي معين للاستدلال الخطابي، وفوق ذلك تعطي الكلام حلاوة، ورونقا، ويتخذ الخطباء منها حججهم بطريقتين.

(إحداهما) أن يذكر الخطيب الشيء ومقابله؛ ويذكر صفاتهما؛ ومن ذلك يتبين الحسن منهما كما قال الإمام علي رضي الله عنه للأشعث بن قيس في فضل الصبر «إن صبرت جرى عليك القدر، وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر، وأنت موزور».

(ثانيتهما) أن يبرهن على بطلان المقابل؛ فيثبت المطلوب كما فعل الإمام على رضى الله عنه عندما ناقشه الخوارج؛ واعترضوا عليه بإباحة أموال أهل الجمل دون النساء والذرية؛ فقد قال: إنما أبحت لكم أموالهم بدلا عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومى عليهم؛ والنساء والذرية لم يقاتلونا، وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر. وبعد لو أبحت لكم النساء أيكم يأخذ عائشة في سهمه؟. فخجل القوم. فترى من هذا كيف أفحمهم ذلك الخطيب العظيم؛ إذ أبطل لهم دعواهم سبى النساء بتلك الحجة البالغة؛ وهى أن السبى لو كان حقا. لكان من الحق سبى عائشة أم المؤمنين، ومثل ذلك لا يعقل من مؤمن. وإذا بطل هذا، ثبتت صحة ما فعل، وهو منع سبى النساء والذرية.

ولا يعمد الخطيب في إثبات دعواه بإبطال نقيضها- إلا إذا كان إبطال النقيض أسهل عليه، وأيسر من إثبات الدعوى، من أول الأمر. وفي الحق أن تلك كلها أسلحة لديه، يستعمل منها ما يراه أسهل، وأدنى إلى الإقناع، وأقرب إلى الإجابة، وأحرى بالتأثير، وامتلاك ناصية القول.

٦- التشابه وضرب الأمثال:

(أ) يعمد الخطباء إلى تقريب الأمور التى يدعون إليها من نفوس الجماهير؛ ليأخذوها قضية مسلمة، لا يناقشون فيها، ولا ينظرون إليها نظرة فاحصة كاشفة؛ ويتخذون لذلك طريقا، من سلكه وصل إلى غرضه، وهو عقد صلة بين ما يجهلون وأمر معروف، ويسمى ذلك التشابه أو المشابهة أو التمثيل، وهو أن يقيس الأمر الذى يدعو إليه على أمر معروف عندهم؛ مقبول لديهم؛ فيقبلوا الجديد لقبول القديم؛ ويستصحب شرف القديم شرفا للحديث، أو يعمد إلى الموازنة بين الحال التى يدعو جماعته إليها، والحال التى هى فى مكان المسلم بها عند جماعات أخرى؛ كما فعل المغفور له «مصطفى كامل» في بعض خطبه الحماسية إذ قال: القوا أيها السادة بأنظاركم قليلا إلى الأمم الحرة، تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه، ويذود عن حوض بلاده- أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه، بل هو يرضاهما ضحية للوطن، ويرضى نفسه قبلهما قربانا يقدمها لإعلاء شأن بلاده، ويعد الموت لأجل الوطن حياة، دونها الحياة البشرية، ووجوداً دونه كل وجود، فلم لا يكون المصرى على هذا الطراز، ووطنه أجمل الأوطان، وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة.

ومن أبلغ أنواع التشابه الخطابي قول أبي عبيدة عامر بن الجراح، ينذر أهل الشام عند فتح بلادهم: لا يغرنكم عظم مدينتكم، وتشييد بنيانكم، وكثرة زادكم، وعول أجسامكم؛ فإننا نزلنا بلاداً أخصب من بلادكم، وفتحنا أمصاراً عمرة، ومدائن أحرز من مدينتكم؛ وخرج علينا أعلاج[1] موفورة ألوانهم، مدرعون، مترسون، فصلد نجمهم، وذهب أمامنا ريحهم، ورددناهم على الأعقاب، لا يلوي أولهم على آخرهم.

(ب) وقد يتجه الخطيب إلى التشبيه البياني المعروف، لا لتحسين الكلام وتزيينه، بل للاستدلال الخطابي، وتقريب المعاني التي يريدها، وسوق ذلك سوق البرهان، وذلك يكون عندما يتقدح الرأي في النفس ويستولي عليها استيلاء تاماً، ويرى صاحبه أن النفوس تفهم بالتشبيه ما حاك في الفؤاد؛ وجال في القلب، واستولى على النفس.

ومن أبلغ ذلك ما جاء على ألسنة بعض الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، عندما استفتاهم الفاروق عمر رضي الله عنه فيما يستحقه الجد من التركة مع الإخوة.

وقد قال زيد بن ثابت في تأييد رأيه من أن الإخوة أولى[2]: لو أن شجرة تشعب من أصلها غصن، ثم تشعب في ذلك الغصن خوطان[3]؛ وذلك الغصن يجمع الخوطين دون الأصل، ويغذوهما؛ ألا ترى ياأمير المؤمنين، أن أحد الخوطين أقرب إلى أخيه، منه إلى الأصل.

(جـ) وقد يتجه بعض الخطباء إلى ضرب الأمثال؛ ليقربوا إلى الناس ما يريدون من الأمور، فيشبهون حال جماعتهم أو حالهم بحال مفروضة لجامع يجمعهما، كما فعل عمر رضي الله عنه في إحدى خطبه في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ قال:

أيها الناس اتقوا الله في سريرتكم وعلانيتكم، وأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ولا تكونوا مثل قوم كانوا في سفينة، فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه، فنظر إليه أصحابه، فمنعوه، فقال هو موضعي ولي أن أحكم فيه، فإن أخذ على يده سلم، وسلموا، وإن تركوه هلك، وهلكوا معه. وهذا مثل ضربته لكم، رحمنا الله، وإياكم.

وقد يقول قائل: أين هذا من الاستدلال وسوق البراهين؟ ونقول في الإجابة عن هذا: إن ذلك المثل قد تضمن أبلغ أنواع الاحتجاج، فهو قد بين لهم بطريقة قريبة من نفوسهم،

(١) العلج: الرجل من العجم غير المسلمين.

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم.

(٣) الخوط: الغصن الناعم.

موضحة لمقولهم، خالية من جفاف المنطق، أن ترك الأمر بالمعروف في الأمة مؤد إلى فساد الأمر، واضطراب حاله، والضرر حينئذ لا يقع على مرتكب الإثم وحده؛ بل يعم ولا يخص. وذلك دليل موضح لوجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقد ذكره الفاروق في أبلغ عبارة، وأوجز بيان، وأقرب القول إلى النفوس والمدارك.

وقد يتجه الخطيب إلى تصوير فكرته، بذكر مثل خيالي، لا يتصور العقل وقوعه، كتلك الأمثال التي تجري على ألسنة البهائم، ومن ذلك ما جاء في بعض خطب الإمام علي رضي الله عنه، فقد قال:

إنما مثلي، ومثل عثمان، كمثل أثوار ثلاثة كنّ في أجمة: أبيض، وأسود، وأحمر، معهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء؛ لاجتماعهن عليه، فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض، فإن لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتماني آكله، صفت الأجمة. فقالا: دونك، فكله، فأكله فلما مضت أيام، قال للأحمر: لوني على لونك؛ فدعني آكل الأسود؛ لتصفو لنا الأجمة، فقال، دونك، فكله، فأكله، ثم قال للأحمر: إني آكلك، لا محالة، فقال: دعني أنادي ثلاثا، فقال: افعل، فنادى. ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض، ثم قال علي رافعا صوته: ألا إني وهنت يوم قتل عثمان».

وذلك النوع من الأمثال، يسوقه الخطيب إذا أراد أن يستتر في بعض كلامه فلا يصرح ببعض الأشخاص، أو يصور للمعاني خالية من كل علاقة لها بأشخاص؛ أو يريد بها تقريب الأفكار من النفوس، مع تمليح الكلام وتزيينه.

المواضع العرضية

هي مصادر الأدلة الخارجة عن ذات الموضوع؛ وذلك لأن المخاطب أحياناً لا يدرك ما في ذات الموضوع من خصائص ومزايا وثمرات؛ فيصعب عليه أن يقتنع بأدلة، تستمد قوتها من تلك الخصائص، فيستعان على إقناعه بأمور خارجية؛ هي عنده صادقة، وهو لها مذعن، فيبين له الخطيب أن تلك الأمور تؤيده، وتحث على ما يدعو إليه؛ فيسلم بما يقدم له من غير جدل، ويذعن من غير نقاش؛ لأن الأمر أحيل على ما هو عنده في مرتبة التقديس.

وأكثر تلك المواضع قوة أو أثراً أمور منها:

١ – الدين:

إذ هو أكثر الأمور سيطرة على القلوب، خصوصاً قلوب العامة، فإنه لهم المرشد الأمين، والمعزى لمن برحت بهم الآلام، والمسلى لمن نزلت بهم الهموم، والمهذب لمن لا معلم له، والمربى للوجدان، والموقظ للضمائر، والمتدينون لا يخضعون لشئ كما يخضعون لدينهم، ولا يصدعون إلا بحكمه، فإذا أيد خطيب في جماعة متدينة قضاياه بالدين، وربط بينها وبين دينها صلة، ووثق عرا الألفة بين ما يدعو إليه وبين ذلك الدين أجابت نداءه، ولبته في حماسة وقوة وشعور دافق وحمية، وخطباء العرب في صدر الإسلام، كانوا يحلون خطبهم بشئ من القرآن الكريم، والحديث الشريف لتكون لهم الحجة البالغة؛ إذ كانوا يخاطبون قوما كل مجدهم جاء من الدين الإسلامى الحكيم، ولأن القرآن الكريم فى منزلة من البلاغة دونها أى كلام، والحديث الشريف في المنزلة الكاملة لبلاغة البشر، وسيجئ إليك ذلك واضحا فى تاريخ الخطابة.

وقد عد الاستشهاد بالدين من المواضع الخارجة؛ لأنه ليس من ذات الموضوع ولا مشتقا من خصائصه، ولكن جاء من شئ خارج عنه، وهو يفيد اليقين والجزم، وإن كان من شئ خارج عن الموضوع، لأن مسائل الدين فى مكانة من اليقين، لاتعدلها مكانة، فإذا استشهد به استشهادا صادقا، حلت دعوى الخطيب فى القلب، فلا تنتزع منه، لأنها تصير جزءا من أوامر الدين، فتكسب منه تقديساً.

٢ – العادات:

كل جماعة من الناس لها عادات تسودها وتسيطر عليها، وهى متمكنة من نفوسها، ومستولية عليها، وقد قال العلامة باسكال فى سيطرة العادات على نفوس الناس، وقوة ما يشتق منها من أدلة: ماذا تكون مبادئنا الفطرية، إذا لم تصدر عن العادة، فالعادة هى طبيعة ثانية تقوض أركان الأولى ومنها تأخذ أشد أدلتنا قوة، وأكثرها قبضا، وهى التى تعين وجهة النفس دون أن يفكر الإنسان؛ وبها يصبح الإنسان نصرانيا، أو وثنيا، أو تركيا، أو محترفا، أو جنديا.. إلخ، ثم بها تستعين النفس وقتما تمر على مكان الحقيقة.

وقال العلامة جوستاف لوبون: لو أن قدرة خارجة جعلت الإنسان أو الشعب يهرب من تأثير عاداته، لأصاب الفالج حياته فجأة، لأن العادة هى التى تملى علينا كل يوم ما يجب أن نقوله، ونفعله، ونفكر فيه.

وإذا كان لعادات الأمم هذه القوة، وذلك السلطان على القلوب؛ فيجب أن يعتمد عليها الخطيب في مقام التأثير؛ بأن يقرب ما يدعو إليه، مما يألفون من عادات، وما اصطلحوا عليه من عرف؛ ليسكنوا إلى الأمر، ويخضعوا له، ويطمئنوا إليه؛ لأن إقبال الناس يكون شديداً على الأمور التي تكون من جنس ما يألفون.

وقد كان الأحنف بن قيس وهو من أبلغ البلغاء، والخطباء المسودين، ممن يجمعون إلى قلوب العامة من ناحية عاداتهم وما يألفون، قيل له: بم سدت؟ قال: لو أن الناس كرهوا الماء ما شربته. ومعنى هذا أنه يحترم العرف، ويعرف سلطانه؛ فهو يتخذه طريقا لسيادته، ولتأثير بيانه.

ومن الخطباء الذين كانوا يلجأون إلى العادات أحيانا في التأثير المغفور له سعد زغلول «باشا»؛ ومن ذلك خطبته في الأزهر الشريف، إذ جاء فيها:

جئت اليوم لأؤدي في هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة، ولأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه، وكان له فضل كبير في النهضة الحاضرة، تلقيت فيه مبدأ الاستقلال؛ لأن طريقته في التعليم تربي ملكة الاستقلال في النفوس؛ فالتلميذ يختار شيخه والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادة التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه.

ألا تراه في هذا أخذ يستدرج سامعيه بتقريب ما يرمي إليه (وهو نشر فكرة الاستقلال) مما ألفوه، وما يعرفونه، وما اعتادوه.

٣- تتبع آثار السلف:

لآثار سلف الأمة قوة في نفوس الأحياء منها؛ وسلطان كبير في قلوبهم، وقد كان المشركون، لا يجدون أمرا يتخذونه تكأة لمخالفة النبي ﷺ؛ إلا أنهم يتبعون الآباء؛ إذ كانوا يقولون كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾. وما كان هؤلاء البلغاء الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم قوم خصمون، يعمدون إلى ذلك الاحتجاج، إلا لما يعرفونه من تأثير آراء السلف في الخلف، ولو كان الأولون على ضلال، لا يعقلون شيئا، ولا يهتدون.

وأقوى الأفكار أثراً في النفوس، ما جاء متصلا بآثار السلف، مؤتلفا معها.

قال العلامة جوستاف لوبون: تقدم علم تركيب الأجسام، من يوم أن بيّن علم التكوين مقدار تأثير الماضي في تطور الكائنات؛ وسيتقدم علم التاريخ أيضا حينما ينتشر هذا؛ لأن انتشاره

لم يعم؛ بدليل أن كثيرا من أقطاب السياسة لا يزالون على أفكار أهل القرن الماضي؛ ممن كانوا يتخيلون أنه يتيسر للأمة أن تتخلع عن ماضيها، وتنشئ نفسها من جديد غير مستهدية في ذلك إلا بنور العقل وحده، وفاتهم أن الأمة جسم منظم، أوجده الماضي، فهي كغيرها من الأجسام، لا تستطيع الانتقال من طور إلى طور، إلا بتراكم آثار الوراثة فيها على مهل.

ولذا يحسن أن يقرب الخطيب بين فكرته، وبين ما أثر عن سلف الجماعة التي يخاطبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وما دام سلف تلك الجماعة لم يشتهروا بباطل، ولم يعرفوا بسوء.

ومن أحسن الخطباء الذين سلكوا ذلك المسلك الحسن البصري، فقد كان في خطبه يتجه في تأييد أفكاره إلى ما كان عليه الصحابة رضوان الله تعالى عنهم.

ومن خطبه في ذلك قوله: أيها الناس، إن لله عبادا قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا الأيام القلائل؛ لما رجوه في الدهور الأطاول؛ أما الليل فقائمون على أقدامهم يتضرعون إلى ربهم، ويسعون في فكاك رقابهم، تجرى من الخشية دموعهم، وتخفق من الخوف قلوبهم، وأما النهار فحلماء أتقياء أخفياء، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تخالهم من الخشية مرضى وما بهم من مرض؛ ولكنهم خصصوا بذكر النار وأهوالها. لهم والله كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم! وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم، ولهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم. أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون.

٤- أقوال الأئمة ومن اشتهروا بالحكمة:

وذلك باب واسع من الاستدلال، يتجه إليه الخطيب ليحلي به خطبته؛ فإن لكلام الحكماء المشهورين، والأئمة المعروفين روعة وهزة في النفس، وهي ثمرات تجاربهم، ومخزون أفكارهم، وهي في منزلة المسلم بها؛ وكثير من الخطباء قديما وحديثا يبتدئون خطبهم بحكمة مشهورة، أو قول حكيم عرف بالعلم، والفكر الناضج، ويجملون خطبهم بذلك النوع من الاستدلال.

ومن ذلك قول الحسن البصري في دعوة المسلمين إلى التآزر والتناصح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

إن المسلم مرآة أخيه المسلم، يبصره عيبه، ويغفرله ذنب، قد كان من قبلكم من السلف الصالح يلقى الرجل الرجل، فيقول يا أخي ما كل ذنوبي أبصر، ولا كل عيوبي أعرف، فإذا

رأيت خيرا فمرني، وإذا رأيت شرا فانهني، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوينا.

ومن أبلغ الكلام الخطابي المشتمل على ذلك النوع من الاستدلال؛ وإن لم يجئ في خطبة؛ قول المسعودي في حب الأوطان:

إن من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط الرأس تواقة. وقد ذكرت العلماء: أن من علامة وفاء المرء، ودوام عهده، حنينه إلى إخوانه، وشوقه إلى أوطانه، وبكاءه على ما مضى من زمانه.

قال ابن الزبير: ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم. وقال بعض حكماء العرب: عمر الله البلدان بحب الأوطان. وقالت الهند: حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك، لأن غذاءك منهما وغذاؤهما منه، وقال آخرون: أولى البلدان بلد رضعت ماءه، وطعمت غذاءه.

وقال آخر: ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتدك. وقال بقراط: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه؛ لأن الطبيعة تتطلع بهوائها؛ وتنزع بغذائها.

وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها. وقال جالينوس: يتروح العليل بنسيم أرضه كما تشرب الحبة بيل القطر، وللنفوس حنين إلى الأوطان، وإن لم يطب ماؤها وهواؤها؛ ولذا يقول بعض الأعراب يصف وطنه.

وكنا ألفناها، ولم تك مألفا ... وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها ... هواء ولا ماء، ولكنها وطن

٥-الشهادات والمواثيق:

وهي الركن الركين للاستدلال في الخطابة القضائية؛ فإن الشهادات باب واسع للتقاضي، وهي طريق القرائن، والوسائل لمعرفة الأحوال. وفي بعض القضايا تكون هي نقطة الحوار، وسبب الخلاف، وتباعد مطارح الأنظار، هذا يعمل على تزييفها، وذاك يعمل على تأييدها.

وأما العهود فقد قال فيها ابن سينا: إنها شريعة المتعاهدين؛ فكلاهما مأخوذ بها، مقيد بالسير في سبيلها، مفحم إذا قدمت إليه، أو ذكر بها؛ إذ فيها فصل الخطاب، ولذا إذا اتخذها أحد الخصمين دليلا، وكان صادقا، لحن بالحجة، ووصل إلى الغاية، ونال المطلوب.

والشهادات والمواثيق من المواضع العرضية، لأنها لم تشتق من خصائص الموضوع وذاته، بل هي أمور خارجة عنه، مؤيدة له، مثبتة لصدق الحكم، وإن لم تكن من ذات الموضوع، وليست علة لوجوده، ولا خاصة من خواصه.

ومن الخطب العامة التي كانت الشهادة ركنها، خطابة زياد بن أبيه عندما شهد الشهود بنسبه من أبي سفيان فقد قال: هذا أمر لم أشهد أوله ولا علم لي بآخره، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم وشهد الشهود ما سمعتم؛ فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس، وحفظ منا ما ضيعوا. وأما عبيد فإنما هو والد مبرور وربيب مشكور.

٦ – القوانين:

وهي الحجة الأولى في الخطب القضائية؛ إذ كلا المتنازعين يجتهد في أن يتخذ من القانون حجة لدعواه، أو طريقا للخلاص من ورطة الاتهام. ويريد كلاهما أن يفسره تفسيراً يتفق مع غرضه ومقصده، ومصلحة من نصب نفسه مدافعا عنه. والخطب التي كان القانون محور الاستدلال فيها، والحجة المنشودة والغاية المقصودة كثيرة، وكل مرافعات النيابة والمحامين من ذلك النوع من الخطب، وتلك الطريقة من الاستدلال.

وكانت القوانين من المواضع العرضية لأنها ليست وصفا ملازما للموضوع، ولا خاصة له، ولا علة لوجوده، ولكنها أمر خارج عنه حاكم عليه، مرتب على الفعل آثاراً حسنة، أو آثاراً سيئة لمن أوقعه. ومن أبلغ الخطب القضائية التي اشتملت على الاستدلال القانوني مرافعة نائب عام فرنسي في إثبات الجريمة على رجل متهم بقتل نفسين إذ قال: إنني أمام هاتين الجثتين، أما هذين الجرحين الناغرين، أشعر بالنفور والاشمئزاز يملآن نفسي، ويخيل إلى أني أرى حول تلك الدار الحزينة بجوار ذلك الزوج الذي يدعو زوجه، وتلك الطفلة التي تنادي أمها، فلا تجيب، منوهة بأمرها في حزن شامل عام، وأرى ذلك المشهد الرهيب الذي تبعه أهل البلد جميعاً يشاركون أسرة الفقيدين في حزنها، ولكن لا، لا، إني أشيح بوجهي عن هذا المنظر المحزن، وأخلو إلى نفسي أسائلها، وأتذكر مهمتنا المشتركة المقدسة، وأوجه تبعة خطيرة،

فلا أشعر بأقل شك أو تردد، وأسمع صوت ضميرى، يقول لى: إن هذا الرجل مذنب، مذنب أمام الله، ومذنب أمام الناس، ومذنب لاعذر له. وهذه الجرائم الخطيرة تقتضى عقوبة زاجرة رادعة، فالعدالة تقتضيها والقانون ينص عليها، ومصلحة المجتمع تدعو إليها، وبقدر ما أنا مؤمن بأنى أؤدى واجبى حين أطلب منكم تطبيق تلك العقوبة الكبرى، أوقن بأنكم تؤدون واجبكم، حين تنطقون بها.

هذه المواضع العرضية بين يدى الخطيب يتجه إليها، إن لم تجده فى مهمته المواضع الذاتية، أو وجد هذه أقرب مسلكا من تلك، وأهدى سبيلا وأكثر تأليفا. وقد يجمع بين الطريقين إن اقتضى المقام، وساعدت الأحوال، وتهيأت الأسباب.

وعند الاقتصار على العرضية، يجب أن يختار أحراها بإظهار المطلوب، وأقربها إلى أفهام الجمهور. (إن كان يخاطب الجمهور)، وأحسنها وقعا فى النفوس. ويجب عليه الابتعاد عما يستغلق على العقول إدراكه، أو يصعب فهمه، إلا إذا كان يخاطب قوما، تغنيهم الإشارة عن العبارة، والتلويح عن التصريح؛ فلا مانع من أن يخاطب بالدقيق العميق؛ ليكون فى ذلك متعة فكرية لهم. والله ولى التوفيق.

الآداب الخطابية

الآداب الخطابية هي التي يجب أن يتحلى بها الخطيب عند إلقاء الخطبة، وما يجب أن يتخذه في سياسة السامعين، وملاحظة أحوالهم. وهي على ذلك قسمان: قسم يتعلق بحاله هو عند الخطبة، وقسم يتعلق بالسامعين، وما يجب أن يطلب له بما أوتي من عقل أريب.

آداب الخطيب الخاصة به:

يجب أن يظهر في الخطيب عند الخطبة ثلاثة مظاهر:

١ – سداد الرأي.

٢ – صدق اللهجة.

٣ – التودد للسامعين.

١ – فأما سداد الرأي، فيكون بدراسته دراسة تامة للموضوع الذي يخطب فيه، فإن الرأي المحكم لا يكون إلا بدراسة عميقة، وإحاطة تامة، واطلاع واسع، وعلم غزير، وفكر قويم. وليس معنى ذلك أنه لا يخطب إلا إذا كان محضرا، مهيئا للكلام، بل المراد ألا يتكلم إلا في موضوع سبقت له دراسته، والإحاطة به، حتى يكون كلامه مسددا؛ سواء أكان يلقي الخطبة بعد تهيئة، أم يلقي الكلام ارتجالا من غير سابقة تحضير؛ فإن المرتجل لا يحسن ارتجاله في كل الأحوال، بل لا يحسن إلا إذا ألقى كلاما قيما فيه آراء محكمة؛ ولا يتم له ذلك؛ إلا إذا كانت له سابقة اطلاع على ذلك الموضوع، أو ماله به علاقة تمكنه من أن يدلي فيه برأي قيم له شأن؛ فعلى الخطيب ألا يخوض في حديث ليس له به علم؛ حتى لا يشط؛ فيبدي رأيا فطيرا، والرأي الفطير مبتسر لا ينال الحق من كل نواحيه، وقد يكون مع الحق على طرفي نقيض. ومما يساعد على تكوين الرأي الناضج بعد الدراسة التامة. سلامة الفكر من هم قاطع، وغم شاغل؛ لأن من شغل بالهم لا يخلص له رأي ولا فكر، وقد قال الغزالي: إن من عارضت فكره شوائب الهموم،لا يسلم له رأي، ولا يستقيم له خاطر، وكان كسرى إذا دهمه أمر بعث إلى مرازبته؛ فاستشارهم، فإذا قصروا بالرأي، ضرب قهارمته، وقال: أبطأتم بأرزاقهم؛ فأخطئوا في آرائهم. وقال بشر بن المعتمر في وصاياه للخطيب: خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ

بالك، وإجابتها إياك؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف، ومعنى بديع. فصفاء الذهن وصحوه لهما أثرهما، في إحكام الرأي، وإجادة اللفظ.

من هذا علمت في الجملة، كيف يتهيأ للخطيب رأي سديد في الموضوع الذي يخطب فيه. ثم اعلم أن سداد الرأي دعامة الخطب الأولى؛ لكي يثق الجمهور بفكره، ويتجه إلى رأيه. ويرى بعض[1] علماء الاجتماع أن سداد الرأي، وقربه من الحق، ليسا شرطا في تأثير الخطيب؛ بل يزعم ذلك القائل: أن قواد الجماعات، وخطباءها يجب أن تغلب عاطفتهم عقولهم؛ وأنهم ليسوا إلا مسحورين بفكرة قريبة من الحق، أو نائية عنه، وقد تكون معادية له. ولو سلمنا ذلك القول لكان على الخطيب أن يدرس الفكرة التي يدعو إليها وأن يحيط بها خبرا، وأن تكون الجماعة واثقة به، مطمئنة إليه، معتقدة أن ما يقول هو الحق المبين، وإن كان في الواقع باطلا، فالغاية المنشودة ألا يكون كلامه في ذاته حقا؛ بل أن يظهر كذلك في نظر السامعين، والمظاهر التي ترى الناس أن الأمر حق كثيرة منها:

١- أن يورد الأمر في صيغة جلية واضحة قريبة من أفهامهم؛ مصورة لهم بصور تثير خيالهم، وتوضح لهم المبهم.

٢- وأن يورد الأدلة التي يراها موجدة للجزم في نفوسهم؛ وإن لم توجد الجزم في ذاتها.

٣- وأن يجتهد في استدراك ما عساه يرد عليه من اعتراض قبل إيراده كما قال النائب العمومي في مرافعته في قضية مقتل بطرس «باشا» غالي؛ وقد توقع أن الدفاع سيطعن في تقرير الأطباء: لم يكن من قصدي أن أطيل الكلام في الجريمة من حيث ثبوت أركانها؛ فإن المتهم سجل على نفسه بإقراره سواء في التحقيق، أم أمام قاضي الإحالة أنه قتل المرحوم بطرس «باشا» عمدا بعد سبق إصرار على القتل والترصد له؛ ولكن الدفاع أسمعنا في الجلسة الماضية ثلاثة وثلاثين شاهدا، سمعت شهادتهم، وفكرت فيها، فألفيتها تحوم من بعيد حول نقط يريد الدفاع أن يدرأ بها عن المتهم مسئولية القتل من جهة خاصة، ويخفف بها الجناية من جهة عامة؛ فكان لابد لنا من الكلام عن هاتين المسألتين، وإن كنا لا نرى هذه الطريقة التي يسلكها الدفاع،

(١) زعيم هذا الرأي في العصور الحديثة جوستاف لوبون قال في كتابه روح الاجتماع «ليس القواد غالبا من أهل الرأي والحصافة بل هم من أهل العمل والإقدام، وهم قليلو التبصر على أنهم ليس في قدرتهم أن يكونوا بصراء».

إلا بعيدة جدا فى التأدية إلى هذه الغاية. إذا نظرنا نظرة عامة إلى أقوال الأطباء الذين جاء بهم الدفاع؛ ليتوصل بشهادتهم إلى إثبات أن الجانى غير مسئول عن نتيجة جنايته (وهى القتل) لا يسعنا غير القول بأننا لا يمكننا أن نجعل لها من الأثر ما يعارض شهادة أطباء الاتهام؛ نحن لا نريد بذلك أن نعرض بكفاءة فريق وتفوق الفريق الآخر عليه فيها، ولا سيما ما يقال، من أن هناك أسبابا بعثت إلى هذا الخلف بين الفريقين، حتى فى الأشياء المحسوسة، فنحن نجل كلا الفريقين، ونحترم لكل فريق رأيه من الوجهة العلمية.

٢- صدق اللهجة:

وهو أن يظهر الخطيب مخلصاً فيما يدعو إليه، حريصاً على الحقيقة فيما يعمل، فإنه إن ظهر كذلك، وثق الناس به، وصدقوه فيما يدعو إليه، وأحسوا بأنه شريف تجب إجابته لشرفه وشرف ما يدعو إليه، ومن أجل أن يكون الإخلاص بادياً، يجب أن يكون من حاله ما يطابق مقاله، فلا يتجافى عمله عن قوله، بل يكون أكثر الناس أخذاً بقوله، كما فعل طارق بن زياد عندما دعا جيشه إلى الإقدام على القتال ولو كان فيه الموت، إذ جاء فى خطبته: «وإن انتهاز الفرصة فيه لممكنة إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس، إلا وأنا أبدأ بنفسى، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً».

ومما يظهر الحرص على الحقيقة، والاتجاه إليها، ألا يسرف فى مدح ولا ذم، ولا فى وعد، ولا وعيد، فإن الإسراف مظنة الكذب، والاعتدال مظنة الصدق، ومن أطلق لسانه بالوعد أو الوعيد، تخلف عمله عن قوله، واستثقل العمل، حيث سهل عليه القول. ومما يظهر استقامة العمل الابتعاد عن هجر القول. وقد قال الماوردى فى آداب المتكلم: «أن يتجافى هجر القول، ومستقبح الكلام، وليعدل إلى الكناية عما يستقبح صريحه، ويستهجن فصيحه، ليبلغ الغرض ولسانه نزه، وأدبه مصون. وإن نزاهة اللسان تدل فى عرف الجماهير على نزاهة القلب، واستقامة العمل. لذلك يجب على الخطيب ألا يكون فاحشا فى تعبيره، ولا متجها إلى الألفاظ الماجنة فى خطبه لأنه إن فعل ذلك، دل به على عدم استقامة عمله، وذلك يمنع صدق لهجته، وتصديقه فى خطبته.

ومن أمثل الخطب الواضح فيها صدق اللهجة خطبة عمر بن عبد العزيز التى قال فيها: أيها الناس الحقوا ببلادكم، فإنى أنساكم عندى وأذكركم ببلادكم، ألا وإنى استعملت عليكم

رجالا، لا أقول هم خياركم، ألا فمن ظلمه إمامه مظلمة، فلا إذن له علي[1]. ومن لا يظلمه فلا أريده. ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال، فإن ضننت به عنكم إني إذن لضنين. والله لولا أن أنعش سنة، أو أسير بحق، ما أحببت أن أعيش فواقا[2].

٣- التودد من السامعين:

ويكون بالتواضع لهم، وأن يكون ممن يألفون، ويؤلفون؛ فلا يكون جافيا خشنا قاسيا، وأن يمدح الجماعة التي يخاطبها، ويذكرها بأحسن صفاتها. وقد قال ابن سينا: من رحم كان أدنى إلى التصديق، ومن أحب كان أخلق بأن يميل إلى معاونة المحبوب، ومن مدح أو أعجب بنفسه، كان ميله إلى مادحه الذي أعجبه بنفسه وتصديقه إياه أكثر، ومن أغضب على إنسان كان أحرى أن يكذبه، ومن تمكنت منه القسوة كان أجدر ألا يذعن للرحمة.

ويجب على الخطيب في تودده للجماهير أن يبين لهم أنه يسعى لمصلحتهم وأنه يؤثرهم على نفسه، وأن يظهر أنه لا غرض له شخصي، فإن الغرض إذا ظهر من الخطيب، جعل الريبة تتطرق إلى قوله.

ومن الخطب التي اجتهد الخطيب فيها في التودد، ونفى الغرض الشخصي عن نفسه، خطبة يزيد بن الوليد بن عبد الملك التي قال فيها: أيها الناس والله ما خرجت أشرا، ولا بطرا، ولا حرصا على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطراء نفسي وإني لظلوم لها، ولقد خسرت إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضبا لله ودينه، وداعيا إلى الله وسنة نبيه، لما هدمت معالم الهدى، وأطفئ نور التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب، ولا يصدق بالثواب والعقاب، وإنه لابن عمي في النسب، وكفئي في الحسب، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره وسألته ألا يكلني إلى [illegible] إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي، حتى أراح الله منه العباد، وظهر منه حول الله وقوته، لا بحولي وقوتي.

---

(١) معنى [illegible] الجملة والتي تليها أنه من ظلم يدخل عليه من غير إذن. ومن لم يظلم لا يصح أن يراه لأنه لا يقت[illegible]ه إلا للمظلوم.

(٢) الفواق هنا الزمن بين فتحة اليد وقبضتها، والمراد ما أحببت أن أعيش زمنا يسيرا قدر فواق.

آداب الخطيب مع السامعين:

صناعة الخطيب من شأنها الاتصال بنفوس من يخاطبهم، والقرب من قلوبهم؛ والناس مختلفون، مشارب وعادات، وأخلاقا وسنا، ومهنة ومرتبة، ولكل طائفة من الناس أحوال، تقتضي نوعا من الخطاب، لا تقتضيه أحوال الجماعة الأخرى؛ وعلى الخطيب أن يلبس لكل حال لبوسها، ويعالج كل طائفة بأنجع دواء لها؛ ليستقيم له الطريق، ويصل إلى غرضه؛ فالشباب يثير حماستهم ويوقظ قلوبهم، ويدفع إلى إقناعهم كلام لا يثير عاطفة الشيوخ؛ لأن المناسب لهؤلاء نوع غيره، فعلى الخطيب أن يقصد إلى النوع الذى يوافق جماعته شيوخا، أو شبابا.

والأغنياء يرضي كبرياءهم نوع من الكلام، لا يقتضيه مقام الخطبة لمن ليسوا كذلك؛ والعلماء يجتذبهم الثناء الحسن، وطيب الأحدوثة، والتوقير والتعظيم، وأن يكون الكلام الذى يلقى عليهم أقرب إلى العمق والدقة ليسترعى انتباههم، فعلى الخطيب أن يعرف ذلك، ليصل إلى موضع التأثير في قلوبهم. والشخص الشديد التدين يرضيه السمت والوقار من الخطيب؛ فعلى هذا ألا يظهر بين يديه إلا وقوراً ظاهر التمسك بالدين وروحه، لكي ينال تقديره، ويجذب نفسه. ومخاطبة الرؤساء تقتضي تجملا بالحياء ورزانة وهدوءا وابتعاداً عن مظاهر التملق المزرى، لكيلا يبتذل، كما تقتضي ابتعاداً عن أى مظهر من مظاهر التعالى، وأخذاً بالتلطف وحسن المدخل، وألا يعترض صراحة بل تلميحا إن كان ما يقتضي الاعتراض، كما لا يصح له أن يقر على قبيح بل ينبه في رفق وفي تؤدة وحذر. وهكذا لكل جماعة نوع من الخطاب، وعلى الخطيب أن يجيء إليها من ناحيته، لتكون معه فيما يدعو إليه.

وقد قال الفارابي في إحدى رسائله: إن أنفع الطرق التي يسلكها الخطيب تأمل أحوال الناس، وأعمالهم وتصرفاتهم، ما شهدها، وما غاب عنها، ما سمعه، أو تناهى إليه منها، وأن يمعن بالنظر فيها، ويميز محاسنها ومساوئها، ويبين النافع والضار لهم منها، ثم ليجتهد في التمسك بمحاسنها؛ وحض الناس على طلبها، لينالوا من منافعها.

ويقول أيضاً: إن الخطيب لا ينجو في جميع متصرفاته من أن يلقى الجمهور مائلا إلى أمر محمود، أو آخر مذموم؛ وله في كل واحد من الأمرين فائدة، وموضع رياضة للتصرف، وهو أن يحاول دفع السامعين إلى ذلك الأمر المحمود الذى يلقاه، إن وجد السبيل إلى الدفع إليه، وينبههم على فضيلته، ويوجب عليهم التمسك به، متى وجد فرصة لذلك. وإذا تلقاه الأمر

المسموم، فليجتهد في التحطير منه، والتجنيب عنه، وإن لم يجد إلى ذلك سبيلا، فلينبههم على الاعتبار بمن نالهم مضار مثلها. فقد ظهر أن للخطيب في جميع أحواله جلها ودقها، خيرها وشرها، موضع الرياضة لنفسه وإرشاد الجمهور. وإذا تيقن ذلك، فينبغي أن يقدم على سياسة الأحوال بقلب قوي، ونية صادقة، وصدر واسع، وثقة أن ما يأتيه من ذلك وإن قل، يجدي عليه نفعا يجل.

فعلى الخطيب أن يدرس الجماعة دراسة عميقة متغلغلة؛ وأن يعرف حالها معرفة الخبير الدقيق النظر، وأن يكون كلامه على صورة ملائمة لأخلاقها، ومألوفها، وإن كان ما يدعو إليه يتنافى مع طبيعة الجماعة التي يخاطبها، اجتهد في التأليف بينهما؛ فإن سددت خطاه فيما أراد، فهو ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب.

صفات الخطيب

وإذ قد بينا لك ما يجب أن يدرع به الخطيب عند ملاقاة الجماهير، وما يجب أن يلاقيهم به، وجب أن نذكر لك صفات الخطيب الكامل، أو القريب منه، التي رسخت في نفسه، حتى صارت ملكة فيه أو كالملكات، والتي بمجموعها يمتاز الخطباء عن غيرهم من المتكلمين، والتي هي مناط القدرة على كل ما يوضع في عنق الخطيب من تكاليف البيان، وها هي ذه.

١- قوة الملاحظة:

ليدرك أحوال السامعين عند إلقاء خطبته أهم مقبلون عليه؟ فيسترسل في قوله، ويستمر في نهجه، أم هم معرضون عنه؟ فيتجه إلى ناحية أخرى، يراها أقرب إلى قلوبهم، وأدنى إلى مواطن التأثير فيهم. فيجب أن تكون نظرات الخطيب إلى سامعيه نظرات فاحصة كاشفة؛ يقرأ من الوجوه خطرات القلوب، ومن اللمحات ما تكنه نفوسهم نحو قوله؛ ليجدد من نشاطهم، ويلهب بفتورهم، ولتتصل روحه بأرواحهم، ونفسه بنفوسهم.

٢- حضور البديهة:

لتسعفه بالعلاج المطلوب إن وجد من القوم إعراضا، والدواء الشافي إن وجد منهم اعتراضا، وقد يلقي الخطيب خطبته فيعقب بعض السامعين معترضا، أو طالبا الإجابة عن

مسألة، فإذا لم تقدم البديهة الحاضرة كلاما فيما يسد به الخلة، ويدفع به الزلة، ضاعت الخطبة، وآثارها.

يروى أن عتبة بن أبي سفيان بعد أن ألقى خطبة بمكة، صاح به أعرابي، فقال: أيها الخليفة، فقال،لا به، ولم تبعد، فقال: يا أخاه، فقال: سمعت، فقل. فقال: تالله إن تحسنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسنا، فإن كان الإحسان لكم دوننا، فما أحقكم باستتمامه، وإن كان منا فما أولاكم بمكافأتنا. رجل من بني عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة، ويمت إليكم بالخئولة، قد كثره العيال، ووطئه الزمان، وبه فقر، وفيه أجر، وعنده شكر. فقال عتبة: أستغفر الله منكم، وأستعينه عليكم، قد أمرنا لك بغناك، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك.

فانظر إلى الجواب المسدد الذي هيأته البديهة الحاضرة، ولولا المسارعة به لذهب أثر الخطبة، ومهابة الخطيب.

٣- طلاقة اللسان:

اللسان أداة الخطيب الأولى، فلابد أن تكون الأداة سليمة كاملة، ليتسنى له استعمالها على أكمل وجه وأتمه؛ وزلاقة اللسان، وذربه عنوان الفصاحة، وطريق البلاغة، وقد بالغ الناس في مكانها حتى عدها بعض المتسامحين ركن الخطابة الوحيد،وجعل غيرها بالمحل الثاني. ونحن وإن كنا لا نوافق صاحب هذا القول، نعد طلاقة اللسان من ألزم صفات الخطيب، وأشدها أثراً في انتصاره في ميادين القول.

٤- رباطة الجأش:

يجب أن يقف الخطيب مطمئن النفس، غير مضطرب ولا وجل، وإلا لم يستطع ملاحظة السامعين، وأثر كلامه فيهم، وهم إن أحسوا بضعفه واضطرابه، صغر في نظرهم، وهان هو وكلامه في أعينهم، فلا يستطيع إثارة حماستهم، ويذهب كلامه هباء منثوراً، والاضطراب يورث الحيرة والدهش(وقد جاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري: الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحصر، وهما سبب الأرتاج والإفحام) .

٥- القدرة على مراعاة مقتضى الحال:

مراعاة مقتضى الحال لب الخطابة، وروحها، فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس

لسان تخاطب به، فالجماعة الثائرة الهائجة تخاطب بعبارات هادئة، لتكون بردا وسلاما على القلوب. والجماعة الخنسة الفاترة، تخاطب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمم، حافزة للعزائم، والجماعة التي شطت وركبت رأسها، تخاطب بعبارات فيها قوة العزم ونور الحق، فيها إعادة المنذر، ويقظة المنقذ، واعتزامة الأيد القوي، وفيها روح الرحمة، وحسن الإيثار، ليجتمع الترهيب مع الترغيب، ومع سيف النقمة، ريحان الرحمة، لذلك وجب أن يكون الخطيب قادرا على إدراك الجماعة وما تقتضيه، والإتيان بالأسلوب الذي يلائمه.

ب- هذه الصفات الخمس لا يعد الخطيب خطيباً إذا لم تكن فيه كاملة، أما الصفات الآتية فتتفاوت فيها أقدار الخطباء بمقدار ما ينالون منها، وها هي ذه:

١- قوة العاطفة:

لا يؤثر إلا المتأثر، ولا يثير الحماسة في قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه، واعتقاداً بصدقه، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان، وكما أن الماء الذي علا سطحه، ينساب في المجرى المنخفض، كذلك ذو العاطفة العالية، والحماسة الشديدة، هو الذي ينحدر من فيه الشعور ألفاظاً، والعواطف عبارات وأساليب، تلهب الحس وتوقظ النفس، وتثير الحمية، وتحفز الهمة، فلابد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من حماسة سامعيه، ليفيض عليهم، ويروي غلتهم، وإلا أحسوا بفتور نفسه، فضاع أثر قوله.

٢- النفوذ وقوة الشخصية:

هي هبة من الله سبحانه وتعالى، يهبها بعض الناس، ترى كل من يلقاه يحس بقوة روحه، وعظم نفسه، فتستمد كلماته من نفسه قوة، نظراته شعاع ينفذ إلى القلوب، وصوته يهز النفس هزات روحية تجعلها تلقف عباراته، فتنطبع فيها مكبرة. وإذا وهب الله خطيباً تلك الروح، قاد الجماهير، وساقها بعصا موسى، فلا تشرد منه شاردة، ولا يتخلف عن قافلة الجماعة السائرة إلى الأمام بهديه متخلف، فهي كما ترى صفة للنوع الكامل من الخطباء، وقد آتى الله بعض خطباء العرب أشطراً من هذه القوة، كأكثم بن صيفي في الجاهلية، وأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والحسن البصري في الإسلام، وناهيك بما كان عليه النبي ﷺ من قوة الروح، فذلك نور النبوة، وعبقة قدسية، وقبس رباني.

٣- أن يكون ثقة:

إذا اشتهر الخطيب بسوء أو بنقيض ما يدعو إليه كان من حاله لسان يناقض مقاله،

فيضعف تأثيره، ولا يصل إلى قلوب الناس تفكيره، ويشك السامعون في قوله، ويرتابون في صدقه، ولا يذهب بروح الخطبة شيء أكثر من الارتياب في نية الخطيب، والتشكك في طويته، فالريب معول يهدم أثر البيان هدما، وينقض ما يغزل الخطيب بقوة أنكاثا، والخطيب الذي لم يمنح الثقة، عليه عملان مرتقاهما صعب: عليه أن يجتهد في جلب الثقة، ودون ذلك خرط القتاد، وعليه بعد ذلك أن يسوق كلامه في صورة محببة مثيرة، وذلك في قدرته إن تمكن من الأول.

٤- التجمل في الشارة والملابس:

قال أستاذنا الشيخ محمد المهدي بلل الله ثراه: هذا وإن لم يكن من الصفات التي تقوم عليها الخطابة أمر تجب العناية به، لأنه مطمح الأنظار، والمنظر يفعل في القلب كما يفعل الكلام في السمع، فهو من هذه الناحية لا ينقص اعتباره عن اعتبار الصفات الأصلية، ألا ترى أن معاوية لما رأى النخار مرتديا عباءة رثة أنكر مكانه وهيئته حتى اضطر النخار إلى أن يقول: إن العباءة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها.

٥- سعة الاطلاع:

قال أستاذنا المهدي رحمه الله: إن الخطابة ليس لها موضوع خاص تبحث عنه وهو بمعزل عن غيره، بل ترتبط بكل شيء من شئون الناس في دينهم ودنياهم. ومسالك القول فيها متشعبة، كتشعب مسالك الكتابة، فكما يكون الكاتب ملما بكل صنف من صنوف المعارف، كذلك يكون الخطيب.

والواقع أن الخطيب سواء أكان اجتماعيا، أم سياسيا، أم دينيا، أم شوريا، يجب أن يكون ملما بكل ما له صلة بالجماعة التي يخاطبها، ليعرف نواحي التأثير والمواطن التي يطرق حسها من ناحيتها، فالخطيب الديني يجب أن يكون ملما بالاجتماع والاقتصاد والسياسة والشرائع، ليستطيع أن يصل إلى قلوب السامعين، بربط صلاحهم الدنيوي في كل نواحيه بصلاح دينهم وقلوبهم.

والخطيب الاجتماعي يجب أن يكون عليما بدين الجماعة التي يخاطبها، لكيلا يصدر عنه ما ينافيه، فتنفر منه القلوب، وهو يعمل على استدنائها.

وهكذا كل خطيب يجب أن يكون ملما بكل ماله صلة بالجماعات، وطرق التأثير فيها، والابتعاد عما ينفرها، لئلاً يجعل قلوبها عنه متجافية.

العيوب البيانية

وإذ قد بينا صفات الخطيب، يجب أن نبين العيوب التي تتصل بالبيان، لكي يعمد مريد الخطابة إلى معالجتها، إن كانت فيه، وكانت المعالجة في استطاعته.

وهذه العيوب ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتعلق ببيان المراد، والوصول إلى الغرض، وهو ما كان منشؤه عدم السير على قوانين الخطابة، وعدم ملاحظة فن الإلقاء، كعدم مراعاة مقتضى الحال، أو عدم انتظام الإشارات، أو النقص في إثارة حماسة السامعين، وكون الصوت عند الإلقاء جاء مطرداً على وتيرة واحدة، من غير أن يكون مصوراً للمعاني تمام التصوير، وكالسرعة الزائدة، وهذه كلها يكفي في الابتعاد عنها المعرفة التامة بأصول هذا العلم، وحمل النفس على الأخذ بها، والاسترشاد بهديها، والمران والممارسة.

القسم الثاني : عيوب النطق : وهي كثيرة. وأكثرها شيوعاً: اللثغة، والتمتمة، والفأفأة، واللفف، والحبسة.

ولنتكلم على كل منها، ثم نذكر بعض الطرق لمعالجتها، إن كان ذلك في الإمكان.

أما اللثغة فهي تعذر النطق بحرف، والتعلق بحرف آخر بدله. وقد بين الجاحظ الحروف التي دخلتها اللثغة فضل بيان. وهذا ما كتبه بتصرف واختصار قليلين:

الحروف التي تدخلها اللثغة أربعة أحرف: القاف، والسين، واللام، والراء. فأما التي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط، لأنه ليس من الحروف المعروفة، وإنما هو مخرج من المخارج، والمخارج لا تحصى، ولا يوقف عليها... واللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء، كما يقولون بثرة، إذا أرادوا بسرة. وبثم الله، إذا أرادوا باسم الله. وأما اللثغة التي تعرض للقاف فإن صاحبها يجعل القاف طاء، فإذا أراد أن يقول: قلت. قال: طلت. وإذا أراد أن يقول: قال لي. قال: طال لي.

وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله: اعتللت: اعتييت، وبدل جمل جمي.

وأما اللثغة التي تقع في الراء، فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف: فمنهم من إذا أراد أن يقول: عمر، قال عمي، فيجعل الراء ياء، ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو قال: عمغ، فيقلب الراء غينا، ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو قال: عمذ فيجعل الراء ذالا، وإذا أنشد قول الشاعر:

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

قال: واستبدت مذة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

ومنهم من يجعل الراء ظاء

وأما اللثغة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء، وسليمان بن يزيد العدوي الشاعر في الراء، فليس إلى تصويرها سبيل. هذا ما يقال في اللثغة بالإجمال.

وأما التمتمة فهي التتعتع في التاء، ويقال لمن كانت فيه هذه الحال تمتام.

والفأفأة هي التتعتع في الفاء، ويسمى من كان فيه هذا العيب فأفاء قال الشاعر:

لست بفأفاء ولا تمتام ولا كثير الهجر في المنام

وأما اللفف فقد قال فيه أبو عبيدة إنه إدخال بعض الكلام في بعض، ومن كان كذلك سمي ألف.

وقد قال الشاعر:

كأن فيه لففا إذا نطق من طول تحبيس وهم وأرق

وقد قال بعض الباحثين إن منشأ هذا العيب في بعض الأحوال أن الألفاظ بسبب سعة الخيلة تسبق القصد، فالمتكلم يستعمل اللفظ ثم يتركه إلى سواه قبل أن يتم تكونه.

وأما الحبسة فهي ثقل النطق على اللسان، من غير أن يتردد في حروف بعينها كالفأفاء، والتمتام، وقد يكون السبب في ذلك عدم وضوح ما يريد أن يقوله، أو الحياء والخجل.

هذه العيوب كلها قد تكون ناشئة بسبب عارض جثماني أصاب الجسم، كاللثغة التي تكون بسبب فقد بعض الأسنان، أو بعض حميات يكون لها أثر في أعصاب اللسان، وكإنهاك شديد للأعصاب، كتلك الحال التي وصفها الشاعر في اللفف الذي منشؤه الهم والأرق

والتحبيس. وعلاجها في هذه الحال يكون أولا بعلاج ذلك العارض والطب له بما عند الأطباء من دواء.

وإذا لم تكن هذه العيوب مما يتناوله علم الأطباء فبعضها يتعذر التخلص منه كاللثغة الفاحشة التي تكونت في الصغر، ونمتها العادة، وصلبت بكبر السن، فإن المعالجة حينئذ تكون فوق الإمكان، وأعظم من مستطاع الإنسان، وإن كان في قدرة الخطيب القادر المالك لعنان القول سترها، كما فعل ديموستين في لثغته، فقد كان يسعى إلى سترها بوضع حصى في فمه عند الكلام؛ ليكون مخرج الراء على حقيقته، وكما فعل واصل بن عطاء، فقد حذف الراء من كلامه حذفاً تاماً، لما تعذر عليه الإقلاع عن لثغته.

وقد قال الجاحظ في شأنه: ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل، وزعماء الملل، وأنه لابد له من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة، وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجلالة، والفخامة، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب، وتثنى إليه الأعناق، وتزين به المعاني. وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام، واللسان المتمكن، والقوة المتصرفة، كنحو ما أعطى الله نبيه موسى من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى، وطابع النبوة، رام أبو حذيفة[1] إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هجنته، حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل، ولولا استفاضة هذا الخبر، وظهور هذه الحال، حتى صار لغرابته مثلاً، ولطرافته معلما، لما استجزنا الإقرار به، والتأكيد له، ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم، ومناضلة الأكفاء، ومفاوضة الإخوان.

فاللثغة التي تكونت بمضي الزمن، ولم تعالج قبل استقرار العادات من المتعذر الإقلاع عنها إقلاعا تاما[2]، وإذا كان ذلك كذلك فليجتهد في سترها بالإقلال من الألفاظ التي تظهر عيب لسانه.

(١) كنية واصل بن عطاء.

(٢) يقول الجاحظ في لثغة الراء التي تقلبها غينا: وأما التي على الغين فهي أيسرهن. ويقال إن صاحبها لو جهد نفسه جهده وأحد لسانه وتكلف مخرج الراء على حقها والإفصاح بها لم يكن يبعدا أن تجيبه الطبيعة.

ولا نطالبه بما أخذ به واصل نفسه، فإن ذلك فوق طاقة إنسان غير ممتاز، ولكن لا نكلفه شططا إذا طالبناه بأن يتجنبها في الخطب التي يكتبها قبل إلقائها.

وإن اللغة العربية من أغزر اللغات ألفاظا، وأكثرها مترادفا، وبعيد أن ترى معنى ليس له عدد من الألفاظ يدل عليه دلالات خطابية.

هذا ويجب على المصاب بلثغة فاحشة أن يجتهد أيضاً في تخفيفها، فإن ذلك في قدرته، وإن كان عاجزاً عن محوها محواً تاماً، والرياضة تسهل الصعب، وتجعل البعيد في قدرة المتناول.

أما ما عدا اللثغ من العيوب السابقة، فللإرادة دخل عظيم في معالجته، وليس من شك في أن الرياضة البيانية، تفيد أكبر فائدة، وخصوصا إذا لوحظ أن أكثر هذه العيوب، سببه السرعة في الكلام؛ وعدم التروي والتدقيق، والخجل في الصغر، والكبر قد زادها رسوخا وقوة، فعلى المتكلم الذي يروض نفسه أن يباعد الحياء في المقامات البيانية، فإن فيها عجزا وضعفا لا يليقان، ولا يستحسنان، وأن يأخذ نفسه بالتأني، والتوقف، والتثبت عند القول، وأن يقصد إلى كل كلمة قصداً خاصاً، كأنها المراد من بيانه، والغاية المقصودة من كلامه، وإذا اعتراه عيبه، سكت حتى تعود إرادته مسيطرة سيطرة تامة، ثم ينطق بالكلمة ثانية. وإذا أخذ نفسه بتلك المزاولة حينا بعد حين، وكرر تلك الممارسة وقتاً بعد آخر، وواتته طبيعته، وأعانته الفطرة القويمة، انتصر على هذه العيوب.

فالتأني في النطق يفيد في هذه العيوب عموما، واللفف خصوصاً، فإن المتكلم إذا أخذ نفسه به، وحملها عليه، كان النصر من نصيبه حتما.

يحكى أن مطربا كان به لفف أخذ نفسه بمعالجته بالتأني والتروية، حتى صار لا يظهر في تغريده، ولكن إذا تحدث أو تكلم ظهر واضحا، لأنه إذا تحدث لم تحكم إرادته، لعدم الحاجة إلى ذلك، فتنساب نفسه ويظهر عيبه، وإذا غنى حكمت إرادته فأخفى عيبه، واستمرت الحال كذلك، حتى كان الإخفاء عادته في غناه دون حديثه، فالرياضة هي العماد في دوء هذه العيوب، والإرادة هي السلاح الوحيد الذي يقمع به حربا عوانا عليها، نتيجتها الفوز حتما، ما لم يفل ذلك السلاح، أو يلقى في غمده.

القسم الثالث – العيوب الصوتية:

كأن تكون رنات الصوت مزعجة أو لا تكون من القوة بحيث تسترعي الانتباه، أو يكون بالخطيب ضيق تنفس، بحيث لا يستطيع أن يقول كلاماً مفيداً، من غير أن يقطع النفس بيانه،

ويفسد عليه استرساله. وهذه العيوب بعضها يعالج بالمران، وبعضها يستعان عليه بالطب مع المران.

وقد كان قدماء اليونان يعنون عناية خاصة بتربية الصوت ويجعلونها فناً قائماً بذاته، له أساتذة قد خصصوا لدراسته، يربون الشبيبة على السيطرة على أصواتهم، والغلب عليها ليجعلوا رناتها ملائمة للمقامات البيانية المختلفة، وليجعلوا من المران دواء للعيوب الصوتية. وأدل شيء على أن المران له الأثر الواضح في معالجة تلك العيوب حال ديموستين، فقد كان ضعيف الصوت، فلما أراد أن يكون خطيباً راض نفسه، فأخذ يقوي رئتيه وصوته بالصياح، وهو يصعد الجبال الوعرة أو على ساحل البحر محاولا أن يكون صوته أعلى من صخب الأمواج، وقد كان له ما أراد بتلك المحاولات.

وسنتكلم على الصوت كلاما أوسع من هذا عند الكلام على الإلقاء.

إثارة الأهواء والميول

مقدمة في الإقناع الخطابي

مرمى الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام والإفحام فقط، بل مرماه حمل المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة عاطفته، وجعله يتعصب للفكرة التي يدعو إليها الخطيب، ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الاقتضاء، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية، تساق جافة، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية، بل بذلك، وبإثارة العاطفة، ومخاطبة الوجدان. وإن الخطيب قد يستغنى عن الدلائل العقلية، ولا يمكنه في أية حال الاستغناء عن المثيرات العاطفية، بل إن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على المراد منهم مخاطبة وجدانهم، والتأثير في عواطفهم.

جاء في كتاب الآراء والمعتقدات: مع قلة اطلاعنا على متن المنطق العاطفي، فإن الاستقراء يدلنا على بضع قواعد يستعملها أعاظم الخطباء في أغلب الأوقات؛ إذ أنهم بدل أن يقضوا أوقاتهم في تنظيم الأدلة، وتنميق البراهين التي إن أقنعت لا تؤثر في السامعين، يحركون بالتدريج ساكن هؤلاء السامعين بضروب المؤثرات التي يتفننون في تنويعها لعلمهم أن ما يوجده أحد المحرضات من تأثير لا يلبث أن يهن، وينفد. وهم باستدراج لبق، وكلمات ساحرة وصوت عذب يكونون جوا عاطفيا ملائما لقبول استنباطاتهم. ونرى من هذا أن الخطيب الذى يخاطب الجماهير لا يعول في خطبه على المنطق بمقدار ما يعول على خلق جو عاطفي مهيأ لقبول ما يقدم له من آراء.

٢ – وإن أكثر علماء الاجتماع يذهبون إلى أن الجماعة تقبل الدلائل العاطفية الوجدانية، ولاتملها، ولا تقبل البراهين العقلية بل تسأمها؛ إذ أن الذى يظل الجماعة المتحدة المشاعر والأهواء هو العاطفة، لا العقل، ولو كان آحادها من ذوى الفكر الصائب، والعقل الناضج؛ فإن هؤلاء إذا انضووا تحت لواء الجماعة، غلب عليهم روحها العام، وسرت إليهم عاطفتها، واستولت عليهم مشاعرها. ولقد قال بعض الباحثين في أحوال الجماعات إن الخطيب إذا خاطب العاطفة أرضى ثمانين في المائة من السامعين، وأثار اهتمامهم.

وقال جوستاف لوبون في كتابه روح الاجتماع: إن البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، ولهذا كان الخطباء الذين يعرفون كيف تتأثر إنما يخاطبون شعورها، دون العقل،

لأنه لا سلطان لقواعد المنطق عليها، فلأجل إقناع الجماعة، ينبغي الوقوف أولا على المشاعر القائمة بها، والتظاهر بموافقتها فيها، ثم يحاول الخطيب تعديلها بموازنات صغيرة عادية، تشخص أمامها صوراً مؤثرة. وينبغي أن يكون قادراً على الرجوع القهقرى، متى وجد المقتضى، وأن يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفوس السامعين حتى يغير منه كلما مست الحاجة، وهذه الضرورة التي تلجئ الخطيب إلى سرعة تغيير الكلام بحسب الأثر الحاصل في نفس السامع هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل، لأن الخطيب يتبع هذه الحالة سلسلة أفكاره لا حركة فكر سامعيه، فلا يكون لكلامه أقل تأثير فيهم. أما المناطقة فلأنهم تعودوا الاقتناع بالأدلة المسلسلة الدامغة، لايمكنهم الخروج عن عاداتهم هذه إذا خاطبوا الجماعات، لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم.

من هذا السياق تعرف مقدار العاطفة في التأثير الخطابي، وأنها قطب الرحى في الإقناع الذي يصبو إليه الخطيب، ويجعله هدفه الذي يصوب إليه سهامه.

وإذا كان ذلك كان من الواجب أن يجعل الخطيب الركن الركين في خطبته العمل على إثارة الأهواء والميول، وكان من اللازم علينا ونحن نبحث في أصول الخطابة أن نقدم لمريدها طرائق للوصول إلى عاطفة الجماهير، ومخاطباتها، وتهيئتها لما يريد من غرض، وها نحن أولاء آخذون في بيان ما يتيسر الأخذ به منها.

قواعد عامة لإثارة الأهواء والميول

إن طرق الاتصال بقلوب الجمهور من السامعين كثيرة متشعبة، وكثير من الخطباء يسلكها بزكانة نفسه، وقوة قريحته وحسن استعداده وصدق إحساسه وقوة فراسته، فلا يحتاج إلى تبيين مبين، ولا تذكير مذكر، ولكن ذكرها يفيد الشادي، وينير السبل أمام الاستعداد القوي، ويجعله على بينة من أمره.

وهذه الطرق مع تشعبها، ترجع إلى أمور أعظمها أثراً، وأوضحها مظهراً:

١- الاعتقاد بصحة ما يدعو إليه:

يجب أن يكون الخطيب شديد الثقة بقوله، فلا يكون مضطربا حائر النفس غير قوي الإيمان وإلا سرى ذلك الضعف إلى سامعيه، فإنه لا يؤثر إلا المتأثر، وما كان من القلب يصل إلى القلوب.

تكلم رجل عند الحسن البصري بمواعظ جمة، ومعان تدعو إلى الرقة، فلم ير الحسن قد رق، فقال الحسن: إما أن يكون بنا شر، أو بك. يشير إلى أن النفس المطمئنة الواثقة بما تقول المذعنة له، لابد أن يصل كلامها إلى شغاف القلوب، ما لم يكن المخاطب في قلبه شر يمنعه من السماع، وإجابة داعي الحق، والاطمئنان إلى قول القائل.

ويقول بعض علماء الاجتماع إن إيمان الخطيب كحبال الجاذبية التي تجتذب إليه الجمهور، وتوثق عرا التأثير بينهما، فأي شك أو ضعف في إيمانه يقطع تلك الحبال، فينفض الجمهور من حوله. وقد قال العلامة جوستاف لوبون في كتابه روح الاجتماع في وصف قائد الجماعة وخطيبها: إنه يكون مسحوراً بالفكرة التي صار يدعو إليها، حتى استولت على نفسه استيلاء لا يرى معه إلا ما كان منها، وأن كل ما خالفها وهم باطل، كما جرى للزعيم «روبسبير» أسكرته أفكار روسو، فقام يدعو إليها، وقال بعد بيان أن ضعاف الإيمان تأثيرهم سريع الزوال، أما أصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات، وحركوها، مثل (بطرس الراهب)، (ولوثر)، و (سافونا رول)، ورجال الثورة الفرنسية، وغيرهم، فإنهم لم يتمكنوا من خلب العقول، واجتذاب الأرواح، إلا بعد أن سكروا بخمر المذهب الذي اعتقدوه، وبذلك توصلوا إلى توليد تلك القوة الهائلة في النفوس، وهي التصديق الذي يجعل المرء عبداً لخياله. فترى من هذا كيف كانت قوة اعتقاد الخطيب من أسباب إثارة عواطف السامعين لقوله.

وفي الحق أن قوة الاعتقاد تكسب الكلام حرارة، والصوت رنات مؤثرة، والألفاظ قوة، والمعاني روحاً، وتجعل من الملامح والنظرات نوراً يشع شعاعاً، يصور ما في القلب من إيمان قوي، وإخلاص عظيم، وكل هذا يخلق جواً عاطفياً حول الخطيب، يجعل كلامه متصلاً بالوجدان.

٢- المشاركة الوجدانية:

قال مكدوجل في بيانها: إنها الحالة الانفعالية أو الوجدانية التي تكون عند الإنسان إذا وجد إنساناً آخر متأثراً، فتجعله يشعر بنفس شعوره، كما لو انتقل هذا الشعور بطريق العدوى[1].

فيجب أن يحس الخطيب بإحساس الجماعة، ويشعر بشعورها، يغضب لما يغضبها، ويفرح لما يفرحها، ويحزن لما يحزنها، ويسر لما يسرها، آلامها آلامه، ومصائبها مصائبه، ليكون

---

(١) من كتاب في علم النفس للأساتذة حامد عبد القادر، ومحمد عطيه الأبراشي، ومحمد مظهر سعيد.

الاتصال الروحي أداة تأثير فيها، ويستخدمه في استفزاز مشاعرها أو تهدئة ثائرتها، وليملي عليها ما يريد من آرائه، إذ أن ذلك الإحساس المشترك بينهما يجعله قادراً على إثارة ميولها، وإصابة أهوائها[1] ودفعها لما يرمي. وإذا رأى الجمـاعة متحمسة لأمر يراه باطلا، لا يفجؤها بالمخالفة، ولا يصدمها بالمعارضة، لأن ذلك يبعد عواطفها عن عواطفه، وميولها عن ميوله، بل يسايرها، حتى تلوح له الفرصة ويرى أنه قد استدرجهم إلى ما يبغي، فيهجم بفكرته، وذلك ليكون الحبل بينه وبينها ممدوداً، ولا تنقطع الأسباب، فيذهب التأثير.

ذكر الدكتور جوستاف لوبون حادثة رآها في أثناء الحرب السبعينية فقال: رأيت ذات يوم أناسا يسوقون أحد قواد الجيش العظام إلى سراي اللوفر، حيث مقر الحكومة، والناس أكداس من حوله، يزمجرون، ويتميزون غيظا، وهم يتهمونه بأنه كان يأخذ رسم أحد المعاقل، ليبيعه للبروسيين، فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة، وكان خطيباً ذائع الصيت، ليخطب في الناس، وهم ينادون: الموت، الموت عاجلا. وكنت أنتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة، بقوله:

إن الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون، وإن رسومها تباع في المدينة عند جميع باعة الكتب، غير أني بهت، إذ سمعته على نقيض ما ظننت يقول، وهو يتقدم نحو الجموع: سيأخذ منه العدل أخذاً لا رحمة فيه، فاتركوا حكومة الدفاع عن الأمة، تتم التحقيق الذي بدأتموه، وسنزجه في السجن حتى حين.

قال هذا، فرأيت الثورة قد سكنت، وتفرق الجمع، ولم يمض ربع ساعة حتى كان الفريق في داره، ولو أنه خاطبهم بما جال بخاطري من الأدلة المنطقية التي اعتقدتها دامغة، لمزقوه إربا.

فانظر إلى الخطيب اللبق كيف أدرك أن مصادمة الجماعة قد تذهب بحياة قائد عظيم من قواد الدولة، فلم يفعل، وأظهر الموافقة، فتم له ما أراد.

ومما يصح الاستشهاد به في هذا المقام، لأنه صورة واضحة لاستخدام المشاركة الوجدانية وسيلة لتنفيذ المراد تصوير شكسبير لجماعة من الرومانيين في موقفهم من مقتل يوليوس قيصر، فلننقل لك بعض ذلك الفصل[2]، وهو ما جاء على لسان أنطونيو في رثاء يوليوس قيصر مع

(١) لعل هذا هو السر في أن الذين يعيشون أرستقراطيين ليس منهم خطباء إلا نادرا.

(٢) من تعريب رواية يوليوس قيصر للأستاذ محمد حمدي (بك).

الثناء على بروتس قاتله فقد قال: أيها الرومان، بني وطني، أعيروني أسماعكم، فإني ما جئتكم للتمدح بقيصر ومناقبه، ولكن لأواريه لحده وأهيل عليه التراب، فقد جرينا على أن ما يعمل الإنسان من شر يخلفه، وما يعمل من خير يرمس معه، في غمار الرغم، ولفيف الرفات، وهذا شأن قيصر معنا اليوم، نتناسى مناقبه، ونعدد معايبه.

قال لكم بروتاس، وهو رجل الشرف الصميم: إن قيصر فيه طمع، فإذا كان كذلك، كان ذنبه يوجب الأسى والأسف، كما كان جزاؤه أدعى للحزن والشجن. إني أقف بينكم الآن في جنازة قيصر بإذن من بروتاس، وهو رجل النبل والفضل، وبإذن زملائي الآخرين، وكلهم مثله أجلاء فضلاء، ولكن قد كان لي في قيصر صديق حميم، وبر كريم، لم أعهد فيه الطمع الذي يرميه به بروتاس رجل الفضل والشرف.

أتاكم قيصر بالأسرى مكبلين، فملأت دياتهم المال، فهل كان في عمله هذا ما ينبئ عن طمع.

كان قيصر يبكي شفقة ورحمة كلما ذرفت الفقراء دموع الفاقة والإملاق، وعهدي بذي الطمع أخشن طبعاً، وأغلظ كبداً، ولكن بروتاس يقول إنه ذو طمع، وبروتاس، كما تعلمون رجل الفضل والشرف. ألم تروا أني قد عرضت عليه التاج ثلاث مرات في لوبركال، فكان يرفضه في كل مرة، فهل كان هذا الطمع فيه؟. ومع ذلك فإن بروتاس يقول. إنه ذو طمع، وبروتاس رجل الفضل والشرف.

لا أريد أيها السادة أن أدحض دليل بروتاس، ولا أن أقارعه الحجة بالحجة، وإنما أقول ما أعرفه من الحق الصراح. لقد كنتم كلكم تحبون قيصر حباً جماً، فهل كان ذلك من غير داع، وبلا مسوغ، إذن ما الذي يمنعكم الآن أن تقيموا عليه شعار الحداد. بالعدالة، لقد أويت إلى قلوب الوحوش الضارية، لغادرت الإنسان جباراً عتياً، فاقد الرشد والصواب. عفواً، سادتي، إن قلبي مدرج مع قيصر في أكفانه، فأمهلوني حتى يرتد إليّ.

أحد السامعين: الظاهر أن في كلامه شيئاً من الحق.

آخر: إنك إذا نظرت في الأمر بلا تحيز، وجدت قيصر مظلوماً.

ثالث: أجل، وإني لأخشى أن يعقبه شر خلف.

رابع: ألاحظتم هذه العبارة: إنه لم يأخذ التاج، فكفى بهذه دليلاً على أنه لم يكن فيه طمع.

الأول : إذا ثبت كذبهم، فلابد من الانتقام له.

الثاني : مسكين أنتوني، إن عينيه تتقدان من البكاء.

الثالث : ليس في روما أخلص من أنتوني.

الرابع : ها هو ذا قد عاد للكلام.

أنتوني: بالأمس كانت كلمة يفوه بها قيصر تقيم العالم وتقعده، أما الآن فها هو ذا طريح الثرى، لا يأبه به أحقر حقير.

ثم يستمر في كلامه، ولا ينتهي من خطبته إلا وقد تحفزت الجماعة للانتقام من قتلة قيصر.

وترى من هذا كيف استطاع الخطيب بمشاركته للجماعة في وجداناتها ظاهراً أن يصل إلى غرضه، ولذا نقول إن الخطيب ينقاد ليقود: ويطيع ليطاع، ويأخذ ليعطي، يساير إرادة الجماعة، ليملي إرادته عليها، وكل ذلك بالمشاركة الوجدانية، فليرعها الخطيب حق رعايتها، وليعرف أن ذلك ليس معناه أن يكون سيئة لا رأي له، ولا فكر، بل معناه أن يجتهد في ألا يهاجمها فيما تألف دفعة واحدة، بل يمهد لما يرى، ويربط بين ما يدعو وإحساسها. وقد رأيت كيف استدرج أنتونيو الجماعة، وأملى عليها إرادته من طريق موافقتها في شعورها وهواها، وقد نقلها من النقيض إلى النقيض.

٣- النفوذ:

لنفوذ الخطيب الأثر الفعال في تحريك الميول، وإيقاظ المشاعر، فهو عامل عظيم من عوامل إثارة الأهواء، بل ربما كان أقربها نجاحا، وأدناها إلى الإجابة، وقد عرفت شيئاً من ذلك في صفات الخطيب الكامل، والآن نوضح ما أجملنا هنالك فنقول:

إن النفوذ يجعل صاحبه متحكما في أهواء ومشاعر من يخاطبه. وقد قال فيه جوستاف لوبون: يمكن أن يقال: أن النفوذ سلطة، أو عمل أو فكرة يستولي بها على العقول، وتلك السلطة النفسية تعطل ملكة النقد، فتملأ النفس دهشة واحتراما، ويمكن تفسير الشعور الذي يحدث منه كما هو الشأن في كل شعور، إلا أنه لابد أن يكون من جنس الاجتذاب الذي يحدث في نفس الشخص النائم نوما مغناطيسيا.

والنفوذ نوعان: نفوذ شخصي طبعي، ونفوذ كسبي، والأول يكون هبة يهبها الله بعض الأشخاص، فيؤثرون بأنفسهم، من غير أي أمر خارجي يعرض لهم، ومن ذلك ما آتاه الله العظماء الممتازين، كعمر بن الخطاب، وأبي بكر الصديق، ونابليون. والنفوذ الكسبي ما جاء من سمعة حسنة، أو اشتهار بنبل، أو شجاعة، أو منصب، أو لقب، أو تحل بوسام، أو ثروة في بعض الأحيان، ولا شك أن بعض هذه الأنواع في استطاعة مريد الخطابة أن يكون من أهلها، وبعضها من الواجب عليه أن يكون متحلياً بها، فيجب أن يكون الخطيب من ذوي السمعة الحسنة ليس في ماضيه ما يشين.

ولقد كان ميرابو الخطيب المشهور في الثورة الفرنسية مع ما أوتي من نفوذ شخصي، وشهرة بالبيان، يرى ماضيه السيئ في شبابه حجر عثرة يمنعه أن يصل إلى التمام في قيادة الجموع، ولذا كان يقول: ويل للماضي.

والنفوذ الشخصي الطبعي أقوى عملا، وأشد تأثيرا، فمن آتاه الله ذلك النفوذ، ملك من النفوس، والمشاعر والأهواء، ما يجعله يقول فيطاع من غير أي اعتراض، بل من غير تفكير فيه؛ يتأثر بقوله أشد الناس بغضاً له.

يحكى أن بعض أعداء نابليون ذهب للقائه. فقال لصاحبه، وهو ذاهب إليه: أيها الصديق، إن لذلك الرجل الشيطان في نفسي تأثيراً لست أدركه، حتى إنك لتراني إذا اقتربت منه تأخذني الرعشة، كالطفل الصغير، ويخيل إلي أنه قادر على إدخالي في سم الخياط، وإحراقي بالنار. ويجب على من لم يؤت ذلك النفوذ أن يسعى في كسب نفوذ، أيا كان، من طريق شريف، فإن النفوذ له أثر في كل مقام، وقد وصف (ديكوب) وكان من النواب الفرنسيين ومن علماء النفس، الخطيب النيابي المجهول الذي لا نفوذ له فقال: إذا استوى على منبر الخطابة، أخرج من محفظته أوراقا، فنشرها أمامه على الترتيب، وشرع يخطب معتمدا، وهو يفتخر في نفسه بأنه سيبث عقيدته، لتمكين روح سامعيه، لأنه وزن أدلته، وحررها وأعد شيئاً كثيراً من الإحصاءات والحجج، وأيقن أن الحق في جانبه، وأن معارضه لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة التي يأتي بها. وهكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه، واصفا إخوانه، لاعتقاده أنهم لا يطلبون إلا الحق.

وبينما هو يخطب إذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين، ثم يتقزز بالضوضاء الناتجة، من ذلك الاضطراب، ويتساءل، لم لا يسود السكون؟ وما السبب في هذا الانصراف

العام؟ وما الذي يدور على ألسنة أولئك الذين يتحدثون فيما بينهم؟ وما السبب القوى الذى يحمل ذاك على ترك مجلسه؟ يتساءل الخطيب هكذا، والحيرة تعلو جبهته، فيفرك حاجبيه، ويمسك عن الكلام، ويشجعه الرئيس، فيعود بصوت مرتفع، فيزيد الأعضاء فى عدم الإصغاء إليه، فيجهر، ويهتز، فتزداد الجلبة حواليه، ويعود لا يسمع نفسه، فيمسك عن الكلام مرة أخرى لم يخشى أن يدعو سكوته إلى أصوات الأقفال، فيرجع إلى خطابته بما فيه من قوة، وهناك تعلو الجلبة، ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون.

فانظر إلى الخطيب الذى لا نفوذ له، وليست له سمعة جاذبة للنفوس كيف يلقى الصعوبات وقد يذللها، وقد يرتد دونها خاسئا وهو حسير.

٤- اللذة والألم:

(أ) اللذات والآلام هى المسيرة للإنسان فى هذه الحياة، فهو يعمل إجابة لداعى اللذة، ويمتنع توقياً للآلام، وهما فى الحقيقة العنصران المحركان للعالم الإنسانى سلباً وإيجاباً، غير أن اللذائذ تختلف باختلاف الأشخاص، فإنسان لذته حسية عاجلة، وآخر لذته فى المعنويات، أو فى الحسيات الآجلة، فالمفتن، والعالم، والمخترع، والشاعر، والكاتب، كل الأفعال، أولئك مندفعون بقوى اللذات المعنوية التى يجدونها فيما يقومون به من عمل، وإن اللذة التى وجدها نيوتن عندما كشف الستار عن قانون الجاذبية لا تعدلها فى نظره لذة، واللذة التى وجدها آينشتاين فى كشف قانون النسبية، لا تعدلها أيضاً فى نظره أية لذة حسية، ولذة الصوفى التى يجدها فى فنائه فى الذات العلية، هى كل الوجود فى زعمه. وإن كثيراً من الناس يؤدون الفرائض، ويطيعون الديان رغبة فى ثوابه، واتقاء لعقابه، وقليل من المؤمنين من يطيع الله لأنه يجد لذة فى الطاعة، لا طمعا فى جنة، ولا خوفا من نار.

والخطيب اللبق هو من يعرف هذه الحقيقة؛ فيخاطب الناس بما يثير لذاتهم، وما يرون فى الأخذ به اتقاء لآلام متوقعة، فهو يلوح بالمنفعة التى يراها مطلبا لهم، ويبين لهم أن الآلام فى نقيض ما يدعو إليه.

انظر إلى طارق بن زياد فى خطبته المشهورة، فقد حرق السفن، ثم حثهم على القتال مبينا لهم أن لاقوت لهم إلا ما أخذوه من عدوهم بسيوفهم، وأنهم قد صاروا كالأيتام على مأدبة اللئام، وقد كان الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو الخطيب

العظيم يقول: إن للقلوب شهوات، وإقبالا وإدبارا، فأتوها من قبل شهواتها، وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي.

ولقد عرف هذه الحقيقة أولئك الذين كانوا يحركون المسيحيين في الحروب الصليبية، فما كانوا يكتفون بإثارة الروح الدينية، بل كانوا يقولون في الأرض المقدسة: إنها تفيض لبنا وعسلا.

(ب) إن الرغبة نتيجة اللذة؛ فالإنسان يرغب فيما يجد فيه اللذة، ويرهب ما يجد فيه الألم، ويظهر أن الرغبات الإنسانية هي المتحكمة في الآراء والمعتقدات. ولقد قال الفيلسوف سبينوزا: نرى الأشياء مليحة برغبتنا لا ببصيرتنا، وإذا كان ذلك كذلك، فعلى الخطيب أن يتعرف رغبات الجماعة التي يخاطبها، ثم يعقد صلة بينها وبين ما يدعو إليه، ويبين أنهما من مشرب واحد، ومن طريق واحدة، وإن في دراسة رغباتها تعرفا للذاتها وآلامها؛ فليدرسها؛ ليعرف من أي جانب يطرق حسها، وليعرف لذاتها وآلامها؛ فيصل إلى وجداناتها. وإن رغبة الأمة أو الجماعة من الناس هي التي تشكل مثلها العليا؛ فالمثل العليا للأمة عنوان الرغبات، ومن طريقها يستطيع الدارس لأمة معرفة رغباتها؛ فإذا رأيت أمة مثلها العليا في طلب استقلالها، والمحافظة على كيانها، فاعرف أن رغبتها في ذلك الاتجاه، وأن تلك الرغبة مظهر لآلام الاعتداء، وللذة الحياة الحرة المستقلة، وإذا رأيت أمة مثلها العليا في حب السلام والدفاع عن المظلوم، فاعلم أن رغبتها في تلك الناحية، وأن لذتها في نفع بني الإنسان، وآلامها في آلامهم.

ومن أجود الخطب التي استخدمت فيها آلام الأمة، ورغباتها، ومثلها العليا في إثارة ميولها إلى ما يريد الخطيب، خطبة الرئيس ولسن رئيس الجمهورية الأمريكية في مجلس الشيوخ، يدعوه إلى الموافقة على دخول أمريكا في الحرب العالمية، فقد جاء فيها: إن هذه الحرب هي ضد جميع الأمم، لقد أغرقت مراكب أمريكية، وأعدمت نفوس كثيرة من الأمريكيين، بطرق تأكدت لدينا فظاعتها؛ فكان لها وقع سخيف، ولكنا رأينا أن نفس تلك الطرق تستعمل لإغراق مراكب، وإبادة نفوس من أمم أخرى كثيرة من المحايدين، والأصدقاء، بدون فرق، كأنما هذه الحرب قد شهرت ضد جميع الناس على السواء، فما دام الأمر كذلك، وجب على كل أمة أن تقدر لنفسها خطة، تقابل بها ذلك العداء، وخطتنا التي يجب علينا أن نختارها الآن ضرورية جدا، ولا تقبل التأخير.

وجاء فيها: إن واجبي الذى أتممته الآن أيها السادة لهو واجب محزن، وصعب جداً. إن من المحتمل أن يكون أمامنا عدة أشهر، لنقوم في أثنائها بتجارب صعبة، وتقديم ضحايا عظيمة، إنه لأمر شديد الخطورة، أن نقود شعبنا العظيم المسالم إلى حرب هي أفظع الحروب، وأشدها هولا، يقف فيها التمدين نفسه في كفة الميزان، غير أن الحق فوق السلم، والحق الذى ندافع عنه هو المحافظة على أقرب الأشياء إلى قلوبنا، المحافظة الديمقراطية، على الشعوب المهضومة الحقوق، ليتمكنوا من الاشتراك في حكم أنفسهم، هو المحافظة على حقوق وحرية الأمم الصغيرة، وهو المحافظة على توطيد أركان حق عام، أساسه اتحاد الأمم الحرة، اتحاداً يضمن الطمأنينة لجميع الأمم، ويجعل العالم كله حراً.

إننا أمام واجب كهذا لا نضن بحياتنا وما لنا، بل نقدم أنفسنا وما نملك، وسيرى العالم أنه قد جاء اليوم الذى سنحت فيه لأمريكا الفرصة، لكي تنفق قوتها، وتسفك دماء أبنائها، في سبيل المبادئ التي كانت سبب وجودها، والسلام الذى صانته طول حياتها.

انظر إلى الخطيب كيف أثار النقمة بذكر آلام الاعتداء على السفن الأمريكية، ثم كيف ذكر الجماعة برغبتها في السلام ونصرته، وكيف نبهها إلى مثلها الأعلى، وهو توطيد أركان الحق العام، وجعل أساسه اتحاد الأمم الحرة اتحاداً يضمن الطمأنينة لجميع الأمم، ثم اتخذ من تلك القواعد دعائم لدعوته، وهو الدخول في تلك الحرب، ومعاونة من زعمهم مظلومين، معتدى عليهم.

والخطباء الذين يستخدمون آمال الأمة، وأمانيها، في إثارة أهواء السامعين إلى رغبتهم وكثير ما هم، إنما يستخدمون اللذات، والرغبات، والمثل العليا، لأن أمل الأمة ليس شيئاً غير لذتها المرجوة، والمطلب الأسمى الذى يسعى الجميع إليه.

والقول الجملي: إن اللذائذ، والآلام، والرغبات، والآمال، والمثل العليا، أمور تنبع من معين واحد، وكلها يستطيع الخطيب استخدامه في إثارة أهواء الجماعة وتميلها إليه.

٥- الغرائز:

إذا اجتمع عدد من الناس متحدة مشاعرهم، كانت لهم وحدة فكرية تجمعهم، وهي في كل واحد منهم بقدر مشترك، لا تفاوت بينهم فيها، وتلك الوحدة الجامعة التي لا يتفاضلون فيها مصدرها الغرائز، ولذا قال علماء الاجتماع: إن الزعيم الذى يملك قلوب

الكثرة في الأمة لا يخاطب الذكاء بل يخاطب الغرائز؛ لأنها الوحدة الجامعة، والقدر المشترك في الجميع، وقد عرف بعض علماء النفس الغريزة بأنها ميل فطري في النفس يدفع الإنسان لأن يسلك مسلكا خاصاً، أو لتصدر عنه حركات مؤتلفة، تؤدي إلى غاية معينة، وإن لم يشعر بها الإنسان نفسه، وهذه الحركات ليست نتيجة خبرة أو تعلم، ويتصل بها انفعال نفسي، يكون واضحاً بارزاً في كثير من الأحيان.

فالغريزة سلوك فطري، يكون من غير خبرة سابقة، ويرمي إلى ما فيه مصلحة الشخص والجنس[1].

والغرائز كثيرة، ولها أقسام عدة؛ وليس هذا المقام مقام تفصيلها وبيانها، فلذلك علم قائم بنفسه، هو علم النفس، ويهمنا في هذا المقام أن نقول: إن منها غريزة الهرب، وغريزة المقاتلة وحب الخصام. والأبوة والأمومة، والاستغاثة، والاستطلاع، والسيطرة، وحب الظهور، والبناء، والاجتماع، والضحك، وغيرها.

ويمكن للخطيب أن يتخذ من بعض هذه الغرائز سلاحا في ميدانه يثير به الأهواء والعواطف نحو قوله، فغريزة المقاتلة[2] يستطيع أن يستخدمها الخطيب في استفزاز الجماهير، إذ يحثهم على قتال أعدائهم، كما فعل الإمام علي رضي الله عنه، عندما دعا جيشه إلى قتال مخالفيه، بعد أن قتلوا عامله على الأنبار، فقد خطب خطبة كلها إثارة لتلك الغريزة، وجاء في تلك الخطبة: هذا أخو غامد قد بلغت خيله الأنبار، وقتل حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها[3]، وقتل منكم رجالا صالحين، وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة[4]، فينزع حجلها[5]،

---

(١) من كتاب أصول علم النفس للأستاذ أمين مرسي قنديل.

(٢) قال الأستاذ قنديل في كتابه أصول علم النفس في هذه الغريزة «هي التي تدفع الأفراد والقبائل إلى الكفاح والاستماتة في الحرب لأحقر الأسباب وأتفهها، ولا تزال كذلك فعالة قوية فيهم، ظاهرة كل الظهور في الأطفال وفي الكبار أيضا على الرغم من تغير أشكالها، ومظاهرها، تحت تأثير الرقي الاجتماعي، والعقل المدرب والوازع القانوني والخوف، ولكن أثرها مع ذلك لا يزال يبدو واضحا في الجماعات أكثر منه في الأفراد. فقد يثير حفيظة الأمة وغضبها سبب ما، فتندفع جميعها طالبة غسل الدم بالدم. ففي أحضان هذه الغريزة الراسخة في النفوس نشأت الجماعات المتحضرة اليوم».

(٣) المسالح جمع مسلحة بالفتح، وهي الثغر حيث يتوقع مجيء العدو.

(٤) المعاهدة الذمية.

(٥) الحجل بكسر الحاء وسكون الجيم الخلخال.

وقليبها،[١] ورعائها[٢]، ثم انصرفوا وافرين[٣]، مانال رجلا منهم كلم،[٤] ولا أريق لهم دم، فلو أن رجلا مسلماً مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوماً، بل كان عندى جديراً.

فوا عجباً من جد هؤلاء في باطلهم، وفشلكم عن حقكم، فقبحاً لكم حين صرتم غرضا[٥] يرمى، يغار عليكم، ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون.

فانظر إلى الإمام على كرم الله وجهه كيف أثار غريزة الغضب والمقاتلة فيهم، بذكر إباحة الحمى، وانتهاك الحرمات، وقتل النساء والذرية، وبيان أنه لا يرضى بهذه الحال إلا من يرضى بالمنزل الهون. وكل هذه إثارة لتلك الغريزة على أبلغ وجه يستطيعه بليغ.

وقد يربط المتكلم فكرته بهذه الغريزة إذا كانت متغلغلة بقوة في نفس الجماعة التى يخاطبها كما قال النبي ﷺ في الحث على الصبر والتؤدة، والحلم: «ليس الشديد بالصرعة[٦] إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب» وكقول أبي بكر رضى الله عنه في رجوعه من إحدى الغزوات: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. يريد رضى الله عنه جهاد النفس بمنعها من السوء، فكان هذا وذاك ربطا لتلك المعانى النفسية العالية السامية بغريزة المقاتلة، تلك الغريزة المتغلغلة في النفس العربية والتى لا تعدل بها شيئاً سواها. وبذلك الربط تستفيد تلك المعانى قوة وجلاء.

وغريزة حب الثناء يستطيع الخطيب أن يستخدمها في إثارة الأهواء لما يدعو إليه بأن يبين أن الشرف والمجد والسلطان فيه كما فعل المغفور له سعد «باشا» زغلول في حفل الطلبة لتحيته سنة ١٩٢١ إذ جاء في خطبته فيهم:

أتوجه والخشوع يملأ جوارحى إلى تلك الأرواح الطاهرة، أرواح أولئك الأبطال الذين نادوا بالحق، والحق منكر، ففاضت أرواحهم وألسنتهم تردد ذلك النداء، فاضت، وقد شرفونا بإقدامهم، وألزموا الكل باحترام مصر واسمها، وبيضوا وجوهنا، والآن فلينا موا هادئين، فقد انبلج فجر الاستقلال مضمخاً بدمائهم، وخلفوا من بعدهم من يستحق ذلك الفداء، يعش الله

(١) القليب بضم القاف السوار.
(٢) الرعاث جمع رعثة بفتح الراء وهى القرط.
(٣) وافرين أى تامين.
(٤) الكلم الجرح.
(٥) الغرض ما ينصب فيرمى بالسهام ونحوها.
(٦) الصرعة القوى الذى يصرع غيره.

برحمته أجدادهم، وأسكنهم جنات العلا، وأرضى عن أعمالنا أرواحهم، وأراحهم بتحقيق آمالنا. لله در الشبيبة ما فعلت؛ فإنها قد فتحت ماضمت صدورها من كنوز الفتوة، وملأت قلب البلاد عزة وحماسة، وملأت رءوسها حكمة، وملأت حركاتها نظاماً، تلك الشبيبة التي هي عماد الحركة الحاضرة؛ ومبعث أنوارها الساطعة، أشكرها شكراً جزيلاً، وأرتاح جداً؛ لأن المستقبل سيكون بيدها، وهي يد ماهرة.

فانظر إلى ذلك الخطيب القادر كيف جاد بعقود الثناء للشبيبة التي يخاطبها، وأشار إلى أن المستقبل سيكون لها، وكل ذلك إغراء أي إغراء لهم بأن يستمروا على نهج الاستقلال الذي يدعو إليه.

وهكذا يستطيع الخطيب القارئ للنفوس المسيطر على البيان سيطرة تامة أن يتخذ من الغرائز التي تناسب موضوعه طريقاً لإثارة أهواء السامعين لما يدعو إليه، وجذبهم لفكرته، وضم الشارد لجماعته.

٦- بواعث الانتباه:

كل الأمور التي تبعث الانتباه القسري، وتجلب السامعين إلى الخطيب، والإنصات لكلامه، وتوجههم إلى فكرته، من شأنها أن تبعث ميولهم إليه، وتلفتهم عما سواه، وهذه أمور كثيرة منها.

(أ) الجدة، والغرابة، والتغيير:

لكي يثير نشاطهم فإن الجدة تكسب الفكرة طلاوة، وتعطيها رونقاً وبهجة، والتغيير يدفع عن النفس السأم، ويجعل نشاطها دائماً مستمراً، والكلام يكتسب تلك الجدة بالإكثار من ضرب الأمثال الغريبة الشائقة التي تثير خيالهم، والتشبيهات البديعة التي توقظ أفهامهم، ومن الخطب التي تشتمل على ذلك خطبة بسمارك في جعل السيادة الدستورية لبروسيا، إذ جاء فيها:

أيها السادة إذا لم ترضوا الروح البروسية في هذا الدستور؛ فإني أعتقد أنه سيبقى حبراً على ورق، وإذا أنتم حاولتم أن تسوموا البروسيين الإذعان لهذا الدستور، فإنكم ستجدون منهم ما وجده الأقدمون من جواد الإسكندر بوكيفالوس الذي كان يحمل مولاه، ويسير به جريئاً مبتهجاً، بينما هو يقذف الفارس الذي يتطاول إلى امتطاء صهوته؛ ويلقيه على الرغام، يتمرغ بذهبه، وفروه، وسائر حليه وملابسه. ولكن يعزيني الآن اعتقادي الراسخ بأن الوقت لن يطول

حتى تنظر الأحزاب المختلفة إلى هذا الدستور، كما نظر الطبيبان في أسطورة لافونتين إلى جثة المريض الذي كانا يعودانه إذ يقول أحدهما: لقد مات، ولقد تنبأت بذلك منذ رأيته.

ويقول الآخر: لو أنه استمع إلى نصيحتي، ما مات.

ومن الجدة أن ينوع الخطيب أسلوبه: فأحيانا يأتي بكلامه في صورة استفهام، وأخرى في صورة تقرير، والثالثة في صورة طلب، وهكذا، وأن يغير في الصوت، فلا يصح الاستمرار طويلا على وتيرة واحدة، إذ الصوت النمطي المطرد، يزيل الانتباه، فيجب التغيير في الصوت، ليكون فيه تنشيط، وإثارة للاهتمام، وإيقاظ للغافلين. وفي كل ذلك إثارة للميول والأهواء.

(ب) التكرار والتوكيد:

إن للتكرار والتوكيد أثراً كبيراً في إثارة الأهواء والميول، وإذا استعملهما الخطيب بمهارة ودقة جذب السامعين إلى رأيه، وأخذهم إلى ناحيته.

جاء في كتاب الآراء والمعتقدات لجوستاف لوبون: إن التوكيد والتكرار عاملان قويان في تكوين الآراء وانتشارها، وإليهما تستند التربية في كثير من المسائل، وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في خطبهم؛ ولا يحتاج التوكيد إلى دليل عقلي يدعمه، وإنما يقتضي أن يكون وجيزا حماسيا، ذا وقع في النفس.

وقال في كتاب روح الاجتماع: للتكرار تأثير كبير في عقول المستنيرين، وتأثير أكبر في عقول الجماعات، من باب أولى؛ والسبب في ذلك كون المكرر، ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن، نسي الواحد منا التكرار، وانتهى بتصديق المكرر، وهذا هو السر في تأثير الإعلانات العجيب، يقرأ الواحد مائة مرة أن أحسن الحلوى من صنع فلان، فيخيل إليه من التكرار أنه سمع ذلك من مصادر شتى، وينتهي باعتقاد صحة الخبر.

وإذا كان التكرار منبها للمشاعر صارفها إلى الخطيب، فيجب أن يتجه إليه، ما لم يجد أن المقام يحتاج إلى الإيجاز؛ فيعمد إلى التوكيد.

فالتكرار أولى في مقام الإطناب، والتوكيد أولى في مقام الإيجاز، ويجب أن يلاحظ في التكرار أن يكون بعبارات وأساليب مختلفة، وأن يكون النظر فيه إلى المعنى من جوانب متعددة، وقد رأيت التكرار البليغ المفيد في خطبة الإمام علي رضي الله عنه عندما قتل عامله على الأنبار التي سبقت إليك.

ولقد اختار جوستاف لوبون مثلا للتوكيد والتكرار منشورا يظهر أنه اشتراكي نشر في إحدى صحف أوروبا وقد جاء فيه: من ينتج القمح الذي نحتاج إليه؟ هو الفلاح. ومن يزرع الشعير والحبوب كلها؟ ومن يربي المواشي والأنعام؟ هو الفلاح. ومن يرعى الضأن للحصول على أصوافها؟ هو الفلاح. ومن ينتج الخمر والنبيذ؟ هو الفلاح. ومن يطعم الطرائد؟ هو الفلاح. ولكن من يأكل أطيب الخبز، وأطرى اللحوم، ومن يلبس أفخر الثياب؛ ومن يشرب خمر بوردو، والشمبانيا؟ ومن ينتفع بالطريدة؟ هو ابن الطبقة العليا المثرية، ومن يتسلى ويستريح كما يريد؟ ومن يتمتع بأطايب النعم، ومن يسيح للنزهة، ومن يشفى في الصيف، ويتدفأ في الشتاء؟ هو ابن الطبقة العليا المثرية. ومن يأكل طعاما غير شهي، ومن يتدر شربه للخمر، ومن يشتغل بدون انقطاع، ومن يكابد حرارة الصيف وصبارة الشتاء، ومن هو شديد البؤس كثير الشقاء؟ هو الفلاح. فترى من هذا كيف كرر ونوع في التكرار وكيف كان متحريا في كلامه المكرر إثارة الأهواء والميول.

إثارة الأهواء نحو المراد مباشرة

ما سبق كان أمورا كلية تستخدم في كل غرض خطابي، وهي في هذا أشبه بالنظريات العامة، وهناك أمور جزئية. وهي ما يتعلق بالمراد من الخطبة مباشرة من غير وساطة، وهذه تختلف باختلاف أغراض الخطيب، ولكل بواعث تختص به؛ ولذا نبين بعض الأغراض بالإجمال وطرق الإثارة ونحوها، وما لا نقوله يقاس على ما نقوله.

(أ) البغض والمحبة:

فإذا كان غرض الخطيب تأليف القلوب، وجمعها على محبة زعيم، أو الالتفاف حول قائد، يبين لهم.

١ – ما تحلى به من السجايا، وما امتاز به من المواهب.

٢ – وحسن مآثره، وسابق خدماته، لمن يدعوهم إليه.

٣ – وإخلاصه لهم، وتواضعه ولين جانبه.

٤ – وما يرجى لهم من خير في الالتفاف حوله، ونصرته، وكل هذا يثير محبتهم، ويقربه من قلوبهم، ويدنيه من نفوسهم.

وإذا كان الغرض التبغيض في شخص، وإبعاد الناس من حوله، يبين لهم ما طبع عليه من قبيح الخصال في لفظ نزيه، وعبارات رائقة لاتخدش الناموس الاجتماعي، ولا إقذاع فيها، ويبين أعماله السيئة، وماضيه السيء، وخبث طويته، وعدم إخلاصه للجماعة، وما في الالتفاف حوله من عقبى سيئة، وإعزاز للباطل، وإذلال الحق.

ومن الخطب المشتملة على إثارة المحبة لقوم، والبغضاء لآخرين، خطبة أبي حمزة الشاري في مكة المكرمة عندما دخلها. وستجيء إليك كاملة في الجزء التاريخي[1].

(ب) الرغبة والنفور من أمر:

إذا كان غرض الخطيب إثارة الرغبة في أمر من الأمور:

١- بين منافعه وثمرته التي تعود على الجماعة من الأخذ به.

٢- وصوره لهم صورة آخذة بنياط القلوب، مستولية على الألباب والأفهام؛ فيثير خيالهم نحوه، وفي إثارة الخيال إثارة للرغبة في الحصول.

٣- وذكر لهم أنه قريب المتناول، ليس بعيداً عن أيديهم؛ بل هو في طاقتهم، وفي متناول قدرتهم.

٤- وبين أن الآخذين به في أسمى المراتب الإنسانية.

وإذا كان الغرض تنفيرهم من أمر:

١- بين المضار الناجمة عن ملابسته.

٢- وصوره لهم في صورة تنفر منها النفس، وتتقزز.

٣- وحقره، وحقر الآخذين به، وبين أنهم صغار الناس، وأنهم في المرتبة الدون، والمكان الهون.

ومن أبلغ الترغيب والتنفير ما جاء في خطبة الزعيم مصطفى كامل «باشا» عن الاحتلال الأجنبي، والدعوة لمقاومته:

كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه، والعار واجب أن يزول، ولست أقصد بهذا الكلام أن أسألكم باسم الوطن إعلان ثورة دموية ضد محتل البلاد، كلا، ثم كلا؛ إن أقل

---

(١) هي في البيان والتبيين أيضاً.

الناس إدراكا لمصلحة مصر يعلم أنها منافية لكل ثورة، وإنما أسألكم أن تعملوا بكل الوسائل السلمية على استرداد الحقوق المسلوبة منكم، وأن تعملوا لأن تحكم البلاد بأبناء البلاد؛ نعم، إني أعلم أن الاحتلال قوى السلطة، عظيم الرهبة، شديد العقاب، وأن العمل ضده موجب للعقاب، مسبب للفقر والفاقة، ولكن في الرضا بالاحتلال الخيانة، والعار، وفي العمل ضد الاحتلال الشرف، والفخار، فياذوي النفوس الأبية، وياذوي الضمائر الحية، اطلبوا الشرف، ولو مع الفقر، اخدموا الوطن، ولو أسقطت على رءوسكم الصواعق، كونوا مع مصر، إن سعيدة فسعداء، وإن تعيسة[1] فتعساء، قولوا لعدوها في وجهه: أنت عدو لنا، ولصديقها: أنت صديق لنا. لا تحبوا من يرميها بنبال الموت، بل امنعوه عنها إن قدرتم، ثم ردوها في صدر راميها إن استطعتم.

(جـ) الفرح والحزن:

إذا أراد الخطيب إثارة دواعي الفرح في نفوس المخاطبين، والإسهام معهم في أفراحهم.

١ – ذكر لهم ما في الأمر الذي هو موضوع الخطبة من مزايا، وما يجنى منه من ثمرات، وما يكون له عليهم من العاقبة الحسنى.

٢ – وبين أنه في ذاته بعيد المنال، غير ميسور الحصول، وأنه لا يؤخذ إلا بشق الأنفس.

٣ – وأشار إلى شغف الناس بطلبه، وأنه الرغيبة المحبوبة، والغاية المنشودة، والأمل المطلوب.

ومن أمثل الخطب المشتملة على مظاهر الفرح والسرور خطبة المغفور له سعد (باشا) زغلول عندما أقام أعضاء مجلس الشيوخ قبل أول انعقاد حفل تكريم له، فقد جاء فيها بعد أن شكر لهم تكريمهم:

وبعد، فإني أهنئكم من كل قلبي بالثقة التي اكتسبتموها من البلاد.

وأعد نفسي سعيدا بأني أول وزير مصري لحكومة دستورية، تستمد قوتها من إرادة الشعب، وتستند في بقائها على ثقة نوابه.

ستصبح هذه المبادئ نافذة المفعول فينا، ويصبح أمر الكل للكل، ويشعر كل مصري أن حياته، وحريته، وشرفه، وماله، وولده، كل ذلك تحت حماية القانون، وأن على القانون حارسا قويا أمينا من البرلمان، وأن البرلمان تحت حراسة أمة يقظة، والكل في ذمة الله وعنايته.

---

(١) لم يصح الوصف من تعس على تعيس وتعيسة.

بعد يوم واحد تجد الوزارة نفسها مسئولة أمام نواب البلاد، وأن عليها أن تبرر أعمالها العامة أمامكم، كما تبررها أمام ضمائرها الخاصة، وتشعر من جهة أخرى بخفة ثقل المسئولية الملقاة عليها، لوجود قوة بجانبها، تقاسمها هذه المسئولية، كما تشاطرها النظر فى إدارة أمور البلاد.

بعد يوم واحد يحل احترام الحكومة محل الخوف، ويشتد القرب منها بعد البعد عنها؛ إذ يستيقن الكل أنها ليست إلا قسما من الأمة تخصص لخدمتها العامة، حسب القانون والمبادئ الديمقراطية، وأن لكل واحد فيها حصة مباشرة، أو بالواسطة فيبذل الكل جهودهم فى معاونتها على القيام بمهمتها الخطيرة.

وإذا أراد الخطيب أن يثير عوامل الأسى والشجن فى نفوس سامعيه، وأن يظهر ما فى نفسه من آلام:

١- ذكر المحنة، وآثارها فى النفس، وآلام وقعها.

٢- ذكر وقعها فى نفسه خاصة، وما ناله بسببها من آلام.

٣- بسط القول فيما آتى الله المفقود من مزايا، وصفات اختص بها.

ومن أبلغ الخطب التى تثير الحزن فى النفس، وتبين منزلة المفقود خطبة الإمام على بن أبى طالب فى رثاء أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما، وها هى ذى كما جاءت فى كتاب إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى:

رحمك الله أبا بكر كنت إلف رسول الله ﷺ وأنسه وثقته، وموضع سره، كنت أول القوم إسلاما، وأخلصهم إيمانا، وأشدهم يقينا، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء فى دين الله، وأحوطهم على رسول الله، وآمنهم على أصحابه، أحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأقربهم برسول الله ﷺ سمتا وهديا، ورحمة وفضلا، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده، جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيرا، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر. صدقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس..... واسيته حين بخلوا، وقمت لله عند المكاره حين عنه قعدوا، وصحبته فى الشدة أكرم الصحبة، وكنت ثانى اثنين وصاحبه فى الغار، ورفيقه فى الهجرة، وخليفته فى دين الله، وأخلفته أحسن الخلافة حين ارتد الناس، فنهضت حين وهن أصحابك وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، وقمت

بالأمر حين فشلوا ونطقت حين تعتعوا[1]، مضيت بنور الله إذ وقفوا، واتبعوك فهدوا، وكنت أصوبهم منطقاً، وأطولهم صمتاً، وأبلغهم قولاً، وأكثرهم رأياً، وأشجعهم نفساً، وأعرفهم بالأمور، وأشرفهم عملاً، كنت للدين يعسوباً[2] أولاً حين نفر عنه الناس، وآخراً حين أقبلوا، وكنت للمؤمنين أباً رحيماً، إذ صاروا عليك عيالاً فحملت أثقال ماضعفوا، ورعيت ما أهملوا وحفظت ما أضاعوا، شمرت إذ خنعوا[3] وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ جزعوا، وأدركت أوطار ما طلبوا، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا، وكنت كما قال رسول الله ﷺ: «آمن الناس في صحبتك، وذات يدك» وكنت كما قال، ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في أعين الناس، كبيراً في أنفسهم، لم يكن لأحد فيك مغمز، ولا لأحد مطمع، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز، حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك سواء، أقرب الناس إليك أطوعهم لله، شأنك الحق، والصدق والرفق، قولك حكم، وأمرك حزم، ورأيك علم وعزم، فأبلغت، وقد نهج السبيل، وسهل العسير، وأطفأت النيران، واعتدل بك الدين وقوي الإيمان، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً، وفزت فوزاً مبيناً، فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك، وهدت مصيبتك الأنام، فإنا لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا له أمره، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً.

ولما انتهى من خطبته رضي الله عنه بكى الناس حتى علت أصواتهم كما ذكر الرواة.

الأمل واليأس:

علمت مما سبق أن الأمل رغبة مستقبلة، ولذة مرجوة، فمن أراد أن يثيرها:

١ – اتجه إلى بيان المزايا والثمرات، وصور فيها السعادة المعسولة.

٢ – ثم بين أنها سهلة التناول قريبة من ذي الهمة، دانية القطوف لمبتغيها.

٣ – ثم ذكر أن العمل يخفي المستحيل، ويكثر من الممكن، ويجعل كل شيء في قدرة الإنسان إلا ما اختصت به الأقدار، وعلا عن مغالبة بني الإنسان.

---

(١) التعتعة تتابع الكلام حتى لا يفهم، وذلك من الاضطراب.

(٢) اليعسوب الرئيس الكبير.

(٣) الخنوع الخضوع والذلة.

٤ - ثم يوجه الناس في عملهم إلى الاستعانة بالله والثقة به، والاطمئنان إلى تأييده ونصرته، فإن توجيه الجماهير إلى الاستعانة بالله إحياء للروح الدينية في نفوسهم، وفي إحيائها إحياء للآمال، إذ التفويض مع العمل يجعل الرجاء غالباً، واليأس بعيداً ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾.

ومن أبلغ الكلمات المحيية للأمل الباعثة له قول الخطيب الشاب الزعيم مصطفى كامل (باشا) في إحدى خطبه:

هناك فئة من المصريين لا أنكر إخلاص رجالها للوطن العزيز، ولكن أنكر عليهم اليأس الذي يتظاهرون به في كل وقت، وفي كل مكان، فهم ما عملوا وكلما سألتهم أجابوك، نحن يائسون من مستقبل الوطن، معتقدون بظلمة الأيام الآتية، فبالله كيف يستطيع طبيب أن يحكم على عليل بعدم الشفاء قبل أن يفحص داءه، ويعطيه الدواء، على أننا نرى الكثيرين من الأطباء لا ييأسون أبداً من شفاء المريض، حتى في آخر لحظة من حياته، فكيف ييئس رجال من بني مصر، من مستقبل البلاد، وهم إن كانوا قد خبروا داء مصر، فيعلم الله، ويعلم الناس أنهم إلى اليوم ما قدموا لها الدواء، كيف نيئس من المستقبل والمستقبل بيد الله وحده، وكثيراً ما تأتي الحوادث بخلاف المنتظر، وبغير حساب، ألم يكن الكثير من المصريين، ومن غير المصريين في يأس من مستقبل الدولة العلية، ويعتقدون أنها على مقربة من الموت، فها هي اليوم قد ساعدتها الحوادث التي ساقها الأعداء مؤملين البطش بها، فظهرت بمظهر القوة والحياة، وأصبحتم جميعاً فرحين بسلامتها معتقدين حسن مستقبلها.

كيف نيئس من المستقبل وقد أرانا التاريخ أمماً حكمها الأجانب قروناً طويلة، ثم قامت بعد الذل والاسترقاق، مطالبة بحقوقها، وأخرجت الأعداء من ديارها، واستردت حقوقها وحريتها. هي النفوس الصغيرة التي يخلق عندها الأمل بكلمة، أو تلغراف، ثم يستولي عليها اليأس بكلمة، أو تلغراف، أما النفوس العالية الكبيرة فيدوم فيها الأمل مادام الدم في العروق، ومادامت الحياة، وأي حياة ترضاها النفوس الشريفة مع اليأس؟ أيجمع المرء في جسم واحد الموت والحياة، إذ اليأس موت حقيقي، وأي موت...

وقد يرى الخطيب أن الجماعة التي يخاطبها قد استولت عليها آمال بعيدة التحقق، متعسرة الوقوع أو متعذرة، وأن في الجري وراءها تركاً لميدان العمل، وركضاً في ميدان الخيال، وأن الآخذين بهذا أشبه بمن هم في أحلام فهو مضطر إلى أن يقول لهم ما يلقي القنوط من هذه الناحية في نفوسهم. وذلك مركب صعب، ومزلق خطر، لذا يجب أن يكون المتصدي له حذراً يلقي اليأس، ويحتاط من إماتة النفس، والطريق لذلك:

١ – أن يبين أن سبيل الجد ما كان عملياً، لا خيالياً، وأن التمسك بما هم آخذون به أقرب إلى الخيال، وليحذر أن يكون في ذلك مصادمة لإحساسهم، بل يمهد لهم بما يعتقدون به أنه مشاركهم في آمالهم، وأن إحساسه من إحساسهم، ثم يعقب بعدة استنتاجات حتى يستدرجهم إلى ما يريد ويأخذهم إلى ما يبغي.

٢ – وقد يكون من الوسائل الجدية أن يبين المخاطر، والمشاق التي تكتنف من يبغي ذلك المطلب، ويسعى إليه.

٣ – وضرب الأمثال بمن جهدوا أنفسهم ولم يصلوا إلى مبتغاهم، ولم ينالوا متمناهم، مع انصرافهم عن العمل الجدي النافع – مفيد في ذلك جد فائدة، ويوجه النفوس إلى العمل المنتج المثمر.

ومن الكلام الجيد المفيد هذا المعنى إفادة تامة ما جاء في خطبة لمصطفى كمال «باشا» في الرد على بعض من يدعو للجامعة الإسلامية بزعامة تركيا: أيها السادة، إني أفهم الجامعة الإسلامية على الصورة الآتية: إن أمتنا، وحكومتنا التي تمثلها تتمنيان لجميع المسلمين الذين على ظهر الأرض كل سعادة، وأن تحيا كل جماعة إسلامية في مختلف البلاد حياة مستقلة، ولعمر الله، إنا نشعر بسرور وسعادة من ذلك؛ فإن سعادة جميع الأمم الإسلامية ورفاهية العالم الإسلامي هي في نظرنا كسعادتنا، ورفاهيتنا. إننا مرتبطون بهذا الأمر، كما أننا نرى الأمم الإسلامية مرتبطة بنا، وبسعادتنا على هذه الصورة، وهذا أمر يتجلى كل يوم.

إنما إذا أردنا أيها السادة، أن نجمع هذا المجتمع الكبير في شكل إمبراطورية مادية، فهذا خيال محض، مخالف للعلم، والمنطق والفن، إننا يجدر بنا ألا ننسى قط أن لكل جسم سياسي نهاية من القوة، لا يعدوها أبداً، كما أن هناك خطوطاً طبيعية معقولة للشكل الإنساني الحسن؛ وكما أن الشكل الإنساني مبني على هذه القاعدة، فإن الجماعات التي تتألف من الناس كذلك، لا تشذ عنها.

أيها السادة لننعم النظر في موقفنا قبل قرون، انظروا إلى إفريقية، وسوريا، والعراق ومقدونيا وبلغاريا والعرب وغيرها من أقسام ممالكنا ثم وازنوا بين حالنا إذ ذاك، وحالنا اليوم، هل من الممكن أن نعيش هذه الأمم المختلفة الطبائع والبيئات تحت ظل إمبراطورية واحدة، هذا أمر مغاير للطبيعة والعقل، وقد كانت النتيجة ما رأيناه، إذ لابد أن يختلف الأمر في إفريقية، وأن يختلف في سورية، وأن يختلف في العراق، وأن يختلف في بلادنا، فإذا سعينا لنجعل الجميع

واحداً أخطأناه، إنما نحن نتمنى أن تتشكل كل جماعة إسلامية تشكلا طبعياً، وأن تحافظ على استقلالها وأن تعيش عيشة حرة، ولا شك أننا أمة تقر بأن سعادة الأمم الإسلامية سعادة لنا، ثم إننا نحن والعالم الإسلامي جماعة كبيرة، تلتف حول عرش الخلافة، وكلنا نقدسه، ونبجله[1].

(هـ) الغضب والخوف:

قد يرى الخطيب أن الجماعة خسة فاترة، ويرى أن الأمر الذى يدعوهم إليه خطير، يحتاج إلى حماسة ونخوة، وإباء وحمية، وغيرة على الحمى، أو الدين، أو العرض، فهو يعمد إلى إثارة الغضب، ليوقظ تلك السجايا من رقدتها، وينبهها من غفلتها، ويتخذ منها قوة ملتهبة تذلل الصعب، وتذيب الصم الصلاب، والطريق لذلك:

١- أن يذكر الإهانة، ويعظمها، ويصورها فى صورة مذكية للحفائظ، مثيرة للهمم.

٢- وأن يذكر العار الذى يلحق الجماعة، إن لم تتحفز لغسل تلك الإهانة بالذود عن حماها، والذب عن حياضها.

٣- وأن يضرب الأمثال بذكر الأشباه والنظائر، ويجعل لهم الأحرار من الناس مثلا يحتذى، وذوى الهمم القعساء أسوة تؤتسى.

ومن أتوم الخطب التى تثير الحمية، وتدفع ذوى الإقدام إلى الاقتحام خطبة الإمام على ابن أبى طالب، فى حث جنده على الجهاد، وها هى ذه:

أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهى الصم الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم، تقولون فى المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم حيدى حياد[2]؛ ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم[3]، أعاليل بأضاليل[4]. وسألتمونى التأخير، دفاع ذى الدين المطول[5] هيهات، لا يمنع الضيم الذليل، ولا يدرك الحق إلا بالجد، أى دار بعد داركم تمنعون؟ أم مع أى إمام بعدى تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب، أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع فى

(١) ألقيت هذه الخطبة قبل إخراج الخليفة من تركيا.

(٢) كلمة يقولها الهارب كأنه يسأل الحرب أن تتنحى عنه، ويقول حيدى أى ابتعدى يا حياد هى كقطام مبنية على الكسر.

(٣) قهركم (٤) جمع أعلولة وأضلولة.

(٥) صيغة مبالغة من المطل وهو تأخير الدين.

نصرتكم، فرق الله بيني وبينكم، وأعقبني بكم من هو خير لي منكم، لوددت أن لي بكل عشرة منكم رجلا من بني فراس بن غنم[1] صرف الدينار بالدرهم».

وقد يرى الخطيب الجماعة في اندفاع وعصيان وثورة، ويرى أن علاجها إلقاء الرعب في قلوبها، وبث الرهبة في نفوسها، ليستقيموا على الجادة، ويسلكوا السبيل، فيلقي في ذلك خطبا سداها ولحمتها نفث الروع فيهم وتخويفهم، وطريق ذلك:

١ – أن يبين لهم سوء العقبى لما هم يفعلون، وأن الطامة الكبرى في طريقهم غير القويم.

٢ – وأن يبين أن فوات كثير من رغباتهم، وطلباتهم في استمرارهم على غيهم، وأن الحرمان هو النتيجة الأولى لسلوكهم.

٣ – وأن ينيط عقابا خاصا، يقع بالمستمر على غيه، الموغل في سيره، والموغل في إثمه.

وإنك لتجد في خطب العصر الأموي، وصدر العصر العباسي شيئا كثيرا مشتملا على ذلك النوع من الخطب المرعدة المبرقة، كما ترى في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي، وخطب زياد بن أبيه، وبعض خطب عبد الملك بن مروان، ومعاوية بن أبي سفيان، ومن ذلك خطبة عتبة بن أبي سفيان في أهل مصر، وقد أبلغه تململهم بحكم بني أمية، فقد قال فيها:

يأهل مصر إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا فإن لله فيكم ذبيحا لعثمان، أرجو أن يوليني نسكه، إن الله جمعكم بأمير المؤمنين بعد الفرقة، فأعطى كل ذي حق حقه، وكان والله أذكركم، إنما ذكر بخطة، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه، نعمة والله فيكم، ونعمة منه عليكم، وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم عفو منا، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل، بعد أنس الحق، بإحياء الفتنة، وإماتة السنن، فأطأكم والله وطأة لا رفق معها، حتى تنكروا مني ما كنتم تعرفون، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون، وأنا أستشهد عليكم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقد يكون التخويف بسوء العقبى يوم القيامة. فيذكر الخطيب السامعين بهول ذلك اليوم، وما فيه، والموت والبلى، وبأن ما في الحياة الدنيا إلى فناء، وما في الآخرة إلى بقاء، وأمثل الخطب في ذلك خطب المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم، والخلفاء الراشدين، ومن نهج نهجهم، ومن خطب النبي ﷺ في التذكير بالموت خطبته التي جاء فيها:

---

(١) قبيلة من بكر.

«أيها الناس.كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب، وكأن الذى نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون. نبوئهم أجداثهم، ونأكل من تراثهم، كأننا مخلدون بعدهم، ونسينا كل واعظة، وأمنا كل جائحة».

- وخطبته عليه الصلاة والسلام التي جاء فيها:

«أيها الناس، إن لكم معالم، فانتهوا إلي معالمكم، وإن لكم نهاية، فانتهوا إلى نهايتكم؛ إن المؤمن بين مخافتين: بين عاجل قد مضى، لا يدرى ما الله صانع فيه، وآجل قد بقي، لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فو الذى نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب».

(و) الرحمة:

من المقامات الخطابية، ما يكون قطبها إثارة بواعث الرحمة في نفوس السامعين، واستدرار عطفهم على طائفة من الطوائف؛ أو شخص من الأشخاص، أو تحريك هممهم لعمل إنساني جليل؛ فيه مواساة لبني الإنسان، أو مداواة لكلومهم، كإنشاء مستشفى لمرضى السكر أو للولادة، أو للفقراء، أو ملجأ لليتامى، أو إعانة لمنكوبي حريق، أو منكوبي سيل طاغ قد طم؛ أو جرحى حرب، أو مهاجرين منكوبين؛ أو نحو ذلك من الأعمال الإنسانية التي تستمد قوتها من شفقة ذوى القلوب. ففي هذه الأحوال يتجه الخطيب إلى عاطفة الرحمة في مخاطبيه فيثيرها، وطريق ذلك:

١ – أن يصور المحنة في صورة تثير المشاعر، ويستدر العطف.

٢– ويبين للناس أن من وقعت بهم هذه المصيبة ما كانوا لها متوقعين، بل جاءتهم بياتا وهم نائمون، أو فجأتهم من حيث لا يشعرون.

٣– ويذكر أنها إصابة المقدار، وكل امرئ معرض لها، ومن يصاب بها يكون في مثل حاجة هؤلاء.

٤– ويبين أن بني الإنسان أو الجماعة المؤتلفة منهم جسد واحد، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

٥– وأن الرحمة من كمال الإنسان، وأن من لا يرحم لا يرحم، ومن لا قلب له لا يعد في مصاف ذوى الكمال.

٦- ويحسن أن يعرض صورا للحادثة، إذا وجد في عرضها ما يثير الرغبة في المعاونة.

٧- وليجعل الخطيب الداعي إلي الرحمة من حاله ما يناسب مقاله، فليجعل من ملامح وجهه، ونغمات صوته، وحركاته، وإشاراته ما يصور عاطفته بإخلاصه فيما يدعو إليه، فإن لذلك أثره الواضح في ذوي القلوب الرحيمة.

٨- وليكثر من ضرب الأمثال، فإن ذلك يثير الخيال في الناحية التي يريدها الخطيب، وإثارة الخيال في تلك الناحية من موقظات الشفقة، والعطف الإنساني.

وإثارة عواطف الرحمة قد تكون لب الدفاع في بعض الجنايات، كما إذا كان المتهم معترفا بجنايته، ولكن دفعه إليها دافع شريف، كدفاع عن شرف، أو عرض، أو كرامة، فعلي المحامي أن يصور الدافع في صورة مثيرة للعطف عليه، وأن يحيط مرافعته بإطار من الحوادث التي تثير الرحمة في نفس القضاة، خصوصا إذا كانوا محلفين، كما فعل محام فرنسي في دفاعه عن امرأة مزقت وجه خليلة زوجها، إذ رأتها معه في بيتها، فقد جاء في ختام كلامه:

أنتم ياحضرات المحلفين، قضاتنا، وواجبكم أن تسألوا أنفسكم، أفعلت ما فعلت، عامدة قاصدة، أم دفعها اليأس لتلك الفعل، بغير إدراك؟ لا يجوز لكم أن تقضوا بالإدانة، إلا إذا تأكد لديكم أن المتهمة كانت حرة الإرادة، وكانت تستطيع أن تمتنع عن فعل ما فعلت، ولم تمتنع.

هل ارتكبت هذه المتهمة الواقفة أمامكم فعلتها بدافع سيء؟ أكانت تستطيع أن تقف غضبها عند حد، وتسيطر عليه؟ هذا هو لب الموضوع. فإن وجدتم أنها احتملت كل أنواع الآلام والعذاب وأنها لجأت للتهديد والرجاء، وأنها حاربت سنة كاملة، فاحكموا ببراءتها.

وما تصاب امرأة كهذه إلا ولله في أمرها حكمة، إنها لم تفعل في حياتها إلا ما هو حسن، ومع ذلك حرمت زوجها، ولها الآن أربعة أشهر كاملة محرومة من ابنتها، أليس ذلك مؤلما، لازوج ولا ولد، وكلما ذهبت ابنتها لزيارتها في السجن، زادت آلامها آلاما، تقول لها: تعالي يا أماه، لا تبقي في هذا المسكن، إنه بارد مظلم، تعالي معي للمنزل، فتجيبها أمها: غداً.. غداً يابنتي، سأحضر. ولكن غدا لا يحضر أبدا، لك الله يابنية، لقد وعدتك بأنك ستأخذين أملك مساء الأمس.

حضرات المحلفين، لقد أبطأنا كثيراً، فانطقوا، انطقوا سريعاً بحكمكم والله يتولاكم برعايته.

التنسيق

هو تنظيم أجزاء الخطبة، وإحكام تركيبها، وربط بعضها ببعض، ووضع أدلتها في شكل منتج، فالتنسيق هو في الحقيقة بناء الخطبة، ونظام عقدها، يجعل معانيها متساوقة، فيأخذ بعضها بحجز بعض، ويجعل الغرض منها واضحاً، إذ لا يذكر المعنى إلا بعد التمهيد له، فيكون قريباً مألوفاً، وواضحاً مكشوفاً. وإذا أخذ به تمام الأخذ، مع التجنب لعيوبه، والتحري لمحاسنه، ضمن للمتكلم حسن الإصغاء، وكمال الانتباه.

وقد ذكر العلماء للخطبة ثلاث مراحل:

الأول المقدمة، والثانية الإثبات، والثالثة الخاتمة.

وتنسيق الخطبة أن يراعي الخطيب قوانين هذه الأقسام، فيتبع محاسنها، ويجانب معايبها. وقبل بيانها نقول: إن هذه المراحل لا تكون في كل الخطب، بل من الخطب ما لا يشتمل إلا على مرحلة الإثبات كبعض خطب الشكر، والتهنئة، والمدح.

ومن الخطب ما لا يشتمل إلا على الإثبات والخاتمة؛ كبعض المراثي. وبعض الخطب، يشتمل على تلك العناصر، ككثير من الخطب المطنبة، ومرافعات الخصوم في المحاكم، وخطب الشورى في المجالس الشورية، والخطب السياسية في المؤتمرات الدولية، وغيرها.

المقدمة

هي ما يجعله الخطيب صدر خطبته ١- ليثير الفكر إليها ٢- وليعطي السامعين صورة إجمالية لها ٣- وليحصر لهم معانيه، وأفكاره في نطاق لايعدوه، ولا يتجاوزه، ويسمى الأول حسن الافتتاح، والثاني بيان المقصد، والثالث تقسيم الخطاب.

وإن من الخطب مالا يحتاج إلى ذلك كله، فبعضها لا أقسام فيها، فلا حاجة إلى تقسيم خطاب، وبعضها موجز، فلا يذكر فيه إلا افتتاح صغير يناسبه، إذ التكرار في هذه الحال يعيبها، فإن من العبث التكرار مع الإيجاز، وذكر المقصد أولا مجملا، ثم بيانه ثانياً تكرار لا يتفق مع الإيجاز.

ومن الخطب ما يحتاج في مقدمته إلى كل هذه الأجزاء، كالمرافعات المطنبة في المحاكم، والخطب الشورية المطنبة، وبعض الخطب السياسية، وخطب الجدل والمناقشات، وقد لحت من هذا أن ذكرها جميعا لا يكون إلا في مقام الإطناب.

ونحن على أية حال نبين هذه الأمور، ونذكر ما يستحسن فيها، وما يستهجن؛ ليكون علمها سلاحا في يد الخطيب يستعمله إن ألجأته ضرورة إليه؛ أو مست الحاجة، أو وجد منها ما يناسب المقام، ويجمل الخطاب.

(أ) حسن الافتتاح:

إذا أراد الخطيب أن يجعل لخطبته افتتاحا، وجب أن يعنى به تمام العناية، وأن يجمله بكل وسائل التجميل المناسبة التي تجتذب الأفكار إليه وتهيئ الأسماع، وتجعل النفوس تتقبله بقبول حسن، فإن الفكرة الأولى عن شيء، أو عن أمر، أو عن شخص تثبت وتقر بالنفس، ومحوها يحتاج إلى عناء شديد؛ فإن كانت حسنة صعب تهجينها، وإن كانت سيئة صعب تزيينها.

والافتتاح (إن وجد) أول ما يلقى الخطيب به الجماعة، فإن وقع من نفوسهم القبول، كانت الخطبة غالباً على غراره. واستطاع أن يصل إلى قلوبهم؛ وإن لم يصادف قبولا صعبت الحال. واحتاج الأمر إلى خبير بأحوال النفوس، حاذق في طرق العلاج، ووسائل الشفاء من ذلك النفار وهذا الشماس.

قال ابن الأثير في كتاب المثل السائر: وإنما خصصت الابتداءات بالاختيار، لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان ذلك الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده، توافرت الدواعي على استماعه، ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن الكريم، كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور، وكذلك الابتداءات بالنداء، كقوله تعالى في أول سورة الحج، «يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم» فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه.

وللخطباء مذاهب شتى في افتتاحهم، ولا نستطيع حصر طرقها لأن أفضل مناهجها مرجعه إلى حسن تصرف الخطيب، وجودة تقديره، وإنا ذاكرون بعضها على سبيل المثال، لا على طريق الحصر:

١- فمن الخطباء من يفتتح خطبته بما يشير إلى موضوعها. ويلوح بالقصد منها، وقد كان يستحسن ذلك الجاحظ، وابن المقفع. فقد جاء في البيان والتبيين نقلا عن ابن المقفع، وتعليقا عليه:

وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره، عرفت قافيته، كأنه يقول فرق بين صدر خطبة النكاح، وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح، وخطبة المواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت.

ومن أبلغ الافتتاحات التي تشير إلى موضوع الخطبة افتتاح الإمام علي رضي الله عنه في خطبته بعد اختلاف الحكمين، واستنصار معاوية بقول حكمه عمرو بن العاص، فقد قال كرم الله وجهه: الحمد لله، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله.

أما بعد: فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحيرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضن الزند بقدحه، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى   فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد

٢- ومن الخطباء من يبتدئ خطبته بحكمة أو مثل سائر، أو ببعض أقوال المتقدمين، أو آية كريمة، أو حديث شريف يناسب المقام، ويكون حجة في الاستدلال، كخطيب يبتدئ خطبته في تعاون الجماعة في إصلاح حالها، وتقويم الفاسد من أمرها بتلاوة قوله تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون» . وكقول أبي العباس السفاح بالشام بعد الاستيلاء على الملك من آل مروان:

«ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا، وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها، فبئس القرار» . نكص بكم يا أهل الشام، آل حرب وآل مروان، يحكمون بكم الظلم، ويتهورون بكم مداحض الزلق، يطئون بكم حرم الله، وحرم رسوله، ماذا يقول زعماؤكم غدا، يقولون: «ربنا هؤلاء أضلونا، فآتهم عذاباً ضعفا من النار» ، إذ يقول الله عز وجل: «لكل ضعف ولكن لا تعلمون» إلخ.

وكقول أبي جعفر المنصور في مقدمة إحدى خطبه بالشام بعد أن صار الأمر للعباسيين.

شنشنة أعرفها من أخزم   من يلق أبطال الرجال يكلم

٣- ومن الخطباء من يبتدئ خطبته بذكر كلام خصومه، ودلائلهم والدوافع التي دفعتهم إلى رأيهم، ثم يعقب بالنقض كما ترى في كثير من الخطب السياسية، وخطب الخصوم في مجالس القضاء ومطارح الخلاف.

٤- ومن الخطباء من يفاجئ السامعين في مفتتح كلامه بما يزعجهم كما كان يفعل الحجاج في ابتداء خطبه. ومنها خطبته التي أولها:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

٥- ومن الخطباء من يفتتح خطبته ببيان أنه من الجماعة التي يخاطبها، وأنه في مستواها ليقربها إليه، ويكون لكلامه فضل تأثير فيها كما قال ولسن في افتتاحه خطبة له في اتحاد العمال:

لقد قدمت إليكم على أني رئيس للولايات المتحدة، ومع ذلك أود لو وضعتم فكرة المنصب جانبا، وعددتموني رجلا من بني الوطن جاء إلى هنا، لكي يتكلم كلام المشورة والنصيحة، لا كلام السلطان، كلام رجال، يخاطب كل منهم الآخر، ويريد أن يكون صريحا في وقت قد يكون أعظم حرجا مما عرفه تاريخ العالم بأسره حتى الآن، فالواجب يقضي على كل رجل في هذا الوقت أن ينسى نفسه ومصالحه ويملأ نفسه بكل ما في النظرية التي يعتنقها الوطن والعالم من قبل، ويعمل في ميدان جديد. يترفع عن شئون الحياة العادية، ويكون حيث ينظر الرجال إلى أقدار الجنس البشرى.. إلخ.. إلخ.

٦- ومن الخطباء من يفتتح خطبته بإحياء آراء قديمة للجماعة؛ يبني عليها ما يدعوهم إليه من جديد كما فعل المصطفى ﷺ عندما أنذر عشيرته الأقربين، إذ سألهم عن صدق حديثه. فقال ﷺ : «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ فقالوا: نعم، ماجربنا عليك كذبا» فألقى عليه الصلاة والسلام خطبته.

وقد يحيي الخطيب بافتتاحه كلاما كان قد قاله، ليربط بين ما قاله أولا، وما يقوله الآن، فيكون ذلك إتماماً للمعلومات وتوثيقا لها.

٧- وقد يبتدئ الخطيب خطبته، بالثناء على السامعين، ليهيئ نفوسهم لتلقي كلامه بالقبول، إذ لا شيء يهز أعطاف السامعين كالثناء عليهم، وذلك باب واسع يصح الدخول فيه بشرط الاتزان وضبط النفس.

٨- والخطب الدينية يستحسن فيها أن تبدأ بالحمد لله[(١)] وببعض الأحاديث النبوية الشريفة، أو الآيات القرآنية التي تناسب المقام الديني الذى يتكلم فيه.

وإذا لم يكن موضوع الخطبة دينيا، ولم يرد أن يبدأ بما يلبسها الشعار الديني، فليختر من الافتتاحات ما يكون فيه جدة، ليكون فيه إثارة للاهتمام، وتنشيط للأفهام، وليجتهد في ألا يبدو التكلف في افتتاحه وإلا ثقل على النفس كلامه، فيصعب عليه الوصول إلى غرضه.

(١) كان الخطباء في صدر الإسلام وفي العصر الأموى وفي العصر العباسي يفتتحون خطبهم بالحمد لله، وتعتبر الخطبة بتراء إذا لم تبدأ بذلك. وليس هذا المبدء عيبا كما توهم بعض الناس: لأن هذه الخطب كانت دينية بحتة أو تنحو منحى دينيا في جملتها، وكان الخطباء متدينين يتيمنون بذكر اسم الله سبحانه وتعالى، وبذلك يحيطون خطبتهم بسياج من الدين المحكم.

مهما يكن من أمر الافتتاح يجب:

١ – أن يكون قصيرا موجزا لكيلا يشغل الذهن بغير المطلوب، فينصرف عن المطلب الأول إلى ما هو بالمحل الثاني.

٢– وألا يكون مبتذلا تمجه الأسماع.

٣– وأن يكون موافقا للموضوع.

هذا ويلاحظ أن كثيرا من الخطباء لا يتجهون إلى افتتاح خاص لكلامهم أيا كان نوعه، بل يهجمون على المقصد، ولا ضير في ذلك؛ لأن الافتتاح ليس أمرا لازما للخطبة، ولكن إن جيء به يجب أن يلاحظ فيه ما بينا. وقد يسمي بعض الأدباء ذلك افتتاحا ساذجاً.

(ب) المقصد:

أن يذكر المتكلم في صدر كلامه الموضوع الذي سيتناوله إجمالا، من غير تفصيل، وذلك ليهيئ الأذهان لتلقيه. ويشعرهم برفق إلى ما سيقوله.

ولابد عند ذكر المقصد من ملاحظة ثلاثة أمور:

أحدها – أن يذكره في قضية عامة، لا يبنيها على مقدمات، لأنه لو بناها على مقدمات كان ذلك سياقا برهانيا، وهو أجدر بالإثبات منه بالمبادئ.

فمثلا إذا كان موضوعه الذي هو بصدد الكلام فيه الدعوة إلى تثبيت نظام. أو منع فوضى، قال: السلطان وازع الله في أرضه.

وإذا كان يريد الدفاع عن متهم ببيان أن أدلة الاتهام تحوم حولها الشبهات، يقول مثلا: المتهم بريء حتى يقوم الدليل على جنايته، وكل شك يكون في مصلحة المتهم، لا في مصلحة الاتهام.

وإذا كان يريد أن يخطب جمعاً يحثهم على إحياء القرآن الكريم بحفظه والعمل به، يقول مثلا: في القرآن نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم.

وفي كل هذا ترى الموضوع قد ذكر في قضية عامة.

وثانيها – أن يكون واضحا في الدلالة على الموضوع، لأنه إن لم يكن كذلك، لم يثمر ثمرته المرجوة، وألقى في نفس السامع روح التبرم، وكان ذلك طريقا لورود السأم إلى قلبه.

وثالثها – أن يلقي في جملة تثير خيال النفس، وتهزها، فتنشط إلى سماع ما يقال، وتهتز أوتار القلب بكل ما يجيء به الخطيب من معان، وعبارات جيدة محكمة.

ومن أبلغ المقدمات التي اشتملت على مقصد بليغ قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في إحدى خطبه التي يحث فيها على قتال العدو:

أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلة، وشمله البلاء، وألزمه الصغار، وسيم الخسف، ومنع النَّصف، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسراً وإعلانا إلخ.. إلخ[1].

هذا وليس بلازم أن يذكر المقصد دائما، بل قد يوجب المقام إهماله وذلك إذا أراد الخطيب أن يستدرج السامعين إلى ما يريد أن يأخذهم به ولو صرح لهم به لنأوا عنه. وأعرضوا بجانبهم، وقاطعوه، ففي مثل هذه الحال، يجب عليه أن يأخذهم في رفق إلى ما يريد، من غير أن يصرح بمقصده.

ألا ترى فيما ذكرنا في موقف أنتونيو في رواية يوليوس قيصر، لو صرح لهم بغرضه في أول الأمر، وهو بيان أن قتلته ظلمة. ما استطاع أن يتم خطبته، بل ربما مزقته الجماعة كل ممزق.

لذا نقول إن المقصد ليس بلازم ذكره في كل الأحوال، بل من الأحوال ما يجب فيها إخفاء الموضوع، حتى يبلغ الخطيب غايته، من تهيئة النفوس لتلقيه، إن كانوا عنه معرضين، وله غير متعتين، أو اضطر إلى أن يخاطبهم بغير ما يألفون.

(جـ) تقسيم الخطاب:

إذا كانت الخطبة واسعة الأطراف، مترامية النواحي، كثيرة الشعب، كان على الخطيب أن يجمع أشتاتها، ويضبط أجزاءها، ويقسمها تقسيما جامعاً لأطرافها وحواشيها، وذلك:

---

(١) قد تقدم بعضها وارجع إليها كاملة في كتاب البيان والتبيين جـ٢، ونهج البلاغة جـ١.

١ - ليجمع عناصرها عنصراً عنصراً، وتمييز أجزاؤها جزءاً جزءاً، فلا يكون فيها اضطراب ولا تهويش ولا شرود.

٢ - وليقف السامع على سياقها وترتيبها، فيكون على بينة منها، فيترقب كل جزء في موضعه، وذلك داع لانتباهه ويقظته وحرصه على الإدراك، والفهم بعد السماع والالتفات.

٣- ولكيلا يضيع جزء منها في مهب الاضطراب والطول واتساع أطراف الموضوع.

١ - ويجب على الخطيب أن يذكر الأقسام في صدر الخطبة في وضوح وجلاء وإيجاز.

٢- كما يجب أن تكون الأقسام جامعة لكل أطراف الخطبة، غير تاركة جزءاً من أجزائها.

٣- وأن تكون فيما بينها متباينة، بحيث لا يكون قسم داخلا في قسم آخر، حتى لا يكون اضطراب، وتهويش وتكرار من غير حاجة إليه، فيلقى في النفس سآمة وملالا.

٤- وأن تكون العلائق وثيقة بين الأجزاء، بحيث يكون كل جزء كالمترتب على سابقه، حتى لا تكون الخطبة مقطعة الأوصال، منفصمة العرا، غير حسنة الانسجام.

٥- وأن يشرح الأقسام بالترتيب الذي ذكره في صدرها، حتى لا يضطرب فكر السامع، ولكيلا يلبس عليه، ولكي يكون النظام محكما، فلا يكون تهويش، ولا خلل.

وأكثر ما يكون التقسيم في المرافعات القضائية، والخطب السياسية المطنبة، والشورية المسهبة كما ذكرنا، ومن المرافعات التي ذكر التقسيم الخطابي في أولها، مرافعة أحمد لطفي السيد «بك»، في الدفاع عن المتهمين في حادثة دنشواي، فقد قال في مقدمة دفاعه:

بعد أن سمعت المحكمة مرافعة زملائي، يكون مركزي حرجا، ومجالي ضيقا، وإني لا أخشى أن أقول الحق، وأحصر دفاعي في ثلاث كلمات: فالكلمة الأولى عن سبب الجريمة، والكلمة الثانية عن تطبيق القانون، والكلمة الثالثة في العقوبة، والطلبات وتقدير المسئولية. ثم أخذ يشرح تلك العناصر.

وإذا كان الخطيب في خطبته يرد على خطيب آخر، يحسن بالقدر الممكن أن يجعل الأقسام ذات اتصال بكلام الخصم وأقسام كلامه، ليتلاقى الرد مع قول الخصم، فيتضح النقض ويظهر التفنيد.

ومن أجود ما جاء في ذلك مرافعة المرحوم أحمد لطفي «بك» في الدفاع عن قاتل بطرس غالي «باشا» رئيس الوزارة المصرية الأسبق، فقد ذكر بعد افتتاحه ما يأتي:

تطلب النيابة معاقبة المتهم بمقتضى نص المادة ١٩٤ على اعتبار الفعل المسند إليه جريمة تامة، وتستند في ذلك على:

١ – أن المتهم مسئول قانونا عن وفاة المرحوم بطرس غالي «باشا»، سواء أكانت تلك الوفاة نتيجة مباشرة للإصابات التي أحدثها في جسم الفقيد، أم كانت نتيجة الصدمة الناتجة عن العملية.

٢ – وأن الإصابات المذكورة في الواقع هي التي أحدثت الوفاة مباشرة.

والدفاع يجيب عن التهمة بما يأتي:

(أ) أنه يجب لمسئولية المتهم عن جريمة القتل التام، أن تكون إصابة المتوفى أحدثت الوفاة مباشرة.

(ب) أن طريق إثبات العلاقة السببية بين الجروح وبين الوفاة لا يقوم إلا بطريق واحد، وهو الكشف الطبي الشرعي الذي يجب أن يعمل بطريق تشريح الجثة.

(جـ) أنه بالرغم من ذلك، لم يثبت من الأدلة التي أقامتها النيابة أن الإصابات المذكورة، سببت وفاة المرحوم بطرس «باشا» غالي، وأنها ما كانت نتيجة العملية، أو أي سبب آخر مجهول.

(د) أنه مهما كان وصف الجريمة قتلا، أو شروعاً في قتل، فإن المتهم أيضاً غير مسئول عنها، ويجب تبرئته منها، لأنه وقت ارتكاب الفعل لم يكن مالكا لقوة الإرادة والاختيار، فسبب عنه قتله.

لذلك يجب أن نتكلم عن كل هذه النقط ثم نأخذ في بيانها بإطناب ونرى من هذا كيف بنى أقسام كلامه على تفنيد كلام الخصم.

الإثبات

هو موضوع الخطبة وغرضها، إذ فيه تأييد القضية التي يدعو إليها بالدليل والدليل عمود الخطبة، وقطبها، وقد كان بعض الأقدمين من الفلاسفة يرى أنه لا يسوغ للخطيب أن يستعمل من وسائل الإقناع سواه، كما ذكر ابن سينا في الشفاء، ولكن الحق غير ذلك، كما علمت في الإقناع الخطابي الذي بيناه.

والإثبات قسمان: أحدهما شرح الأدلة التي يعتمد عليها الخطيب فيما يدعو إليه، وتوضيح القضية بضرب الأمثال ونحوها، ويسمى ذلك القسم تبيانا، والآخر هو إبطال حجج الخصم بما ينقض دعواه، ويسمى تفنيدا.

التبيان

(أ) الأقيسة الخطابية والمنطقية:

في التبيان يشرح الخطيب دعواه ويؤيدها بما يراه مثبتاً لها، مقيماً لأركانها، مثيرا الأفهام لإدراكها، وقد تكلمنا فيما مضى في طرق إثارة الأهواء، ومصادر الاستدلال. ونريد أن نتكلم هنا في وضع الأدلة وضعاً يلائم الخطابة، ويتفق مع الغرض المنشود منها، والمرمى المقصود.

ولا شك في أن وضع الأدلة الخطابية يخالف وضع الأدلة المنطقية، بعبارة أدق نقول: إن الأقيسة الخطابية لا تتفق مع الأقيسة المنطقية من كل الوجوه، ولا تتلاقى معها في كل النواحي:

١ – لأن الأقيسة المنطقية تتألف من قضيتين تسميان مقدمتين، ولابد أن تكون كلتاهما يقينية، بينما الأقيسة الخطابية أو الأساليب الخطابية لا تستلزم دائما ذكر المقدمتين، بل يكتفى في كثير من الأحيان بذكر إحدى المقدمتين، وتطوى الثانية لفهمها من فحوى الكلام، وروح الخطاب. ولا يلزم أن تكون مقدمتا القياس الخطابي يقينيتين، بل يكتفى في كثير من الأحيان بالظن الغالب أو العرف الشائع أو المشهور المستفيض أو من قول عرف بالحكمة والسداد، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فيما مضى.

٢- ولأن الأقيسة المنطقية، يكتفي في وضعها بذكر المقدمتين والنتيجة من غير أن يكسو المنطقي الكلام بأي طلاء يجعله لدى العاطفة مقبولا، بينما الأقيسة الخطابية لا يكتفى في وضعها بالملك، بل لابد من كساء من ألفاظ سهلة رشيقة، أو ضخمة فخمة، وضرب الأمثال، والتقريب والتوضيح، بالموازنات والمقايسات.

٣- وفى الجملة إن الأقيسة المنطقية مقيدة بأشكال ووجوه لا تعدوها، لكى تكون عصمة الذهن من الخطأ تامة، بينما الخطيب غير مقيد فى استدلاله بأشكال ووجوه، بل هو يتبع مواضع التأثير، ومخاطبة الوجدان والعاطفة، كما يتتبع الراعي مواضع الكلأ، ومنابت العشب، ومساقط الماء؛ ليغذى أرواح السامعين، كما يغذى هذا أبدان ما يرعاه.

والأمثلة على ذلك كثيرة، بل كل الخطب لا يخلو من أن تشتمل على أقيسة محللة من قيود الأشكال المنطقية. ولا ننكر أن التزام الشكل المنطقى فى بعض أجزاء الخطبة قد يكون مجملا لها، يعطيها رونق التحقيق، ويكون ذلك شيئا طريفا فى وسط التأثيرات الخطابية وأساليب البيان، ولكن ذلك لا يحسن إلا إذا كان المخاطبون ممن يدركون تلك المناحى، وممن يفهمون ذلك النوع من الخطاب، فإن لكل قوم قدراً من المعاني، ونوعا من الكلام.

وقد قال بشر بن المعتمر فى رسالته التى دفعها لإبراهيم السكوني، وهو يعلم الصبيان الخطابة:

ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار السامعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني، على أقدار المقامات.

وعلى كل حال يجب ألا يكثر ذلك فى الخطبة، فيسودها الجفاف، وتذهب الطرافة، وتنبو التعابير، وتبعد عن المألوف في حسن الخطاب، وتخرج الخطابة عن معناها، وطبيعتها، وعلى الخطيب إذا استعمل قياساً منطقياً فى خطبته أن يعقب عليه بتوضيح معناه بعبارات خطابية وعبارات موشاة توضح مبهمه، وترطب جفافه.

وأكثر ما تحسن الأشكال المنطقية فى مرافعات المحامين التى تتقيد بقيود وثيقة من مواد القانون، وتخريجاته وتطبيقه، ولا تحسن إلا بالشروط التى أسلفناها، ولابد أن تكون فى صدر الجزء الذى تتعلق به، أو فى ختامه.

فمثلا إذا كان المحامي يريد أن يثبت أن عقد بيع مزرعة كان صوريا، وأنه خرج مخرج الوصية، لأن الصفقة كبيرة، ولا يعرف للمشترى مصادر مالية، تناسب الثمن، ولأنه لم يدفع الضرائب عن المزرعة. بل دفعها البائع إلى أن مات، ولأنه لم يستوف أجرتها طول حياة البائع. ولأن البائع أب للمشترى– إذا أراد المحامي هذا الإثبات، قال في أول الكلام في هذا الجزء أو في آخره، المشترى ابن البائع، ووارث له بعد موته، وقد باعه تلك المزرعة الكبيرة بيعاً صورياً، يخرج مخرج الوصية شرعاً، وكل وصية للوارث لا تصح شرعاً إلا بإجازة الورثة، فهذا العقد لا يصح إلا بإجازة الورثة. ثم يأخذ في بيان ما يراه مثبتا لهاتين المقدمتين بأقيسة قد اختلطت فيها الحقائق بالأساليب الخطابية، هذا إذا ذكر ذلك القياس أولا. وإن أراد بذكره آخرا، شرح الحقائق على النحو الذى ذكرناه، ثم عقب به، فيكون ثمرة للشرح الذى سبقه. ويكون له وقع حسن في نفس القاضي ومجلس القضاء.

الأقيسة والأساليب الخطابية:

وإذا عرفنا الفرق بين الأقيسة المنطقية، والأقيسة الخطابية، وما يستحسن من المنطق فيها، والشروط التي يجب اتباعها عند وضع الأشكال المنطقية في الخطبة، إذا عرفنا ذلك، وجب أن نعرف الأوضاع الخطابية التي يسوق فيها الخطيب الأدلة على صحة دعواه، وبيان مرماه.

لذا نقول: إن للملك طرائق متشعبة، ومسالك متباينة، يشتقها الخطيب من حال الجماعة، ومن تجاربه الخاصة، ولذلك لا نستطيع لها إحصاء، فنكتفي بذكر بعض أوضاع شاع استعمالها في الاستدلال الخطابي.

(أ) الاستدراج:

بألا يفاجئ السامعين بالتصريح بما يعتقده كله، بل يشككهم فيما يعتقدون، وفيما يفعلون، أو يصرح لهم ببعض ما تنتجه براهينه، حتى إذا آنس منهم رشداً، وأدرك منهم ميلا خاطبهم بكل ما في نفسه، وقد يكتفى ببيان ذلك القدر، إن لم تكن النفوس قد تهيأت، والعقول قد استيقظت لإدراكه كله. والاستدراج باب خطابي واسع النطاق، وقد تصدى لشرحه بعض علماء الأدب العربي.

ولننقل لك ما كتبه فيه ابن الأثير في المثل السائر إذ جاء فيه:

هذا الباب قد استخرجته من كتاب الله تعالى، وهو من مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال، والكلام فيه وإن تضمن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حقق النظر فيه، علم أن مدار البلاغة كلها عليه، لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، والمعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها.

والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيرا في خلابه، لا قصيرا في خطابه... وقد ذكرت في هذا النوع ما يتعلم منه سلوك هذا الطريق، فمن ذلك قوله تعالى:

«وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذبا، فعليه كذبه، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب».

ما أجمل مأخذ هذا الكلام وألطفه فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم، فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا، فكذبه يعود عليه ولا يتعداه، أو يكون صادقا يصيبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له، وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف، ما أذكره لك فأقول: إنما قال يصيبكم بعض الذي يعدكم، وقد علم أنه نبي صادق، وأن كل ما يعدهم به لابد أن يصيبهم كله لابعضه، لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى عليه السلام، أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول، ويأتيهم من جهة المناصحة، ليكون أدعى إلى سكونهم إليه، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم إياه، فقال وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، وهو كلام المنصف، وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد به، لكنه أردف بقوله: يصبكم بعض الذي يعدكم، ليهضم بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا، فضلا عن أن يتعصب له. وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل كأنه برطلهم في صدر الكلام بما يزعمونه، لئلا ينفروا منه.

ومما يجري على هذا الأسلوب قوله تعالى:

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم، إنه كان صديقاً نبيا * إذ قال لأبيه ياأبت، لم تعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنك شيئا * ياأبت، إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك

فاتبعني أهدك صراطاً سوياً * يا أبت، لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن، فتكون للشيطان وليا ﴾.

هذا كلام يهز أعطاف السامعين، ثم أخذ يشرح الاستدراج في هذه الآية الكريمة، وهو واضح للمتأمل البصير.

ونرى من هذا كله كيف يتخذ الاستدراج طريقاً لإثبات المدعى، وذلك بأن يبدأ الخطيب في إلقاء الريب فيما عليه من يخاطبهم، ثم يلقى إليهم ببعض ما تنتجه الأدلة مغضيا النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التى تنتجها البراهين، حتى إذا اطمأن إلى أنه قد أخذ بزمام الجماعة، يقودها إلى حيث شاء، ألقى إليهم بالنتائج كلها لبراهينه. والاستدراج كما رأيت، يكون في المقامات الخطابية التي يكون الخطيب فيها متصدياً للدعوة لأمر لم تألفه الجماعة، أو لفكرة تناقض أمراً اتفقت عليه.

(ب) القصص:

قد يعمد الخطيب إلى وضع أدلته في شكل قصصي، فيذكر حال جماعة تشابه الجماعة التي يخاطبها، ويذكر ما يجرى بينها من مناقشات في الموضوع الذى يتكلم فيه، ويجرى الحجة على ما يدعو إليه على ألسنة الفريق الذى يدعو إلى الرشاد، وقد يذكر المعنى الذى يرمى إليه مصوراً في قصة فرضية، أو حقيقية، ليكون المعنى واضحاً مكشوفاً، كما كان يفعل الخطباء القصاص في العصر الأموى.

ومن أبلغ القصص الذى كان طريقاً منتجاً للاستدلال قصص الحسن البصرى، ومن أبلغه ما قاله في بيان أن الناس متساوون، لا فرق بين شريف ووضيع بعد الموت. فقد قال:

قدم علينا بشر بن مروان أخو الخليفة، وأمير المصريين، وأشب الناس، فلما صرنا به إلى الجبانة فإذا نحن بأربعة سودان، يحملون صاحباً لهم، فصلوا عليه، ثم حملنا بشرا إلى قبره، وحملوا صاحبهم إلى قبره، ودفنا بشرا، ودفنوا صاحبهم، ثم انصرفوا، وانصرفنا، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشى، فلم أر شيئاً قط كان أعجب منه.

انظر إليه قد بين مساواة الناس بعد الموت في ذلك القصص الواضح الذى يدفع إلى التسليم قسرا، وفيه من لطف الإشارة، وحسن التعريض ما يزيده جمالا، ويستغنى به عن كل استدلال.

ومن وضع الأدلة في وضع قصصي كل الأمثال الفرضية التي يذكر فيها قصص غير حقيقي، وتجرى حقائق على ألسنة الحيوان كما فعل ابن المقفع في كتابه كليلة ودمنة.

ومن ذلك النوع خطبة الإمام على رضي الله تعالى عنه التي ضرب فيها مثلاء الثور الأبيض، والأسود، والأحمر، وقد ذكرناها فيما مضى فارجع إليها.

(جـ) الأقيسة الإضمارية وذو الحدين والتمثيل والقلف:

قد يستعمل الخطيب تلك الأقيسة في خطبه لتلاؤمها مع الأغراض الخطابية، وأسلوب البيان، والحقائق التي يرمى إلى بيانها الخطيب، وتلك الأقيسة تؤدى بعض ما تؤديه الأقيسة المنطقية، ولا يضير ذكرها بعبارات البلغاء، ولا ينافي روعة الكلام.

وقد قال ابن سينا في الشفاء: الخطابة معولة على الضمير[1] والتمثيل. وقال في موضع آخر: إن الخطابة إنما تحذف الكبريات فيها، لأنها لو صرح بها لزال الإقناع.

١- القياس الإضماري:

والقياس الإضماري شائع الاستعمال في الخطب فإن أكثر الخطباء يعمدون في استدلالهم إلى طي بعض المقدمات، لأنها مفهومة من فحوى الكلام، وواضحة من لحنه.

ومن ذلك قول الإمام على بن أبي طالب في خطبته عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة.

إن في طاعة الإمام عصمة لأمركم. فأعطوه طاعتكم غير ملومة، ولا مستكره بها.

ونرى من هنا أن إحدى مقدمات القياس محذوفة، إذ لو وضع الكلام وضعاً منطقياً لقيل إن في طاعة الإمام عصمة لأمركم وكل ما اشتمل على عصمة أمركم يجب الأخذ به إلخ إلخ. ولا تكاد تجد خطبة تخلو من ذلك النوع من الحذف، إلا في النادر القليل.

٢- والقياس ذو الحدين:

أن يفرض في القضية فرضين، ويبين أن كلا منهما يؤدى إلى غايته، أو يثبت نقيض ما يدعو إليه خصمه، كما قال الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه في كتاب أرسله إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما:

---

(١) يقصد بذلك القياس الإضماري وهو ما حذفت فيه كبرى القياس.

قد علمتما أنكما ممن أرادني وبايعني، فإن كنتما بايعتماني طائعين فارجعا إلى الله، وتوبا من قريب، وإن كنتما بايعتماني كارهين، فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة، وإسراركما المعصية.

٣- التمثيل:

أن يقيس الأمر الذي يدعو إليه على أمر مسلم به عند الجماعة فيلحقه به في الحكم لجامع بين الأمرين، وكثيراً ما يكون ذلك في الخطابة، خصوصاً إذا أراد الخطيب أن يقرب ما يدعو إليه من المعروف لديها المألوف عندها، ومما جرى مجرى الاستدلال التمثيلي قول الإمام علي رضي الله عنه في شأن مبايعة المؤمنين لأبي بكر رضي الله عنهما:

لكن نبينا كان نبي رحمة، مرض أياما وليالي، فقدم أبا بكر على الصلاة، وهو يراني ويرى مكاني. فلما توفي رسول الله ﷺ رضيناه لأمر دنيانا، إذ رضيه رسول الله ﷺ لأمر ديننا، فسلمت عليه وبايعت، وسمعت، وأطعت.

٤- قياس الخلف:

وهو الذي يقصد فيه إثبات المطلوب بإبطال نقيضه كقوله تعالى: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون».

وكثيراً ما يتخذ ذلك وسيلة للإثبات ولإبطال دعاوى الخصوم في الخطب القضائية في دور المحاكم.

ومن ذلك مرافعة بعض وكلاء النائب العمومي في فرنسا، يطالب بإعدام متهم بالقتل، ودلل على ذلك بعد إثبات القتل، بإبطال كل طلب للتخفيف. فقال،

أيجوز لي– بعد ما أظهرته لحضراتكم من الظروف المشددة، أن أتحدث عن الظروف المخففة، ولو لمجرد الرد عليها، ظروف مخففة أين هي؟ أين مكانها؟ إني لا أرى فيما حولي إلا دما مهراقا؟ أتبحثون عنها في سوابق المتهم؟ فما أسوأها من سوابق، لقد نسي ما علمه له أهله من دروس حكيمة، ولم يصغ لنصائح والده، فقاده سوء الخلق لارتكاب الجرائم، أم تبحثون عنها في الباعث له على ارتكاب الجريمة؟ لقد قتل ليسرق، لقد أسال هذا الدم الغالي البريء، الذي لا ترده أموال الدنيا جميعها، ليكسب مقداراً حقيراً من المال، دراهم معدودة، أم تريدونها في الطريقة التي ارتكب بها جريمته؟ لقد ارتكبها بطريقة وحشية تقشعر من هولها الفطرة

الإنسانية، أم في وقفته أمام القضاء، وها هو ذا يقف لاموضع للندم في قلبه، ولا أثر للأسف في نفسه، يقذف في وجه القضاء بالأكذوبة تلو الأكذوبة غير هياب، ولا وجل.

هذا، ويجب على الخطيب في إيراد قضيته وتأييدها بدلائلها، أن يجعل كلامه متماسكا آخذاً بعضه بحجز بعض؛ بحيث تكون كل فكرة ممهدة لما تليها، منبثة عنها، أو مشيرة إليها، لأن الفكرة لا تعيش إلا مع أخواتها، أو مع ما يلائمها، فإن ذكرت من غير تمهيد، لم تستقر في النفس، ولم تمكن في القلب، وفوق ذلك لا يكون الكلام متسقاً في تركيبه، متساوقا في معانيه.

ولذلك يجب على الخطيب أن يلاحظ قانون تسلسل الأفكار ملاحظة تامة، ليستخدمه في إثارة أفكارهم، وتهيئتها لما يريد، فإن أثار خواطرهم نحو فكرة، ألقى إليهم فيها ما يرضي نهمتهم، وما يكون إجابة لطلبهم، فيستقر في النفس، لأنه يكون بيانا في وقت الحاجة إليه؛ فيتمكن في النفس أبلغ تمكن، ويثبت فيها أقوى ثبات.

التفنيد

هو أن يبين الخطيب بطلان مايدعيه الخصم

والتفنيد مقام خطير لا يناله إلا ذو البيان القوي الذي أوتي أكبر حظ من حضور البديهة، والعلم الغزير، والاستيلاء على أساليب القول، إذ هو جواب الخصم على ما يدعي من مذهب، وما يؤيد به دعواه من حجج، وهو إزالة تأثير حجج الخصم، وأثرها في نفوس السامعين، وقد قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: «إن الجوابات هي أصعب الكلام كله مركبا، وأعزه مطلباً، وأغمضه منصباً، وأضيقه مسلكا، لأن صاحبه يعمل ساجاة الفكرة، واستعمال القريحة، يروم في بديهته نقض ما أبرم القائل في رويته، فهو كمن أخذت عليه الفجاج، وسدت له المخارج، قد اعترض الأسنة واستهدف للمرامي لا يدري ما يقرع فيتأهب له، ولا ما يفجؤه من خصمه فيقرعه بمثله. ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام؛ فقاده بزمامه بعد أن رأى فيه، واحتفل، وجمع خواطره واجتهد، وترك الرأي يغب حتى يختمر... فلا يزال في نسج الكلام، واستشرافه؛ حتى إذا اطمأن شارده وسكن نافره، صك به خصمه جملة واحدة، ثم قيل له: أجب، ولا تخطئ، وأسرع، ولا تبطئ، فتراه بجواب من غير أناة ولا استعداد،يطبق المفاصل، وينفذ المقاتل، كما يرمي الجندل بالجندل، ويقرع الحديد بالحديد، فيحل به عراه،

وينقض به مزاعمه، ويكون جوابه على أكثر كلامه، كسحابة لبدت عجاجة، فلا شئ أفضل من الجواب الحاضر، ولا أعز من الخصم الألد الذى يقرع صاحبه، ويصرع منازعه بقول كمثل النار فى الحطب الجزل».

وللتفنيد حالان:

أحدهما : أن يتصدى لنقض براهين الخصم قبل أن يدلى بها، وذلك بأن يفند كل ما يتصوره دليلا لخصمه، ويفرض كل الفروض، ثم يهدمها فرضاً فرضاً، حتى لا يبقى أمر ثابتاً سوى دعواه، ويعمد إلى هذا بعد أن يشبع السامعين، بدلائل إيجابية، على صدق دعواه؛ ليكون التعقيب قطعاً لطريق الإثبات على الخصم، ومهاجمة له فى صميم استدلاله.

ثانيهما: أن يرد على الخصم بعد إلقاء أدلته، بأن يبين ما فيها من غلط وتلبيس، ويبطل ما يتجه إليه من نظر.

ومهما يكن وقت رده، يجب أن يكون هو متنبهاً إلى كل ما يعتمد عليه خصمه من دليل، وأن يكون فى رده عليه واضحاً. جاعلاً أن الغرض هو الوصول إلى الحق، لا الغلب والسبق، وألا يشرد عن موضع النزاع، ولا يحيد عن الاعتصام بآداب اللياقة وحسن الأخلاق.

وأوجه الرد على الخصوم متعددة مختلفة متباينة: منها إبطال مقدمة دليل خصمه، ومنها إقامة الدليل على نقيض دعواه، والموازنة بين الدليلين، وإثبات أن دليله أقوم قيلا، وأسد منهجا، ومنها المنع وعدم التسليم، وبيان أن لا دليل على ما يقول، ومنها الاستشهاد بالثقات على ما يقول.

وأقوم أساليب الرد أن يعمد عند تفنيد أدلة خصمه، بذكرها واضحة قوية الوضوح، ويحسن أن يضعها فى شكل قياس منطقى، لأن الأشكال المنطقية، يساعد وضعها على تزييف ما يراه الخصم، إن كان هناك موضع للتزييف، ثم يتجه عند نقضه إلى الأقيسة الخطابية، والأشكال المنطقية معاً، على النحو الذى أسلفناه فى البيان.

ومن أمثل الخطب المشتملة على تفنيد كلام الخصم فى نهوض استدلال مع الأدب الجم، والخطاب الرائق، ما جاء فى إحدى خطب المغفور له سعد «باشا» زغلول فى الجمعية التشريعية يرد على الحكومة فيما كانت تراه فى إنشاء الجماعات التعاونية، فقد قال: موضوعنا الذى نناقش فيه والذى استلفت إليه أنظار حضراتكم هو هذا، كيف تتكون شركات التعاون؟ هل تتكون بأمر من السلطة الإدارية، أو بدون أمر من هذه السلطة؟ ترى الحكومة

وجوب ألا توجد هذه الشركات إلا بأمر إداري، وترى اللجنة أنها توجد كسائر الشركات التي لا تحتاج في تكونها، إلا إلى العقود، ولكن لا يكون وجودها حجة على الغير، إلا إذا سجلت عقودها، بطريقة خاصة، وبحسب شروط خاصة. تقول الحكومة تأييداً لرأيها: إن الشركات في حاجة ضرورية إلى اقتراض المال، وكل شركة محتاجة إلى اقتراض، لا يمكنها الحصول عليه بفائدة معتدلة إلا بواسطتي؛ ويلزم كون شركات التعاون في حاجة إلى وساطتي هذه ألا توجد إلا بإذني، فلذا أنا أشترط وجود هذا الشرط. مقدمات غير مسلمة، ونتيجة باطلة، أما وجه بطلان المقدمة الأولى، وهي أن كل شركة في حاجة إلى اقتراض المال، فإن الذي نعلمه أن هناك كثيراً من الشركات مكتفية برءوس أموالها، وما تنتجه رؤوس الأموال هذه من الأرباح، بدون حاجة إلى الاقتراض، وهي مسألة بديهية، يعرفها الناس جميعاً. فلا تحتاج إلى دليل. وأما المقدمة الثانية وهي أن كل شركة تكون محتاجة إلى الاقتراض، لا يمكنها الحصول على المال بفائدة معتدلة، إلا من طريق الحكومة وتداخلها، فهي مجرد دعوى من الحكومة، قد ادعتها، ولم تقم الدليل عليها، ولا أظنها تستطيع ذلك، ومع ذلك فهي تريد أن تبني عليها أمراً مهما جداً، وهو أن يكون لها حق في أن تأذن للشركات بالوجود. ووجه بطلان هذه المقدمة أن الشركة مادامت قانونية، ومادامت حالتها تدعو إلى الاطمئنان، فلا يوجد مانع يمنع المصارف من إقراضها المال بتلك الفائدة المعتدلة.

وأما بطلان النتيجة فلأنه لا يلزم من كون شركات التعاون، تحتاج إلى وساطة الحكومة في الحصول على المال، ألا توجد إلا بإذنها، لأنه لا رابطة تربط مسألة الوساطة بمسألة الإذن، إذ من المعلوم أ: الشركة موجود معنوي له حقوق، وعليه واجبات، والوجود المعنوي كالموجود الحقيقي سواء بسواء، فكما أن الشخص الحقيقي لا يحتاج في وجوده لإذن من الحكومة، كذلك الشخص المعنوي، لا يحتاج في وجوده، إلى هذا الإذن منها، والحكومة لا يمكنها أن تقول: إن وجود هذه الشركات موقوف على إذني مادامت محتاجة إلى وساطتي في الحصول على المال. كما أنها لا يمكنها أن تقول: إن وجود هذا المولود في الحياة متوقف على إذني، مادام محتاجاً إلى الغذاء، والكساء، والرضاعة، والتربية. ثم يسترسل رحمه الله في تفنيد خطابي مجيد بعد ذلك التفنيد المنطقي المبين.

الخاتمة

هى آخر ما يلقيه الخطيب من خطبته، فلها الأثر الباقى الواضح، إذ هى آخر كلامه ذكراً، فكانت أعلقه بنفوسهم، وأكثره اتصالا بقلوبهم، فإن هى كان وقعها حسناً، انسحب ذلك على الخطبة حسناً، وإلا ساء الأثر وضاعت الغاية المنشودة، والأمل المرجو، والأمر المبغى، ولذلك يجب أن يكون فيها من جمال التعبير، وحسن الانسجام، وجودة المعنى، وإصابة الغرض، ولطف المقطع، وإحكامه، ما يبقى أحسن الآثار وأحكم الأفكار.

ويحسن أن تكون الخاتمة مشتملة على:

١ - موجز لما ألقاه، وتوضيح كامل لغايته ومرماه.

٢ - وأن تكون مثيرة للعاطفة فى الأمر الذى يريده الخطيب، فإن كان تهديداً وإنذاراً كان فيها أقواهما، وإن كان إثارة للحماسة، وحفزاً للهمم، ألقى فى الخاتمة أبلغ ما يثيرهما، وإن كان يريد من خطبته إثارة عاطفة الرحمة، أتى بأشد ما يثيرها فى خاتمة القول.

ومن أقوى الكلام الذى حسن اختتاما، قول على بن أبى طالب فى كتاب أرسله إلى معاوية يرد به على تهديده إياه: وأنا مرقل نحوك فى جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسربلين سربال الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، وقد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها فى أخيك وخالك، وجدك، وأهلك، وما هى من الظالمين ببعيد.

ومن أبلغ الاختتام ما قاله المرحوم سعد «باشا» زغلول مختتما إحدى خطبه التى قالها إثارة للحمية:

أيها المصريون، استمروا بكل همة وإقدام فى طريق استقلالكم، واحترام حقوقكم، وستلاقون فيه عقبات، فذللوها بحزمكم، وآلاماً فقاسوها بحسن احتمالكم، وستطلب منكم ضحايا فابذلوها بكرمكم، وسيقع عليكم ضغط شديد فقابلوه بهممكم العالية، وعزمكم الصادق، إذ كلما علت الهمم، وصدقت العزائم، هانت الخطوب، ودنت المنى، ونجح المسعى، وكان النجاح عظيما، وكلما كان ثمن الاستقلال غالياً، وأكلافه باهظة، حرصنا عليه بعد نيله، وكان علينا بركة، وعلى البلاد نعمة وسروراً.

التعبير

تكلمنا في الفصول السابقة في إيجاد المعاني الخطابية وتنسيقها، والآن نتكلم في طرق تأديتها، والتعبير عنها، والدلالة عليها، والألفاظ التي تناسبها، والأساليب التي تليق بها، وما يجب أن تكون عليه الخطبة في مناهجها، ومقاطعها؛ وفي الجملة نتكلم في الإنشاء الخطابي وما يجب أن يكون عليه.

١- قبل أن نخوض في الموضوع، يجب أن نشير إلى مسألة كتب فيها بعض الكتاب، وهي مكانة الألفاظ في الإنشاء، فإن بعض الأدباء الذين تأثروا ببعض الآداب الأوربية، وحاولوا أن يقتبسوا منها في كتاباتهم العربية أخذوا يبثون بين النشء، أن المعول عليه في الإنشاء المعنى، لا اللفظ، وأن المعنى المحكم لا يحتاج إلى اللفظ الجميل، لأن الجمال كله يرجع إلى المعنى، إذ هو مناط التقدير، وسبب التأثير، بل يذهب بهم فرط غلوهم إلى ادعاء أن تحسين اللفظ يذهب بجلال المعنى، وأن جودة الصقل تجعل على المعنى غشاء كثيفاً يمنعه من البروز والظهور، وقد صادفت فكرتهم هوى في نفوس بعض الكتاب، فخلت كتابتهم من الديباجة العربية، بل أسفَّت في بعض الأحيان إلى الابتذال، وبرودة الألفاظ، وخروج الأسلوب على المنهج العربي، وهم يعدون طريقتهم هي الطريقة المثلى.

وفي الحق أن ذلك شطط، وهضم لمكان الألفاظ في الدلالة والتأثير، ولعله كان محاربة لشطط آخر في جانب الألفاظ، فإنا قد ورثنا عن عصور ضعف اللغة العربية، عناية باللفظ لا بالمعنى، حتى جعلوا المعنى بالمحل الثاني، واللفظ المكان الأول، فكان الإنشاء ضجيج ألفاظ، وقعقعة عبارات، والمعنى تافه صغير.

٢- ولسلوك الجادة المستقيمة يجب أن نعطي المعنى حقه، واللفظ حقه، وأن نعرف أن الألفاظ هي التي تظهر المعاني، وتجملها وتبديها في رواء بهي. ويعتقد جوستاف لوبون أن شطراً كبيراً من تأثير قواد الجماعات، خطباء وكتاباً، يعود إلى الألفاظ التي يثيرون بها صوراً وآمالاً في نفوس الجماعات، وإن كانت في ذاتها معانيها مبهمة، غير محدودة ولا مضبوطة، فهو يقول: لبعض الألفاظ والجمل، سلطان لا يضعفه العقل، ولا يؤثر فيه الدليل، ألفاظ وجمل، ينطق بها المتكلم خاشعاً أمام الجماعات، فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين، وتعنو الوجوه له احتراماً، وكثيرون يعتقدون أن فيها قوة إلهية، ألفاظ وجمل تثير في

النفوس صوراً لا كيف لها، ولا انحصار، محفوفة بالإكبار والإعظام، إبهامها يزيد في قوتها الخفية. وإذا كانت هذه الألفاظ التي تثير صوراً مبهمة، غير معروفة بالتعيين، لها ذلك الأثر، فكيف يكون الشأن للمعنى المحكم قد كسى بلفظ جميل، وألقى في أسلوب منسجم، وعبارات تثير في النفس أخيلة وأماني وأحلاما.

٣- ويظهر أن المعركة قديمة بين أنصار الألفاظ، وأنصار المعاني، فإنا نرى في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري دعوة صارخة إلى العناية بالألفاظ، بجوار العناية بالمعنى، ويرد على من يرى أن العبرة في جودة الكلام إلى معانيه فقط؛ ويرى أن تفاوت البلغاء في البلاغة، ليس بإيراد المعاني بل بجودة الألفاظ وحسن سبكها، فيقول: ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ، أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الردئ من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه، على فضل قائله، وفهم منشئه. وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ، دون المعاني، وتوخي صواب المعنى أحسن من توخي هذه الأمور في الألفاظ.

ونرى أيضاً ابن الأثير يرد على من يزعم أن الألفاظ تتساوى في الحسن مادام المعنى واحدا فيقول في المثل السائر: ومن يبلغ به جهله إلى أن لا يفرق بين لفظ الغصن ولفظ العسلوج، وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل.. فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب، ولا يجاب بجواب، بل يترك وشأنه، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد، شوهاء الخلق، ذات عين محمرة، وشفة غليظة، كأنها كلوة، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل، وطرف كحيل، ومبسم كأنما نظم من أقاح، وطرة كأنها ليل على صباح، فإذا كان إنسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه، فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه. ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام؛ فإن هذا حاسة وهذا حاسة؛ ومن له أدنى تأمل يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة، كنغمة أوتار، وصوتا منكراً كصوت حمار، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجرى مجرى النغمات والطعوم.

٤- ومن هذا كله ترى أن تحسين اللفظ يجب أن يكون بجوار إحكام المعنى، وأنه لا غنى للمنشئ عن المعنى المحكم، لأنه عمود الكلام، والمقصد الأسمى، ولا عن اللفظ لأنه

بهاء القول، وزينته، غير أنه يجب أن يلاحظ المنشئ السذاجة، وأن يبدو التحسين طبيعياً من غير تكلف ظاهر، فيجتهد في تحسين اللفظ، ولكن يظهر به في مظهر الطبعي الذي لا تعمل فيه، لأن التكلف إن ظهر ثقل على النفس، وكان الكلام مستهجنا، وقد قال أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتابه نقد النثر: ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سمي سديدا، وكان العيب معها بعيدا، أن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سجيته، غير مستكره لطبيعته، ولا متكلف ما ليس في وسعه، فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجنه، وقبح موقعه، وحسبك من ذم التكلف أن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم، بالتبرؤ منه فقال تعالى: ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾.

فنحن وإن طالبنا المنشئ خطيباً أو كاتبا أن يعنى باللفظ، ويعمد إلى تجميله وتحسينه، فليس معنى ذلك أن يتكلف، ويبدو متكلفا، متشادقا متفيهقاً، بل معناه أن يجعل كلامه منسجما، متآخي النبرات، لا تنبو ألفاظه، ولا تتجافى عباراته، ولا يسف في أسلوبه إلى العامية.

الفرق بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي:

١ – لم يفرق كثيرون من النقاد الأقدمين بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي، فقدامة يعد البلاغة في الكتابة والخطابة واحدة، ولكنه يتساهل مع الخطيب المرتجل، ويغفر له هنات لا يغفرها للكاتب، ويروى قول عبد الله بن الأهتم: إني لست أعجب من رجل تكلم بين قوم، فأخطأ في كلامه، أو قصر عن حجته؛ لأن ذا الحجا، قد تناله الخجلة، ويدركه الحصر، ويعزب عنه القول. ولكن العجب ممن أخذ دواة وقرطاسا، وخلا بفكره وعقله، كيف يعزب عنه باب من أبواب الكلام يريده، أو وجه من وجوه المطالب يؤمه.

وأبو هلال العسكري يقول: واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لايلحقه وزن ولا تقفية. وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب، في السهولة والعذوبة، وكذا فواصل الخطب. مثل فواصل الرسالة. لافرق بينهما، إلا أن الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة.

٢ – والذي نراه ويراه كثيرون من الأدباء المحدثين، وبعض المتقدمين أن للكتابة إنشاء، وللخطابة إنشاء آخر؛ لأن الكاتب غير الخطيب، ويلاحظ في عبارات الثاني مالا يلاحظ في

عبارات الأول، فإن كلمات الخطيب يلاحظ فيها أمران لم يلاحظا في الكتابة: أحدهما أن الكلمات تمر على لسان الخطيب قبل أن يلقيها. وثانيهما أن لها أثرا في أذن السامع، ولجرسها وقع في نفسه؛ فالسامع للخطيب يذوق، ويسمع ويفهم ويلاحظ النطق. أما القارئ للكاتب، فينظر إلى استقامة الأسلوب. ويفقه المعنى فقط؛ ولذلك يجب أن تكون ألفاظ الخطبة سهلة النطق، لا يعثر اللسان في إبرازها، ولا تتزاحم حروفها؛ فلا تتقارب مخارجها، ولا تتباعد، وأن تكون ذات رنين خاص يهز أوتار النفس ويثير الشعور، ويجب أن تكون مقاطع الخطبة ذات وقع مؤثر، يلذ للسمع، ويجمل الكلام. أما الكتابة فلا يشترط في مقاطعها مثل ذلك الشرط، بل ربما لا يلاحظ أن يكون لها فواصل.

٣- وإن الكتابة قد تقيد بقيود المنطق، ولا تشتمل على ما يثير الشعور، ويوقظ الوجدان؛ كالمذكرات القانونية، وأشباهها، ولا يعد ذلك عيبا فيها؛ أما الأسلوب الخطابي، فإذا ذهب عنصر الشعور والوجدان منه، فقد أكبر خصائصه، وأعظم مزاياه.

٤- وإن التكرار والتفنن في التعبير عن المعنى بعبارات وأساليب مختلفة وسيلة من وسائل التأثير الخطابي، يتجه إليه الخطيب، فيكرر القضايا الكلية مرة مقررا، ومرة مستفهما، وأخرى مستنكرا، ومرة متهكما، وأخرى عاقدا بينها وبين سابق عرفانهم، وذلك كله من غير شك في غير المقامات التي لا تقتضي إيجازا، أما الكتابة فإن أكثر الإطناب فيها لا يكون على هذه الشاكلة، بل بالتحليل، والتفصيل، والاستقراء، ونحو ذلك.

٥- وإن الخطيب مأخوذ في إطنابه، وإيجازه بحال السامعين، من حيث قبولهم أو رفضهم، وإقبالهم، أو مللهم، فقد يشير إلى بعض العناصر إشارة، ويلم بها إلمامة، بينما يطنب في العناصر الأخرى، ويسهب في القول، لأن حال السامعين تقتضي ذلك. أما الكتابة، فيجب أن يوفي فيها الكاتب ما يكتب، بإيجاز أو بإطناب، لأن بين يديه الموضوع فقط، وليس كذلك الخطيب؛ إذ يلاحظ السامعين فيطنب أحيانا؛ ليرضي شهوتهم، وليستفز شعورهم، ويوجز، بل يشير إن اضطر إلى ذلك، فيبدو الخطبة بادي الرأي غير متناسبة الأجزاء، ولا متلائمة، ولكنها الحال هي التي اضطرته، وألجأته، والكاتب في فسحة هو وقارئه.

٦- هذا مجمل صغير يشير إلى ما بين الأسلوب الخطابي، والأسلوب الكتابي، من فروق، وقد يقول قائل: إن بعض الخصائص الخطابية نجدها في بعض الكتابات، ككتاب يرسله زعيم إلى أمته، أو مقال صحفي يكتبه الكاتب في صحيفة يحث فيه الأمة على فعل، ويدعوها

إليه، أو ينهاها عن أمر، ويبغضها فيه، ونحن نوافق القائل على ذلك؛ ونقول: إن الأسلوب الخطابي غالب في الخطابة، والكتابي غالب في الكتابة؛ وقد تستعير الكتابة من الخطابة أسلوبها، كما إذا كان الكاتب في مقام يشبه مقام الخطابة، كزعيم يخاطب أمته عن طريق الصحف إذا تعذر عليه خطابها عن طريق المشافهة، وقد يستعير الخطيب من الكتابة أسلوبها، ويكون ذلك موافقا لمقتضى الحال، كبعض المحامين الذين تستغرق مرافعاتهم الدفوع القانونية، والبحوث الاشتراعية. فمن الكتابة ما يكون خطابة، تنقصها المشافهة، ومن الخطب ما يكون كتابة ينقصها القلم.

وما دمنا في مقام التعبير عن الخطبة دون سواها فلنتجه إلى بيان الإنشاء الخطابي فضل بيان:

الإنشاء الخطابي

نريد في هذا الموضوع أن نتكلم في ألفاظ الخطبة، وأساليبها ومقاطعها، وما ينبغي أن يلاحظه الخطيب في كل منها.

الألفاظ:

نريد بالألفاظ الكلمات المفردة، وقبل أن نبين ألفاظ الخطبة نقول: إن بعض علماء النقد الأدبي، كعبد القاهر، أنكر أن تكون للكلمات فصاحة خاصة، وجعل الفصاحة والبلاغة خاصتين بالتركيب، ولا تتناولان المفرد، فهو يقول في دلائل الإعجاز: هل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها، لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافها قلقة ونابية ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك، من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق الثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها. وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿ **وقيل يا أرض، ابلعي ماءك، وياسماء، أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين** ﴾ فتجلى منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض

الحسن والشرف إلا حيث لاقت الأولى الثانية، والثالثة الرابعة، وهكذا، إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل ناتج ما بينها، وحصل من مجموعها. ثم يسترسل في تحليل أوجه البلاغة في الآية الكريمة.

وأكثر علماء البلاغة والنقد على أن للألفاظ فصاحة خاصة بمفردها وقد ذكرنا لك بعض مقالة ابن الأثير في هذا المقام آنفا؛ فارجع إليه. وبهذا الرأي نأخذ، وعليه نعتمد، وعلى ذلك نذكر بعض الأوصاف اللازمة للكلمات التي تتألف منها الخطابة، ولا نتعرض لما قاله علماء البلاغة في مقدمة علومها، من وصف للكلمة الفصيحة، فذلك يعم الكتابة، والخطابة، والشعر، وإنما نتعرض لما هو من خصائص مفردات الخطابة، وميزاتها، ولوازمها، وهي كثيرة منها:

١ – أن يكون اللفظ واضحاً مكشوفا وقريبا معروفا، من السهل إدراك معناه، والوصول إلى مرماه، لا يبعد عن مألوف السامعين، ولا يتناءى عن معروفهم، وإلا كان غريبا يعلو على مداركهم، ومن يفهمه منهم يحس بأنه غير إنسي، ويشبه أن يكون وحشياً؛ لأنه يعيش في غير بيئته، ويخاطب به غير أهله، وقد تكون الكلمة التي على هذه الشاكلة من العربية الصحيحة التي كانت شائعة عند العرب، ولكنها غير شائعة عند الجماعة التي يخاطبها، ولهذا تستهجن مخاطبتهم بها لأن الخطبة للتأثير فيهم، وإثارة وجدانهم، ولا يكون ذلك إلا بما هو مفهوم لهم، مأنوس الاستعمال عندهم.

٢ – ألا تكون الألفاظ مبتذلة أو مستقلة إلى درجة العامية، فيذهب رواء الخطبة، ويضيع جلال معانيها، كاستعمال لفظ أتمشم في موضع أرجو أو آمل، أو أطمع. وكاستعمال لفظ أفتكر في موضع أتفكر، أو أفكر، أو أتأمل، أو أتذكر، ونحو ذلك من الألفاظ العامية، أو المبتذلة القريبة منها، التي شاع استعمالها على ألسنة بعض خطبائنا خطأ؛ فعلى الخطيب أن يتقي ألفاظ الخطبة، من غير أن يغرب، فيبعد عن المفهوم المألوف، ومن غير أن ينزل فينطق بالمبتذل أو العامي. في حضرة من يفهم الفصحى. قال بشر بن المعتمر في وصاياه للخطيب: فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك، أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة، التي تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام.

٣ – وأن تكون في الخطبة ألفاظ مناسبة مثيرة لخيال الجماعة، موقظة لذكريات حية في نفوسهم، فإن كل جماعة عندها طائفة من الألفاظ، إذا ذكرت، أثارت خيالات تهز النفس

بالسرور والاطمئنان، أو بالسخط والغضب، كألفاظ الإخاء، والمساواة، والحرية، والديمقراطية، عند الثوار في الثورة الفرنسية؛ فإنها كانت تهزهم، كل عمل يربطه الخطيب بها يندفعون إليه، ويقدمون عليه، وعلى نقيض ذلك كانت ألفاظ الاستبداد، ونظام الطبقات، والباستيل، تهز النفس بالغضب وتثير فيها ذكريات مؤلمة، فإذا ذكر عمل مقرون بها نفروا منه، ونأوا عنه، وثار سخطهم على القائم به، وكذلك الشأن في كل الجماعات. والخطيب الماهر من يقبس من هذه الألفاظ في الخطبة، ما يكون له الأثر الكبير فيما يريد؛ ولكن يلاحظ أنه لا يحسن وجود هذه الألفاظ في الخطبة، إلا بشرطين: أحدهما الملاءمة التامة بينها، وبين ما يريد، فإذا كان يخطب في جماعة يحثهم على طلب الاستقلال السياسي أكثر من ذكر الألفاظ التي تثير الخيال في هذه الناحية، من مثل الكبرياء القومية، العزة الوطنية، الحرية السياسية، عار الاحتلال، ذلة الاستعباد- وإذا كان يخطب قوماً في الحث على أداء فريضة الحج، ذكر الحرم الشريف، ومقام إبراهيم، والبقيع، وزمزم، وغير هذا من تلك الأسماء التي تثير معاني عميقة الأثر، وإذا كان يخطب في الحث على الصوم ذكر قرب الصائم من ربه، والتجرد من ملاذ الحياة، ومشاركة نفس الصائم للمعاني القدسية، وغير ذلك من العبارات التي تثير الوجدان؛ وتوقظ في النفس معاني سامية، وليحذر الخطيب من أن يقحم في خطبته ألفاظاً تثير ذكريات غير ملائمة للموضوع؛ كأولئك الخطباء، الذين يقحمون كلمة الاستقلال في أكثر الموضوعات الخطابية، لأدنى ملابسة، ولأقل علاقة.

ثانيهما : ألا تكون تلك الألفاظ قد أبلاها الاستعمال، وذكرها يؤدي إلى الابتذال. فإذا لاحظ الخطيب ذينك الشرطين عند الاستعمال كان الأثر بليغاً، وقد قال العلامة جوستاف لوبون في بيان تأثير ذلك النوع من الألفاظ، وسببه : السر في تأثير الألفاظ للصور التي تحضر في الذهن بها، وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية، بل الغالب أن أشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماما، مثال ذلك كلمات: ديمقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية، وهكذا مما أبهم معناه ويحتاج في تعيينه إلى مؤلفات ضخمة، والجميع، يسلم أن لها سلطاناً ينساب في النفوس، كأنها اشتملت على حل للمسائل الاجتماعية كلها، وفيها تتمثل الأمال الباطنية على اختلافها، والأمل في تحقيقها.

٤- أن يختار الألفاظ الجزلة في مقامها، والرقيقة كذلك، ففي نحو التهديد والفخر، وإثارة الحمية، والحماسة، والحث على الجهاد، يختار الألفاظ الجزلة القوية، وفي نحو إظهار الأسى، والألم، يختار الرقيق من الألفاظ، وقد يتساءل الإنسان عن حقيقة الجزل، وحقيقة

الرقيق، فلا يجد تعريفا مميزا محصورا، لأن ذلك أمر يدركه ذو الذوق الأدبي، في نطقه، وفي جرسه، ووقعه في الأسماع والشعور، وقد بين ابن الأثير جزل الألفاظ ورقيقها من غير تعريف، فقال: لست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً، عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته في الفهم، ولذاذته في السمع، ولذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكا سفسافا، وإنما هو اللطيف الرقيق الناعم الملمس، وسأضرب لك مثالا للجزل من الألفاظ، والرقيق فأقول: انظر إلى قوارع الألفاظ عند ذكر الحساب، والعذاب، والميزان والصراط، وعند ذكر الموت، ومفارقة الدنيا، وما جرى هذا المجرى، فإنك لا ترى شيئا من وحشي الألفاظ، ولا متوعرا. ثم انظر إلى ذكر الرحمة، والرأفة والمغفرة. والملاطفات في خطاب الأنبياء، وخطاب التائبين والتائبين من العباد وما جرى هذا المجرى؛ فإنك لا ترى شيئا من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسافا، فمثال الأول وهو الجزل من الألفاظ قوله تعالى: ﴿ **ونفخ في الصور، فصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون ❀ وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ❀ ووفيت كل نفس ما عملت، وهو أعلم بما يفعلون ❀ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها، ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم، وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ❀ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ❀ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم، فادخلوها خالدين ❀ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض، نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين** ﴾. فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر المحشر على تفاصيل أحواله، وذكر النار والجنة، وانظر، هل فيها لفظة إلا وهي [illegible] مستعذبة، على ما بها من الجزالة، وكذلك ورد في قوله تعالى: ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم، وضل عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾. وأما المثال الثاني وهو الرقيق من الألفاظ فقوله تعالى في مخاطبة النبي ﷺ: ﴿ **والضحى ❀ والليل إذا سجى ❀ ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ إلى آخر السورة: وكذلك قوله تعالى في ترغيب المسألة: ﴿ **وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب، أجيب دعوة الداع، إذا دعان** ﴾؛ وهكذا ترى سبيل

القرآن الكريم في كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة. ويقول بعد كلام طويل: اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة، تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق، ولطافة مزاج، ولذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحترى، كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات، وقد تحلين بأصناف الحلي، وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته هاهنا، وجدتني قد دللتك على الطريق وضربت لك أمثالا مناسبة.

من هذا الكلام القيم نستطيع أن نتصور الألفاظ الجزلة، والألفاظ الرقيقة، وإن لم نحدها بتعريف جامع مانع، ويكفينا ذلك في هذا المقام، وعلى الخطيب أن يضع كل نوع منها في موضعه. فعندما يكون في حاجة إلى قرع الحس، وإثارته، يختار الجزل، وعندما يريد أن يمس شعور المخاطبين مساً رفيقاً، لأن المقام يقتضي ذلك، اختار رقيق الألفاظ، ولينها، ومن ذلك خطبة المغفور له سعد زغلول في حفل الطلبة التي ذكرناها.

ومن الكلام الجزل القوى قول الشعبي معتذراً عن اشتراكه في فتنة ابن الأشعث: أجدب الجناب، وأحزن بنا المنزل. واستحلسنا الحلم واكتحلنا السهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء.

الأسلوب:

لا نتكلم هنا على الأسلوب من حيث التقديم والتأخير، والفصل والوصل، وغير ذلك، مما عنيت به علوم البلاغة، وإنما نتكلم هنا في الأوصاف التي هي خاصة بالأسلوب الخطابي أو ضرورية له وهي كثيرة منها:

١ – التصرف في فنون القول، بأن تتعاقب على المعنى أو المعاني ضروب مختلفة من التعابير، من تقرير، إلى تعجب، إلى تهكم، إلى نفي، لكي يكسب كلامه جدة، ولئلا يذهب نشاط السامعين، ويعتريهم السأم والملال، وذلك لا يكون إلا في حال تكرار المعاني، وقد بينا منزلة التكرار في تثبيت الأفكار، وإيقاظ المشاعر، وتقرير الحقائق، وحمل النفس على الاطمئنان إليها، فيكرر بأساليب مختلفة، واللغة العربية ثرية بالألفاظ، متشعبة الأساليب، وفيها من طرائق الحقيقة والتشبيه، والاستعارة والمجاز، ما يسد الحاجة، ويمد الخطيب بما يحتاج إليه من فنون القول، وأنواع التعبير.

٢- حسن التآلف بين الكلمات، وتآخي النغم، بحيث تنحدر الكلمات على اللسان في يسر وسهولة، ويحسن وقعها في الأسماع، فلا تكون واحدة منها نابية عن أخواتها، أو ساكنة في غير مستقرها، فتكون قلقة في النطق، وثقيلة على السمع. وقد ذكر ابن الأثير أن من نظم الكلام أن تكون كل كلمة مع أختها المشاكلة لها، لئلا يكون الكلام قلقا نافرا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم، في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها.

٣- تنوع الأسلوب بتنوع المقامات، وبتنوع أحوال السامعين، وبمراعاة من الخطيب، ومنصبه، وعمله، وما يليق صدوره عنه، ومالا يليق، فلكل مقام نوع من الأساليب، ففي مقام التحميس والتهديد تختار الأساليب الفخمة، والعبارات الضخمة، وفي بعض مقامات التأبين، وإظهار الألم والأسى تختار العبارات السهلة الرقيقة المؤثرة، ولكل قوم خطاب، فالعامة تختار لهم العبارات الساذجة حتى لا تعلو على أفهامهم، ولا تسمو على مداركهم، والعلماء يخاطبون بعبارات منتقاة دقيقة محكمة، ويحلى الكلام ببعض الأساليب المنطقية، والمتدينون يستشهدهم بشواهد من الدين، ويحلى الكلام بمقتبسات من الكتب المنزلة، والذين شغفوا بآثار الأقدمين يرطب الكلام ببعض أمثالهم، وقصصهم، وحكمهم، والمأثور عنهم. ولكل خطيب عبارات تستحسن منه، فمن الخطباء من لا يجمل منهم الهزل، ولا يليق بهم إلا الجد، فلا يصح أن يكون في كلامهم إلا ما هو مقبول منهم، ومن الخطباء من يجمل خطبهم بعض المداعبات؛ فيحسن أن يكون ذلك منهم بقدر محدود؛ ليستروح به السامعون، فيستجمعوا نشاطهم، ويبعد سأمهم، وهكذا يجب على الخطيب أن يلاحظ في أسلوبه وعباراته أحوال السامعين، وما يقتضيه المقام، وما يحسن منه، ومالا يحسن.

٤- تجميل الكلام في بعض الأحوال بسجع قليل غير بادي التكلف، قصير الفقرات، وقد وجد للسجع قديما وحديثا أولياء وأعداء، فقوم تعصبوا له، وآخرون تعصبوا عليه، وممن تعصبوا للسجع ابن الأثير وأبو هلال العسكري وغيرهما. وابن الأثير يعد من ذمه عاجزا عنه، ويقول فيما يحسن في السجع: ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة، ولا باردة، وأعني بقولي غثة باردة، أن صاحبها يصرف نفسه، إلى السجع نفسه، من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها، وما يشترط له من الحسن، وهو في الذي يأتي من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من

الكرسف، أو ينظم عقداً من الخزف الملون، وهذا مقام تزل عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد. ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا، فإذا صفا الكلام المسجوع من الغثاثة، فإن وراء ذلك مطلوباً آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه، ويكون مثله كغمد من ذهب، على نصل من خشب.

هذا كلام واضح قيم، ولكن بعض كتاب العصر الحاضر يستحسنون الاسترسال في الكتابة والخطابة، والتحرر من تلك القيود اللفظية منعاً لضجة الألفاظ، وإيثاراً للسذاجة في التعبير، وابتعاداً عن كل وسائل التزيين، وهم لذلك يستهجنون السجع في الكتابة والخطابة معاً.

والحق عندي أن السجع في ذاته حسن، وقد عرف حلية في اللغة العربية، قديمها وحديثها، ولكل لغة مستحسنات ومناهج، تأخذ منها روحانيتها، وقوة تأثيرها، ولذلك لا أرى ما يمنع من اتخاذ بعض السجع في الخطابة بشرط ألا يظهر التكلف، وإلا ثقل، وضعف تأثيره، وبشرط أن يكون قليلا، لأنه حلية، والحلية لا تجمل إلا إذا كانت بقدر معلوم، إذا زادت عنه ثقلت، وسترت المحاسن، فكانت عيبا وشينا. فالخطيب إذا أخذ من السجع ذلك القدر في خطبته، حسنت، وخصوصاً إذا كانت في قوم يؤثر ذلك النحو من الكلام كعامة مصر. فإن الكلام الموسيقي المسجوع يهز نفوسهم، واعتبر ذلك بأمثالهم وحكمهم، فإنك تجد السجع أبين أوصافها.

غير أنه يجب أن يلاحظ أن السجع لا يليق في بعض الخطب كالمرافعات القانونية، فإنها لا يحسن فيها إلا الحقائق عارية، وحسبها جمالا أنها حقائق، وليكتف من وسائل التأثير بجودة التعبير، وحسن الإلقاء، وإحكام الفكر، والإتيان إلى القلوب من ناحية ما يؤثر فيها.

المقاطع:

يجب أن يختار الخطيب المقاطع التي يقف عليها، بحيث يكون وقوفه عند نهاية جزء تام من المعنى الذي يريده، وبأن يكون المقطع ذا رنين قوي، يملأ النفس، ويوجهها نحو الغرض الذي يريده الخطيب، وقد وفاه أبو هلال العسكري في الصناعتين بحثاً واستشهاداً، فقد جاء فيه: قال الأحنف بن قيس: ما رأيت رجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده، إلا عمرو بن العاص، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، وأعطى حق المقام، وغاص

فى استخراج المعنى بألطف مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين تبعته من الألفاظ. قال معاوية لعمرو بن سعيد: بأشدق قم عند قروم العرب، فسل لسانك، وجل فى ميادين البلاغة، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال، فإنى شهدت رسول الله ﷺ أملى على على بن أبى طالب رضى الله عنه كتابا، وكان يتفقد مقاطع الكلام. ولما أقام أبو جعفر صالحاً خطيباً بحضرة شبيب، قال: ياأمير المؤمنين ما رأيت كاليوم أبين بيانا، ولا أربط جنانا، ولا أفصح لسانا، ولا أبل ريقاً، ولا أغمض عروقا، ولا أحسن طريقا، إلا أن الجواد عسير لم يرض؛ فحملته القوة على تعسف الآكام وخبطها، وترك الطريق اللاحب، وأيم الله لو عرف فى خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من نطق بلسان.

من هذا كله نرى أن مقاطع الكلام كانت غرضاً يطلبه المجيدون من البلغاء والخطباء؛ لأن حسنه يجعل المعنى لدى السامع واضحاً، والرنين مؤثراً، والوقف جميلا. ويجعل الإلقاء أبلغ تجميل.

خاتمة فى الكلام فى التعبير:

قبل أن نترك الكلام فى التعبير الخطابى ومناهجه. ننقل إليك صحيفة قيمة أعطاها بشر ابن المعتمر المعتزلى إبراهيم بن مخرمة السكونى، وفيها كلام جيد فى الأسلوب الخطابى، والمعانى الخطابية، وها هى ذى كما رواها الجاحظ فى البيان والتبيين:

مر بشر بن المعتمر، على إبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد، أو ليكون رجلا من النظارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحاً، واطووا عنه كشحاً، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان فيها ذلك الكلام: خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك؛ فإن تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن فى الأسماع، وأحلى فى الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف، ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون كلامك مقبولا قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه، وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراد معنى كريما، فليلتمس له لفظاً كريماً؛ فإن حق

المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما، ويهجنهما، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما، وقضاء حقهما، وكن في ثلاث منازل فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهراً مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة، إن كنت للخاصة قصدت. وإما عند العامة إن كنت عند العامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك، ولا تعتريك، ولا تسنح لك عند أول نظرك، وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها، وفي نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد، وإن أنت تكلفتهما، ولم تكن حاذقا مطبوعا، ولا محكما لسانك؛ بصيراً بما عليك أو مالك. عابك من أنت أقل عيباً منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك؛ فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعصى عليك بعد إجالة الفكرة؛ فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك، أو سواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك؛ فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، وأجريت من الصناعة على عرق.

فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك فإنك لم تشتهه ولم تنزع إليه، إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات، لأن النفوس لا تجود بمكنونها إلا مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع المحبة والشهوة؛ فهكذا هذا.

الأداء

قد شرحنا في الفصول السابقة إيجاد الخطبة، وتنسيقها، والتعبير عنها، وهنا نتكلم عن طرق أدائها، والحال التي يكون عليها الخطيب عند مخاطبته الجمهور، وما يتخذه في تهيئتها، فسنتكلم إذن عن طريق تحضير الخطبة، ومواضع الارتجال، وعن الوقفة الخطابية، وعن النطق الحسن الذي يليق بالخطابة، وعن الصوت، وعن الإشارات.

التهيئة

إن الخطيب يلقي خطبته إما بعد تحضير وإعداد، وإما على البديهة والارتجال، ولكل مواضع ومحاسن، فالتحضير يحسن بل يكون لازماً:

١- إذا كانت معلوماته في الموضوع الذي هو بصدد القول فيه لا تسمح له بالقول على البداهة، وإن تكلم قال كلاماً مبتسراً لا يقيم حقاً، ولا يخفض باطلا ولا يجلب نفساً ولا ينفر من أمر؛ فهو يدرس الموضوع من كل نواحيه، ويقتله بحثاً ودرساً، ليستطيع أن يدلي فيه بحجته فيصيب الحز، ويدرك الشأو، وينال السبق.

٢- وكذلك يعمد إلى التحضير إذا كانت عنده فسحة من الوقت يستطيع فيها أن يبدئ ويعيد، وأن يتثبت فيما يقول، ويختار لمعانيه أجود الألفاظ، ويتجه إلى أقرب الطرق التي يصل منها إلى النفوس، ويهز بها أوتار القلوب هزا رفيقا، أو عنيفا كما يريد.

٣- ويعمد إلى التحضير أيضاً إذا كان بين قوم يتسقطون هفواته، ويتتبعون سقطاته، يحصونها عليه إحصاء، ويحاسبونه عليها حسابا عسيرا؛ فهو يتقدم إليهم بسلاح التحقيق، مستنداً على متكأ من الحقائق؛ فلا يسقط إن حاولوا أن يأخذوا عليه ما يسقط، ولا يعثر، ولا يزل، ولا تنزلق قدمه في مزالق الخطر، ومداحض الزلل، ولذلك كان أكثر خطباء اليونان والرومان يهيئون خطبهم قبل إلقائها، ولا يجرؤ واحد منهم مهما تكن ثقته بنفسه قوية، ومهما يكن صيته ذائعاً، ومعروفا باللسن والبيان، على الوقوف من غير سابقة تحضير، وإلمام تام بما يقول، خشية أن يأخذ عليه النقاد شيئاً، أو يسقط بين أيديهم سقطة تذهب برواء قوله، وحسن مذهبه، وما يدعو إليه، وكان المغفور له سعد زغلول «باشا» مع قدرته على الارتجال وعظيم إلمامه بما يقول، يكتب خطبه، إذا كانت رسمية أو شبه رسمية، حتى لا يسبق لسانه تحت تأثير الحماسة، إلى ما لا يريد أن يقيد نفسه به.

ولا يتوهمن متوهم أن في تحضير الخطبة، ما يعيب مقدرته، فإن العيب أن يقول كلاما مبتذلا لاقيمة له، ومعناه تافه صغير، ولتكن له أسوة حسنة في كثير من كبار الخطباء[١] الأقدمين، والمحدثين، فإن كثيرين منهم مع قدرتهم التامة على الارتجال يأخذون للموقف الأهبة، ويعدون له العدة، عالمين بأن الخطيب كالمجاهد، لا يخوض غمار الحرب، من غير أن يدرع بدروعها، ويتترس بتروسها، ويلبس لها لأمتها، ويتخذ لها شكتها، وليس ذلك في الخطيب إلا بالتحضير والتهيئة، والاستعداد للموقف من كل نواحيه، وإن الذي يتعرض للخطبة من غير سابق تحضير، ولاتهيئة، ولم يكن ذا إلمام سابق بالموضوع يجيء كلامه ضعيفا في معناه، ومبناه. بل إن ذا الاطلاع الواسع، والعلم الغزير مما يقول إن لم يراجع نفسه آنا بعد آن، ويفكر طويلا فيما يعتزم قوله وقتاً بعد آخر، يضعف أسلوبه الخطابي، وتلين عباراته، وينحدر إلى مهوى من الابتذال سحيق، وتتجه معانيه اتجاهاً سطحياً، وتفقد قوة التأثير في المشاعر والأهواء.

طرق التحضير

وطرق التحضير كثيرة متشعبة ١ – فمن الخطباء من يكتفي في تحضيره بدراسة الموضوع دراسة تامة، ثم جمع عناصره في خاطره، وترتيبها بينه وبين نفسه، ويستحضر الألفاظ اللائقة

---

(١) جاء في كتاب القديم والحديث للأستاذ الباحث محمد كرد علي (طالما عاب شيشرون خطبه وتمرن على إلقائها حتى أنه في سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على الإلقاء، وكان القدماء يعلقون شأناً عظيما على الإلقاء في المجالس العامة، حتى لقد أفرط شيشرون في قوله أن الخطاب العام، يتطلب تعبيرات لطيفة منتقاة، بيد أن كثيرين من خطباء اللاتين. وقدماء خطباء اليونان كانوا لا يحفلون بإعداد خطبهم، ويظهر أن هورتنسيوس وهو أستاذ شيشرون لم يكن موافقا لتلميذه على قضاياه، وهورتنسيوس هذا كان على جانب من الذكاء وحسن الذاكرة بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه.

وكانت طريقة القائد الخطيب الروماني (كاليا) غريبة في بابها فكان ينقطع في داره مع خدامه عندما يريد أن يلقي دفاعاً، ويلقي عليهم تمرنا نفسه فيما يريد أن يخوض عبابه، ويخرج من الغد في حالة هياج خارقة للعادة وعيناه تقدحان شرراً وهو في أشد أحوال التحمس، يعبث بيده في الهواء، ويذهب إلى ميدان الفوروم. واعتاد بعض الشبان الخطباء من الرومان، أن يأتوا إلى المحكمة بدفاعهم مكتوبا على الورق، وكان كنتليان من أساتذة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى أن يتقيد الخطباء في إعداد ما سيتلون، لا سيما المبتدئ، ويرى أن الارتجال لا يتأتى للمرء إلا في أواخر عمره، بعد أن يذوق الأمرين في صناعة الخطابة، ويعرف حلوها ومرها، ولم يكن في عهده، وهو القرن الأول للمسيح، سوى خطيبين مرتجلين هما بورسيوس لاترو وكاسيوس. وما عداهما كانوا ككل الناس يعدون خطبهم قبل إلقائها... ولما جاءت الثورة الفرنسية اضطر أرباب السياسة إلى الارتجال فأخذوا يخطبون قومهم بدون أن يستعدوا، لم ترتق الخطابة عندهم في الكليات، والمحاكم، والمجالس، حتى قال موريس آجام: ما من شيء يضاد الارتقاء في الخطابة أكثر من إعدادها بالكتابة قبل الإلقاء.

بالمقام، والعبارات الجديرة بالموضوع، وهذه طريقة لا يتبعها إلا المتمرن على المواقف الخطابية الذى اندرج فى سلك الخطباء، وكثير من الأدباء يعد الخطبة التى تحضر، وتلقى على هذه الشاكلة مرتجلة، ولكنا نرى الارتجال أن تقال الخطبة على البداهة، من غير أى تحضير للموقف سابق[1].

ويظهر أن تحضير خطباء العرب كان على هذه الشاكلة. ومن ذلك ماجاء فى أخبار يوم السقيفة، عندما اختلف المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم فى أمر الخلافة، فقد قال عمر رضى الله عنه فى وصف حاله عندما اشتد الخلاف بين الفريقين: فأردت أن أتكلم وكنت زورت كلاماً فى نفسى، فقال أبو بكر على رسلك ياعمر، فما ترك كلمة كنت زورتها فى نفسى إلا تكلم بهاء، وهذا يدل أن تزويرهم الخطبة وتحضيرها، إنما كان فى الجنان، وفى النفس. ويدل من جهة ثانية، على أن تحضير الكلام فى النفس وتزويره، والاستعداد للموقف قبل الكلام، لا يعد من قبيل الارتجال، والقول على البديهةفإن الفرق بين المرتبتين واضح جلى.

٢- ومن الخطباء من يدرس الموضوع ويهيئ معانى الخطبة. ويرتبها ترتيباً محكماً، ثم يكتب عناصرها وأجزاءها فى مذكرة يستصحبها عند الخطبة لتكون مرجعاً له وضابطاً، وليحفظ المعانى والأفكار من أن تضيع بضلال الذاكرة، وذلك النوع من الخطباء كثير، وفى الأخذ بهذه الطريقة مزايا كثيرة، لما فيها من ضبط للأفكار وجمع للخواطر، وإحكام للمعانى، وهى كسابقتها لا يتجه إليها إلا الخطباء الذين مرنوا على القول، وعرفوا مقاتله، ومواضيع التأثير فيه، وأصبحت لهم طرق خاصة فى الإلقاء، يتجهون إليها من غير قصد، بل بمقتضى الإلف والاعتياد. ولكن تمتاز عن سابقتها:(أ) بأنها تفيد ضعيف الذاكرة، ولا يحتاج إليها قوى الذاكرة، لأنه ليس فى حاجة إلى كتابة العناصر، وضبطها فى القرطاس، إذ هى فى وعيه وخاطره. (ب) وبأنها تحسن إذا كانت الخطبة طويلة جمعاً لأشتاتها، ولكيلا يقع فى التكرار الممل.

٣- ومن الخطباء من يطلع على الموضوع، ويدرسه بعناية، ثم يتكلم فيه بينه وبين نفسه بصوت مرتفع فى غرفة قد انفرد فيها، أو فى مكان خلوى، أو يتكلم على بعض الناس، ومثل

---

(١) جاء فى كتاب القديم والحديث للأستاذ محمد كرد على. كان فيرو من أعظم من وجد من رجال العلماء. كان يفكر طويلا فيما يريد أن يلقيه ويتأمله فلم يكن ممن يعتمد على الكتابة.

ذلك النوع من الخطباء مثل المطربين، إذ يلحنون القطع التي هم بصدد ترتيلها، والتغريد بها في وسط الناس، ويتمرنون على ذلك أمداً غير قصير حتى تستقيم لهم النغمات، فكذلك هذا النوع من الخطباء، وقد كان كذلك «كاليا» الخطيب الروماني. وكان فرنيو وتيرس من خطباء الفرنسيين يحفظان أصحابهما في موضوع خطبهما قبل إلقائها. وعندي أن هذه الطريقة يعمد إليها من يريد أن يربي في نفسه طريقة إلقاء خاصة يمرن عليها حتى تصير له ملكة، وعادة.

٤ – ومن الخطباء من يكتب الخطبة، ويتحرى في الكتابة أبلغ الأساليب التي توصله إلى غايته، وتؤدي به إلى ما يريد، ويحكم معانيها، ويحملها كل ما يغني من وسائل التأثير، وطرق الإقناع التي يصوبها نحو هدفه، ويرمي بها إلى غرضه. وبعد الكتابة يقرأ ما كتب مراراً وينقحه في كل مرة. وبهذه القراءة التي يتحرى بها جودة الإلقاء وحسن النطق، تعلق معاني الخطبة مرتبة الترتيب التام بذاكرته، ويحفظ كثيراً من ألفاظها وعباراتها، وهذه الطريقة يتبعها كثير من المحامين في القضايا ذات الشأن التي تحتاج إلى تحضير كبير، وجمع لعدة نصوص قانونية، أو عبارات جاءت على ألسنة الشهود، وقد شاهدت المحامين الذين ترافعوا في قضايا القنابل التي نظرت في سنة ١٩٣٢ أمام محكمة الجنايات المصرية بين أيديهم مرافعاتهم مكتوبة، ولكنهم يلقونها من غير أن يقرءوا ما كتبوا، فلا يتركون صغيرة ولا كبيرة، ويجيء على ألسنتهم كثير من العبارات التي ساقوها فيما كتبوا.

٥ – ومن الخطباء من يكتبون خطبهم، ويحسنون تحبيرها، ثم يحفظونها حفظاً تاماً، ومنهم من يتحلل أحياناً مما حفظ، إن وجد المقام يدفعه إلى غيره، كما كان يفعل أرول دي ميشل من خطباء الثورة الفرنسية، يكتب ويحفظ خطبه، ويغير عند الإلقاء، ويعمل بقول فولتير: إن الألفاظ بريد الأفكار. ومنهم من يكتب ويحفظ بدون أن يغير شيئاً كما كان يفعل فيكتور هوجو، فقد كان يكتب خطبه ويستظهرها، وكثيرا ما كان يقول: لا يستطيع المرء أن يكون خطيبا إلا إذا كتب خطبته، وتلك الطريقة يتبعها أكثر المبتدئين في الخطابة.

٦ – ومن الناس من يكتب الخطبة، ثم يلقيها بالقراءة في القرطاس الذي كتبها فيه، وأكثر المحاضرين في موضوعات علمية في مصر على هذه الطريقة، ويحسن لمن يسلك ذلك المسلك سواء أكان خطيباً أم محاضراً أن يقرأ ما كتب قراءة جيدة قبل إلقائه، وعند الإلقاء يجتهد في أن يلقي بعض المحاضرة أو الخطبة من غير المكتوب، ليكون في ذلك تجديد في الإلقاء، وأن يكون في قراءته مشرفاً على السامعين بنظره وقتاً بعد آخر، لتتصل روحه بأرواحهم، وليعرف أحوالهم، وذلك يتيسر له بالقراءة الجيدة المكررة قبل الإلقاء، إذ تمكنه هذه عند الإلقاء

من أن ينظر في القرطاس عند قوله، وأشرف به على السامعين، وهكذا يفعل في كل أجزاء الحاضرة أو الخطبة.

والطريقة المثلى لطالب الخطابة:

١- أن يبتدئ بكتابة الخطبة وحفظها وإلقائها كما حفظ، ثم يأخذ نفسه بالتغيير شيئاً فشيئاً فيما حفظ حتى إذا شدا في الخطابة، وتقدم في المران عليها، كتب الخطبة، وعنى بأن تعلق كل معانيها بقلبه، وأكثر ألفاظها بذاكرته، ثم يتقدم لإلقائها، وقد تحصن بذلك التحضير، فإذا صارت له الخطابة ملكة، وعد في صفوف الخطباء، اكتفى بدراسة الموضوع دراسة وافية، ثم كتب العناصر، أو لم يكتبها إن أسعفته ذاكرة قوية، أو كانت الخطبة قصيرة، لا عناصر لها، وألقى الخطبة مكتفياً بذلك التحضير الذى يعد أقل أنواعه كلفة؛ ولا يكتفى به إلا أعظم الخطباء قدرة.

الارتجال

١- وإذا كنا قد أوجبنا التحضير والتهيئة؛ فليس معنى ذلك أن الخطيب لا يحتاج إلى الارتجال؛ إذ القدرة على الارتجال ألزم الصفات للخطيب؛ بل لا يعد الخطيب في نظرى في صف الخطباء الممتازين إلا إذا كان من القادرين عليه؛ الذين لا يفرق الإنسان بين أسلوبهم المرتجل، وأسلوب خطبهم المحضرة.

إن حاجة الخطيب إلى الارتجال لواضحة، فقد يحضر الخطيب، ثم يرى من وجوه السامعين، وحالهم ما يحمله على اتجاه آخر، فإن لم تسعفه بديهة حاضرة، وخاطر سريع، ومران على الارتجال طويل ضاع هو وما يدعو إليه، والتقاه الناس بالمكاء والتصدية والصفير والسخرية، والاستهزاء في كل مكان، وقد يخطب الخطيب، فيعترض عليه بعض الناس فى خطبته، فإن لم تكن له بديهة حاضرة ترد الاعتراض وتقرعه بالحجة القوية، ذهبت الخطبة وآثارها. يروى أن أبا جعفر المنصور كان يخطب مرة، فقال: اتقوا الله. فقال رجل: أذكرك من ذكرتنا به. فقال أبو جعفر: سمعا سمعا لمن فهم عن الله، وذكر به، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، فتأخذنى العزة بالإثم، لقد ضللت إذاً، وما أنا من المهتدين، وما أنت؟ والتفت إلى الرجل، فقال: والله، ما الله أردت بها، ولكن ليقال قام فسال: فعوقب، وأهون بها لو كانت العقوبة، وأنا أنذركم أيها الناس أختها؛ فإن الموعظة علينا نزلت وفينا نبتت. ثم رجع إلى موضعه

من الخطبة، فلو لم تكن قدرة المتصور على الارتجال ما استطاع أن يأتي بذلك النوع من الكلام، وما استطاع حينئذ أن ينال من المتهجم على مقام الإمرة ذلك التهجم.

وقد يعقب بعض الخصوم على كلام الخطيب بالنقض، وذلك كثير في مرافعات المحامين والنيابة، فإذا لم يتقدم بكلام قيم يسد به الخلة، ويرد به الحق إلى نصابه، ويشارك من أمره ما هوجم فيه، ضاع مقصوده، وذهب أدراج الرياح مجهوده؛ وذلك لا يكون إلا بقوة الارتجال التي تتكون بالمزاولة والمران.

٢- وقد كان العرب أيام ازدهار الخطابة فيهم من أقوى الناس على الارتجال. قال الجاحظ في وصفهم: وكل شيء للعرب فهو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام، وإلى الرجز يوم الخصام، أو حين أن يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناضلة، فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد؛ فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده.. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر؛ وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، أو يحتاجوا إلى تدارس، وليسوا كمن حفظ علم غيره واحتذى كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب.

٣- والمران على الارتجال يكون والعود أخضر، والعادات لم تتكون، والنفس لم تجمد على نحو خاص من أنحاء القول يخالفها، ولذا قيل إن القدرة على الارتجال لا تتكون بعد الأربعين، ويصعب أن تتكون بعد الثلاثين، بل تتكون في سن دون هذه السن.

ويتربى: ١- بسماع الخطباء المرتجلين الممتازين، لأن السماع يحفز من عنده استعداد الكلام إليه، ولأن فكر البشر يغذى بالتقليد والمحاكاة.

٢- وبأن يأخذ نفسه من وقت لآخر بالكلام مرتجلا، ويغشى الجماعات ويتقدم إلى القول، ليفك عقدة لسانه، ويزيل حبسة الحياء. ويرى موريس آجام أن تمرين مريد الخطابة على الارتجال بأن يتكلم كل صباح في موضوع من الموضوعات لنفسه، ولو ربع ساعة، فيتمرن جرسه وصوته.

٣- ومن أمثل الطرق أن يجتهد في ألا يخطب من ورق، وأن يعرف ملخص ما يقول بعد تحضيره، فإذا دأب على ذلك، واتته فطرة قوية، واستعداد قويم على القول على البديهة من غير تحضير عند الاقتضاء.

٤- وعلى مريد الخطابة أن يستنصح رفيقاً له يدله على عيوبه، كما أن عليه أن يراقب نفسه مراقبة تامة، ويأخذ نفسه بالإصلاح، ولا يترك عادة لا تستحسن تثبت وتنمو، وعليه ألا يتقيد بعبارات خاصة، وإلا أثار سخرية الناس، ومكن خصومه من العبث بسمعته البيانية.

النطق

النطق الحسن هو الدعامة الأولى للإلقاء الجيد، وإذا اعترى النطق ما يفسده ضاع الإلقاء، فضاعت معه الخطبة وأثرها، وفقد الخطيب ما يسمو إليه من وراء البيان، ولا شئ يذهب بالمعنى الجيد أكثر من النطق الرديء، وكثيراً ما يفهم المعنى على غير وجهه، لأن النطق قلبه، ولم يصوره تصويراً صادقاً.

والنطق الجيد يحتاج إلى عناصر أربعة لابد من توافرها، فإذا فقد أحدها ذهب أحد أركانه، فاختل بنيانه، وها هي ذي:

١- تجويد النطق:

بأن يخرج الحروف من مخارجها الصحيحة؛ فلا ينطق بالثاء سيناء، ولا بالذال زايا، ولا بالجيم كما ينطق العامة، وهكذا كل مخارج الحروف؛ فيجب أن يعني الخطيب بأن يكون الحرف خارجاً من ينبوعه، صادراً عن مخرجه الذي عرف عن العربي النطق به منه. وإن العناية بنطق الحروف نطقاً صحيحاً، وإخراجها من مخارجها ليس معناها أن يتشادق الإنسان ذلك التشادق الذي يقع فيه بعض المتكلمين[١] أو الخطباء. فيكسو النطق تكلفا يثير سخرية السامعين أو يثقل القول عليهم، بل معناه أن ينطق بالحرف من مخرجه من غير تكلف ولا تشادق ولا توعر، بل في يسر ورفق وسهولة، لأن ذلك التشادق يوقع أولئك المتكلمين في نقيض ما يرغبون، فينطقون بالحروف من غير مخارجها الصحيحة، كبعض الخطباء الذين يدفعهم غلوهم إلى النطق بالجيم بما يقرب من الشين، فراراً من نطق العامة؛ فيدفعهم فرارهم هذا من

(١) كأولئك الذين يملكون ألسنتهم بالقاف مفخمين النطق بها فيبدو التكلف واضحاً.

عيب العامية إلى عيب آخر لا يقل عن الأول خروجا عن جادة الفصحى، وقد قال بعض الأدباء: إن التشادق من غير أهل البادية عيب لأن أهل البادية في الزمن الأول كان نطقهم هو الصورة الصحيحة للنطق العربي القويم.

٢- مجانبة اللحن وتحرى عدم الوقوع فيه:

يجب أن يعنى الخطيب بتصحيح الكلام الذى ينطق به، وملاحظته فى مفرداته وعباراته فيلاحظ بنية الكلمات ملاحظة تامة، فلا ينطق مثلا بكلمة سوقة بفتحتين كبعض الخطباء، فيذهب ذلك بروعة القول وبهائه، ولا ينطق بغير ما توجبه قواعد النحو فى آخر الكلمات، فإن ذلك يفسد المعنى، وقد يقلبه، وليعتبر الخطيب بما روى من أن خارجا من الخوارج قال فى قصيدة هذا البيت:

ومنا يزيد والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

برفع أمير المؤمنين فلما وصل البيت إلى علم عبد الملك بن مروان طلب قائله وسأله: أنت القائل: ومنا أمير المؤمنين شبيب؟ فقال: لم أقل هكذا، ولكنى قلت: ومنا أمير المؤمنين شبيب، وفتح أمير (أى منا شبيب يا أمير المؤمنين) فأعجب عبد الملك بفطنته، وأخلى سبيله. فانظر كيف كان اختلاف الحركة فى آخر الكلمة قالبا للمعنى، مغيراً للمقصد؛ فالخطيب الذى يقع فيه قد يفسد المعنى، بل قد ينقلب المدلول اللفظى لكلامه، إلى نقيض المطلوب وعكس المراد. والنطق والخطأ لآخر الكلمات، فوق أنه قد يفسد المعنى، ويذهب برونق الخطبة، وحسن وقعها، وجمال تأثيرها، ولا يظنن الخطيب أن جودة المعنى وإحكامه قد يذهبان ببعض الأخطاء، فإن الهنات الصغيرة إذا كثرت أحدثت تأثيراً سلبياً للخطبة، وأفسدت تأثير المعانى المحكمة. وإن جمهرة النظارة الآن فى مصر ممن لهم إلمام بقواعد النحو، ولهم قدرة على ملاحظة الأخطاء، وإن لم تكن لبعضهم قدرة على مجانبتها فى خطبهم، بل فى كتاباتهم أحيانا، فإن المستمع يلاحظ مالا يلاحظه الخطيب، ونظراته إلى المتكلم وكلامه نظرات فاحصة كاشفة؛ وإذا أدركوا كثيراً من الأخطاء ضاع أثر الخطبة فى نفوسهم.

٣- تصوير النطق للمعانى تصويرا صادقا:

بأن يعطى كل كلمة وكل عبارة حقها، ويظهرها بشكل تتميز به عن سواها، فالجملة المؤكدة ينطقها بشكل يدل على التوكيد فى النغم كما دل، والجمل الاستفهامية ينطق بها

بشكل يتبين منه الاستفهام، والمراد منه في طريق النطق، كما دل عليه بالأداة الدالة على الاستفهام، وسنتكلم عن هذا وافياً عند الكلام على الصوت.

٤- التمهل في الإلقاء:

وهو ألزم الأمور للخطيب، وليس بصحيح ما يزعمه بعض الناس من أن الخطيب اللبق هو من يتدفق بيانه تدفقاً، وتنحدر عباراته في سرعة، ومن غير تمهل؛ فإن ذلك فيما أرى عيب يجب التخلي عنه، والاحتراز منه:

(أ) إذ النطق السريع المتعجل حيث تجتنب الأناة ينتج منه تشويه المخارج، وخلط الحروف بعضها ببعض لأن عضلات الفم واللسان لا تأخذ الوقت الكافي للانتقال من لفظ إلى لفظ.

(ب) والإسراع المفرط يجعل الخطيب يهمل الوقوف عند المقاطع الحسنة، والمقاطع لها حسن الأثر كما علمت فيما مضى.

(جـ) والخطيب السريع في نطقه لا يعطي السامع الفرصة الكافية لفهم ما يسمع، وتذوق ما فيه من صقل اللفظ وجودة المعنى، وحسن الخيال فإذا قرعت أذنه عبارة قبل أن يتذوق ما في الأولى من جمال، يعروه التعب، ويسكن قلبه السأم، وينصرف عن الإصغاء.

(د) والتمهل فوق ذلك يجعل الصوت يسري إلى السامعين جميعاً بأيسر مجهود متناسب مع المكان والعدد، بينما الإسراع يجعل الكلمات تحتاج إلى مجهود صوتي أكبر؛ ليصل الكلام إلى الآذان.

وقد كان النقاد الأقدمون يعدون بحق من أمارات رباطة جأش الخطيب التمهل في النطق، فقد قال أبو هلال العسكري في الصناعتين: وعلامة سكون الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه، وتمهله في منطقه؛ قال ثمامة: كان جعفر بن يحيى أنطق، قد جمع الهدوء والتمهل، والجزالة والحلاوة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة لكانه.

وقبل أن نترك الكلام في هذا المقام نشير إلى نقطتين:

(إحداهما) أن الكلام يجب أن يسوده التمهل في الجملة لما بينا، ولكن يصح أن يتفاوت في الجمل بعضها عن بعض، فالجمل الدالة على الفرح والسرور يستحسن أن ينطق بها الخطيب بسرعة نسبية، وكذلك الجمل الدالة على الغضب، ليكون النطق مصوراً للمعنى الروحي لهاتين الحالتين تمام التصوير.

(ثانيهما) ألا يظن ظان أن التمهل معناه أن يكون النطق هادئا هدوءا تاما، فتعدم الخطبة الحياة والقوة، بل يجب أن يكون في نغمات الصوت ورنانه وملامح الخطيب ونظراته، والتغير النسبي في التمهل والسرعة، ما يعطي الخطبة الحرارة والقوة والحياة.

الصوت

من الناس من يسمع الإنسان صوته محدثا أو قارئا أو خطيبا، فيشعر بنغماته تثير ارتياحه، ورنينه يهز إحساسه، وبعمقه يصل إلى أبعد غور في نفسه، وبتشكيله بأشكال مختلفة يتضح المعنى، ويتكشف المبهم، ومن الناس من تسمع منه أجمل العبارات، وأجود الألفاظ الدالة على المعاني، فترى العبارات، قد فقدت جزءا كبيرا من بهجتها، وذهب من المعاني أكثر روعتها؛ فدل ذلك على أن للأصوات أثرا كبيرا في حسن وقع الكلام أو قبحه، وليس المرجع في ذلك جمالها وقبحها، ولكن عمقها وركوزها، ورياضتها على تصوير المعاني، وجودة نقل الخواطر؛ فإن الألفاظ والأصوات تتعاون في الدلالة على المعاني النفسية، فألفاظ التألم والحزن والغم مثلا إذا سمعتها مجردة ما أثارت في نفسك شيئا، فإذا سمعتها من متألم، واشترك صوت متأثر بالآلام مع اللفظ، أثارت في نفسك خواطر الأسى، ومواضع الحزن، وأحسست بالألم العميق تشترك فيه مع من حكى لك آلام نفسه في نغمات صوته.

لذلك يجب على الخطيب أن يروض نفسه على تصوير المعاني، وأن يجعل من نغمات صوته، وارتفاعه وانخفاضه دلالات أخرى فوق دلالة الألفاظ، وليعمل على أن يكون صوته ناقلا صادق النقل لمشاعر نفسه، وليمرنه التمرين الكافي على أن يكون حاكيا صادق الحكاية لمعاني الوجدان، وخواطر الجنان، وليعلم أنه لا شيء كالصوت يعطي الألفاظ قوة حياة، وأنه إذا أحسن استخدامه خلق به جوا عاطفيا يظل السامعين، وبه يستولي عليهم.

وإذا كان لنا أن نوصي مريد الخطابة بشيء، فإنا نوصيه بهذين الأمرين:

أولهما – أن يجعل صوته متناسبا لسعة المكان ولعدد السامعين، فلا ينخفض حتى يصير في آذانهم همسا، ولا يعلو حتى يكون صياحا، بل يكون بين هذا وذاك، وبين المرتبتين متسع لفنون القول، ودرجات الكلام، وأنواعه، وغاياته.

وعند الابتداء يبتدئ منخفضا، ثم يعلو شيئا فشيئا، فإن العلو بعد الانخفاض سهل؛ ووقعه على السامعين مقبول، أما الخفض بعد الارتفاع، فلا يحسن وقعه، ولذا يجب على

الخطيب أن يوازن بين طاقته، وبين الزمن الذى تستغرقه خطبته، والجهود الصوتى الذى يجب بذله، وليجعل هذين على قدر تلك، ولا أصابه الإعياء قبل الوصول إلى الغاية، فكان كالمنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى.

ثانيهما – ألا يجعل صوته نمطيا يسير على وتيرة واحدة، وبشكل واحد لا تغير فيه ولا تبديل، فإن ذلك يلقى فى نفس السامع سآمة. وملالا؛ ووراءهما النفور والانصراف.

وليكن تشكيل صوته بأشكال صوتية مصورة للمعانى؛ فإن الصوت كما ذكرنا يشترك مع الألفاظ فى الدلالة على المعانى، ويعاونها فى التعبير عنها، ويكون ذلك بتغييره بأشكال مختلفة، فليجعل الجمل الاستفهامية تختلف فى نغمة إلقائها عن الجمل التى للتمنى، وهذه تختلف عن جمل الرجاء، وكما أن للأمر صيغة تدل عليه تختلف عن صيغة الخبر، فليجعل المتكلم من نغمات صوته ما يدل على ذلك التغاير، وهذا التفاوت.

وإذا كانت اللغة قد جعلت صيغ الأمر هى التى تدل على الدعاء، أو الالتماس، فقد تركت للمتكلم واجب إشعار السامعين بالتغاير بينهما، فليجعل لهجة الأمر تخالف لهجة الدعاء، وتخالف لهجة الالتماس، فإن لكل مقصدا خاصا يفهم من فحوى الكلام، ومن صوت الخطاب.

وكما تختلف الجمل فى معانيها تختلف الكلمات أيضاً فى معانيها، وكل معنى يحتاج إلى نغمة صوتية معبرة عنه، كما احتاج إلى لفظ دل عليه، فالإشفاق، والتوجع، والكآبة، والتردد، والفرح، والضحك، والدهشة والشكوى، واليأس، كلها ذات معان تحتاج إلى أصوات تناسبها، وتساعد الألفاظ فى الدلالة عليها.

هذا وكل جملة فيها كلمة ذات معنى رئيسى هو عمود الجملة، والمقصد الذى سيقت له، فمثلا قول الإمام على رضى الله عنه: أعجب ما فى الإنسان قلبه، وله مواد من الحكمة، وأضداد من خلافها. كلمة قلبه هى ذات المعنى الرئيسى فيه، فعند النطق يجب أن تعطى شعاراً صوتياً يدل على شرفها، ويوجه الأنظار إليها.

وإن الخطيب المتصرف الجيد لا يضل فى تمييز هذه الأصوات إذا جعل دليله ما يشعر به من هذه المعانى، وما يراه من الناس فى محادثاتهم المعتادة، فى رفع أصواتهم أو خفضها، فإن المحادثات المعتادة هى الحاكية الصادقة الحكاية للأمر المألوف، والذوق المعروف، فليكن فى تغييرات صوته صورة مكبرة مزينة مجملة بجيد التعابير، لما يجرى بين الناس؛ فإنه إن فعل كان صادرا فى نغماته عن إحساسهم ومشاعرهم وذوقهم العام.

الإشارات[1]

إن الإشارات هي الخاطبة الصامتة، أو هي لغة التفاهم العامة، وهي في كثير من الأحيان صوت الشعور، وعبارة الوجدان، فالغاضب يتغضن جبينه، ويعبس وجهه، ويقبض أصابعه بدافع شعوري من غير إرادة، لهذا كان للإشارة أثر في إثارة الانتباه والشعور، وتقوية الدلالة؛ لأن المعنى معها تدل عليه دلالتان بل ثلاث دلالات: إحداها لفظية، والثانية صوتية، والثالثة تلك الإشارات البيانية.

والإشارات البيانية بعضها شعوري اندفاعي لا يكون بالإرادة، بل بدافع الاحساس الوقتي للخطيب الذي يثيره موقفه الخطابي كتحريك الحاجبين للدهشة، أو تغضن الجبين للغضب، أو النظر الشزر عند الاحتقار، وبعضها إرادي قصدي يعمد إليه الخطيب للتأثير، فالإشارة للبعيد برفع اليد إلى أعلى بانحراف، ونحو هذه من الحركات التي يعمد إليها الخطباء.

وسواء أكانت الإشارات إرادية أم شعورية، فهي ذات أثر في تأكيد الكلام في نفس السامع وتقويته، غير أنه يجب أن يلاحظ أن للإشارات قيودا لا تحسن إلا بها.

فيجب أن تكون ملائمة للمعنى موافقة له، يشعر السامعون بقوة دلالتها عليه، وإلا كانت حركات عابثة، لا معنى لها، كما يفعل بعض المحامين، من مسحهم جبينهم آنا بعد آن من غير أن يكون عرق، أو وضع أيديهم على منظارهم، أو خلع طرابيشهم، فإن أمثال هذه الحركات عابثة، لا تشير إلى معنى، ولا تنبئ عن إحساس نفسي قوي أو ضعيف.

ويحسن أن تسبق الإشارة القول، ممهدة له منبئة به، فيتنبه السامعون له، ويترقبونه، ليجيء في وقت الحاجة إليه، فيثبت فضل ثبات، فالإشارة تكون مع الفكرة مصاحبة لها، والفكرة سابقة على القول، فالإشارة مثلها.

ولا يصح أن تتكرر الإشارة؛ فإن في تكرارها ما يدعو إلى السأم والملل، وما يوهن موقف الخطيب، ويضعف تأثير قوله.

---

(١) جاء في البيان والتبيين: الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط... وبعد: فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلاف في طبقاتها ودلالاتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير.

هذا ويلاحظ أن الخطيب القوى من تكون عباراته وانسجام بيانه قوية فى ذاتها؛ فلا يصح الإكثار من الإشارات والحركات، فإن ذلك يذهب بسمت الخطيب، ومهابته، ورواثه عند السامعين.

وإن الذوق العام المصرى من ناحية الخطابة يشبه الذوق الإنجليزى من حيث الرغبة فى قلة الإشارات، وملاحظة السذاجة، وألا يكون هناك تكلف لها؛ فإن ذلك ليس مألوفا من كبار الخطباء عندنا، وهم الذين يوجهون الذوق العام فى متجهاته.

الوقفة

أحسن حال للوقفة الخطابية:

١ – أن يقف الخطيب على مرتفع ليشرف على السامعين، ويصل صوته إليهم، وليتمكنوا من رؤيته، فإن الرؤية تعين على حسن الاستماع.

٢ – وأن يكون فى وقفته مستقيم القناة، فلا انحناء ولا تقوس، وأن يبرز بصدره إلى الأمام، ويعتمد على إحدى الرجلين إن كانت الخطبة تستغرق زمنا طويلا؛ لكى يستطيع أن يبدل إحدى الرجلين بالأخرى ليريحها.

٣ – ويلاحظ أن ليس من المألوف عند كبار الخطباء فى مصر الانتقال من مكان إلى مكان كالممثل، فيحسن حينئذ الوقوف فى مكان واحد لا يزايله إلا قليلا، وإلا أثار سخرية السامعين وهزءهم، فليجانب الخطيب ذلك ما استطاع إلى المجانبة سبيلا.

فنون الخطابة

قد حصر أرسطو فنون الخطابة فى ثلاثة أقسام: وهى الخطب التثبيتية، والخطب القضائية، وخطب المشورة. وكان تقسيمه هذا تابعاً لأوقات المعانى الخطابية، فالخطب التثبيتية وهى التى تتعلق بالمدح أو التأبين أو التعزية وغيرها من الأمور التى تتعلق بحادث ثابت أو حال قائمة، زمنها الحاضر، والخطب القضائية لأنها تتعلق بأمور حدثت فيما مضى، ويتناقش الخصمان فى بيان تبعاتها، زمنها الماضى، إذ أكثر معانيها يتعلق به؛ وخطب الشورى وهى

تتعلق بأخذ الأهبة للمستقبل، وإعداد العدة لما يكون فيه، كان أكثر معانيها يتعلق بالمستقبل، وهو زمن وقوعها.

والحق أن فنون الخطابة تتبع حاجات الأمة، وأحوالها وشئونها والضرورة الدافعة إلى القول الخطابي. وقد شاعت الخطابة في عصرنا في فنون وموضوعات كثيرة، ولكل منها طرائق خاصة، ومناهج بيانية امتازت بها، وطرق للسبق فيها، والغلب في ميادينها.

وقد حصرت على تباين موضوعاتها في أقسام جامعة لها وهي:

١ – الخطب السياسية.

٢– الخطب القضائية.

٣– الخطب الدينية.

٤– الخطب العسكرية.

٥– المحاضرات العلمية.

٦– خطب التأبين.

٧– وخطب المدح والشكر.

الخطب السياسية

لم تزدهر الخطابة السياسية في عصر من العصور ازدهارها في ذلك العصر، فقد سبقت كل أنواع الخطابة، وصار التبريز فيها طريقاً من طرق المجد المبتدة، ومنهاجاً مستقيماً لمن يريد أن يتقدم إلى خدمة الأمة بإقامة حكمها على نظام عادل مستقر، ثابت الدعائم، مشيد الأركان.

وقد تضافرت جملة أسباب، فجعلت للخطابة السياسية تلك المنزلة:

١-فسيطرة الشعوب على الحكم في أكثر البلاد المتمدينة؛ إذ قد صارت هي مصدر السلطات، وموئل الحكام، ومرجع أهل الحل والعقد؛ لا يبرمون أمراً من غير استفتائها، ولا يحلون عهداً من غير الاستشارة برأيها، ولا يثيرون حرباً من غير الاستيثاق من تأييدها، ولا يدخلون في عقد من غير الاستئناس بإرادتها؛ فالحرية السياسية قد سيطرت على كل شيء، وحلت في كل نفس المحل الأول، والخطابة السياسية تنمو تحت ظل الحرية، وتستمد غذاءها وقوتها منها إذ هي لا تترعرع إلا في جو حر طليق.

٢- وكانت دور النيابة، والغلب فيها، والعمل على قيادة النواب، ودعوتهم إلى ما يرتئيه الخطيب، ومحاولة السبق فيها، والسيطرة على أفكارها، وتوجيهها إلى ما يرى من مصلحة تعم الجميع، كان كل هذا من أسباب رواج الخطابة السياسية، وسيطرتها.

٣- وإن مناحرات الأحزاب، ومحاولة كل حزب أن يكون لسانه أغلب، ومبادئه أكثر انتشاراً وذيوعاً، وأعضاؤه أكثر عدداً وأعز نفراً، وأقوى صوتاً، وما يتخذ في سبيل ذلك من دعايات منظمة، كان سبباً ثالثاً من أسباب سيادة الخطابة السياسية.

٤- وإن اتصال الشعوب بعضها ببعض، وتقوية الأواصر، وعناية كل دولة بنشر الدعاية عن عدالة حكمها، وأنها تسير بالقسطاس المستقيم، وأنها لا تبغي غير الخير، وترقب العهود والمواثيق، كل هذا جعل للخطب السياسية الناشرة للمحاسن، النافية للمعايب، مكاناً في كل أمة، حتى إن ألمانيا قد جعلت وزارة خاصة بالدعاية تسيطر على طرقها، وتبتكر أساليبها.

٥- وإن نهوض الأمم المغلوبة على أمرها التي قضي عليها ألا يكون أمرها بيدها ردحاً طويلاً من الزمان، استدعى أن يكون من بين أهل اللسن والبيان فيها من يوقظ الحمية، ويثير

العزائم، ويحيي الآمال؛ فوجدت خطب سياسية دافعة إلى الحياة الحرة، مميتة لليأس، كما ترى في خطب غاندي، وسعد زغلول، ومصطفى كامل، وغيرهم من أهل البيان والحمية الوطنية، ومن تولوا قيادة الشعوب.

لهذه الأمور ولكثير غيرها، كان للخطابة السياسية المكان الأول من بين أنواع الخطابة. ولكثرة الخطب السياسية وتغلغلها في حياة الشعوب، وسيطرتها على مصيرها؛ تشعبت إلى شعب، وانقسمت إلى أنواع هي:

(أ) الخطب النيابية.

(ب) الخطب الانتخابية.

(جـ) خطب النوادي.

(د) خطب المؤتمرات السياسية.

(أ) **الخطب النيابية:** هي التي تكون في الدور النيابية، وتشمل خطب الأعضاء معترضين على الحكومة، أو مؤيدين لها، أو سائلين أو مستجوبين، أو متناقشين فيما بينهم، كما تشمل خطب الوزراء مجيبين أو معترضين، أو داعين إلى الموافقة على أمر.

والخطابة النيابية مزلق خطير لا ينجح في اجتيازه سالما إلا أولو العزم من الخطباء، ولا يكفي فيه أن يكون الرجل ذا بيان ولسن وحضور بديهة ونهوض حجة، وقدرة على الغلب في الخصام، ومقارعة الأقتران في ميادين البيان؛ بل لابد للنجاح فيها من عناصر كثيرة. لا ينالها إلا من كتب الله له النجاح المؤزر، والفضل العظيم، منها:

١ - أن يكون النائب فاهما لنفسية الشعب، ملما برغباته، عارفا لمطامحه وأمانيه، دارسا لأحواله ومشاعره، بل لابد أن يكون فوق ذلك محسا بإحساسه شاعرا بشعوره، حاكيا صادق الحكاية لآماله ومطامعه، لأنه لسانه المعرب عنه، وصوته الداوي بما يرغب من حياة، وليجعل الحكم بينه وبين النواب فيما يشجر من خلاف، وما يقوم من نزاع شعور الشعب ورغبته، لأنهم إن حادوا عن تلك الرغبة، وجانبوها أخلوا بواجب الوكالة، وخلعوا شعار النيابة، ولذا يحسن بالنائب الاتصال بناخبيه آنا بعد آن، وكلما تهيأت الفرصة، وأمكنته الأحوال، لكيلا ينقطع بشعوره عنهم، ولكي يكون على إلمام تام بكل ما يعرض لهم من شئون وأحوال.

٢- وأن يكون عليما بمشاعر النواب أنفسهم ورغباتهم، لأنهم الجماعة التي يخطب فيها، فيدرس نفسيتها، ليؤثر فيها من طريق ما تشتهي وتبتغي، وليصل إليها من طريق إقبالها، ولكيلا ترفض قوله، وتجعله دبر آذانها. ولا يظن ظان أنه لا يؤثر في النواب إلا المنطق، فإنهم وإن كانوا في الغالب من العلية المثقفة المهذبة تنطبق عليهم صفات الجماعات، من أنها يرد إليها التأثير من ناحية المشاعر أكثر مما يرد إليها من ناحية المنطق، لذلك يجب على الخطيب النيابي ألا يجعل المنطق هو كل شيء في كلامه، بل لابد أن يرطبه بما يثير المشاعر، ويهز الإحساس، ويحفز الهمم، ولا يكون ذلك إلا إذا كان دارسا دراسة تامة لعقلية النواب ومتجهاتهم العاطفية، ليستدرجهم إلى ما يريد من طريق ما يألفون.

٣- ودراسة العرف النيابي واللائحة الداخلية للمجلس، ليكون على بينة تامة، وعلم كامل بالنظم والقيود التي تحيط بالمناقشات، فلا يخرج عن نطاقها، ولا يعدو دائرتها، فإذا سأل وزيرا علم ما للوزير من حق التأجيل، وإذا أجابه عرف الحدود التي له في التعليق، فلا يمكّن الرئيس من منعه، فيخدش بذلك المنع عزته، وإذا استجوب كان عليما بماله من حق المناقشة في الجواب، وما للأعضاء من حق الاشتراك في المناقشة والمحاسبة، وفي الجملة يعلم ما للعضو من حقوق في المناقشة، والأسئلة والاستجوابات وغيرها، وما أحيطت به هذه الحقوق من واجب، وما نيط بها من تبعات. فإنه إن أخذ نفسه بعلم ذلك والعمل به، أحيطت مناقشاته بالإجلال، وصينت من المنع، وذلك من أسباب الإنصات إليه، وربما أدى ذلك الإنصات إلى الاقتناع.

٤- والإلمام التام بنظام الحكم، والخبرة التامة بأحوال الحاكمين ومعاملتهم للمحكومين، لكي يستطيع أن يؤدي عمله الذي ناب عن الجماعة في أدائه، فإن انتقد تصرفا من التصرفات، انتقده عن خبرة ومعرفة، وكذلك إن أيد تصرفا، وإن حاول أحد أن يلبس الأمر عليه، كشفه بما أوتي من ذلك الإلمام. ومن الحقائق ما يضيع بين إفراط بعض النواب في التأييد، وإفراط الآخرين في النقد، ولو كانت هناك معرفة تامة بأحوال الحاكمين والمحكومين، واتخذت تلك الأحوال مصدراً للتأييد أو الاعتراض، لالتقى المتعارضان، وما تناحر الفريقان. وليعلم النائب أن عمله خطير، وتبعاته جسيمة، فقد تدفعه حماسة البيان، واندفاعة الوجدان، إلى حمل النواب على تقرير أمر، أو انتقاد تصرف، ووراء ذلك ما لا تحمد عقباه، والمسلك الحق الذي يجانب فيه النائب الشطط، ويلتزم جادة الاعتدال، أن يعرف حال الدولة، والصلة بين حكامها ومحكوميها، ليطب وهو على علم لما فيها من داء، ويصف لها عن خبرة أنجع دواء.

٥- التخصص في دراسة ناحية من نواحي الحياة في الأمة، ليعمل على دراسة طرق إصلاحها؛ فإن طرق الإصلاح متشعبة، ونواحيه متباينة، ولكل ناحية أقوام يجيدون معالجة الإصلاح فيها والدربة التامة بوسائله وطرقه، ولا يطالب النائب بأن يكون خبيرا بكل ما يصلح الشعب، عليما بكل النواحي، فليوجه إذن عنايته إلى ناحية واحدة ويعن بدراسة طرق الإصلاح فيها، فالماهر في الزراعة يوجه جل عنايته إلى وسائل ترقيتها، وطرائق زيادة الغلات، والطبيب يوجه أكبر عنايته إلى دراسة الأحوال الصحية، ووسائل الوقاية من الأمراض، والقانوني يتجه إلى الإصلاح القانوني، ويعمل على تقريب مسافة الخلف بين العدل النسبي والعدل الحقيقي، والاقتصادي يعني بدراسة النظم الاقتصادية في الأمم والحكومات، وتقديم ما يرى الأخذ به يزيد الإنتاج، ويكثر من الثمرات.

وهكذا كل يعمل فيما هيئ له، ويقدم في ذلك مشروعات قوانين واقتراحات ورغبات، وبذلك تتضافر كل القوى، وتتلاقى كل عناصر الإصلاح، ويتم بنيانه الكامل.

ومع اتجاه النائب إلى ما تخصص فيه لا ينصرف عن الإشراف على نظام الدولة، وسير شئونها، فإن النواب هم حراس النظام وحماته والرقباء على كل العاملين فيه.

٦- الهدوء في القول، والابتعاد عن إثارة عوامل الخصام ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فإن الخصام يدفع كلا المتخاصمين إلى أن يتعصب لفكرته، والتعصب يدفع إلى المهاترة، والمهاترة تدفع إلى الحمق والجهل؛ وإذا لم يكن بد من اختلاف، فليكن الاختلاف مظهره ومرماه طلب الحقيقة، والسعي إليها، والإخلاص في طلبها، وليحذر كلا المختلفين من الغضب أن يسود مناقشتهما، فإنه إن سادها، ذهب الحق فريسته، وإن أجوبة الغضب لا تكون مسددة، والردود التي يسردها لا تكون محكمة، فإن الإرادة تضعف عن أن تحكم الشعور، وذلك قد يدفع إلى الشطط، ووراءه الانهزام في مساجلة الأقران.

يروى أن سائلا سأل عمرو بن عبيد المعتزلي في حضرة واصل بن عطاء شيخ المعتزلة، فغضب عمرو. فقال له واصل: إياك وأجوبة الغضب، فإنها متندمة، والشيطان يكون معها، وله فيها همزة، وقد أوجب الله على نبيه أن يستعيذ من همزات الشياطين، وأن يكونوا معه بقوله: ﴿ أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ وقلما شاهدت أحداً ثبت في جوابه، وما ينطق به لسانه، فلحقه لوم.

وليعلم الخطيب النائب أن الناس في داخل المجلس وخارجه يتبعون كلامه بالتقريظ أو بالتزييف، فليحذر من أن يسقط، ولا طريق لذلك إلا الأناة والروية ومجانبة الغضب.

٧- الاجتهاد في موادة الأعضاء، لكيلا يكون له من بينهم خصوم، يندفعون إلى مهاجمته بالحق وبالباطل، ورحم الله سعد زغلول إذ قال في الجمعية التشريعية تلك الكلمة الحكيمة: إننا إذا لم تسد الصداقة أعمالنا ضعنا، وضاعت آمال الأمة فينا. وموادة الأعضاء تمنعهم أن يخالفوه إلا بالحق، وإن خالفوه فهو خلاف إلى اتفاق، وإن لم يكن اتفاق فهي خصومة شريفة لا يضيع فيها الحق.

٨- الابتعاد عن النعرة الحزبية؛ فإن النعرة الحزبية تسد مسامع النفس أن يصل إليها الحق، وتجعل الأحزاب الأخرى لا تنصت لقوله، ولا تجيب داعيته، وإذا لم يكن بد من الحزبية، فليضيق نطاق سلطانها في نفسه، وليجتهد في أن يجعل فكره في أكثر المسائل حرا طليقا، وكلامه لا يريد به إلا إرضاء الله والضمير والمصلحة العامة، فإن ذلك يجعل كلامه أعلق بالقلوب، ودعوته أكثر اتصالا بالنفوس.

هذه الأمور لو اتبعها الخطيب النائب في دار الشورى، أدى مهمته، ووصل إلى غايته، وكان من المصلحين.

أما لغة الخطابة النيابية، فيجب أن تكون من الفصحى السهلة التي لا تنزل إلى العامية، ولا تجعل قائلها من المتفيهقين المتشادقين، فإن ضجة الألفاظ في المجالس النيابية تذهب بروح المعاني، ودقة الأفكار وحسن التأثير في كثير من الأحيان، وليخير الخطيب العبارات التي تجمع بين دقة الفكر وإثارة الخيال، والتأثير النفسي.

ولننقل لك تلك المناقشة النيابية التي كانت بين المرحومين عبد اللطيف «بك» الصوفاني، وسعد زغلول «باشا» رئيس الوزارة المصرية، وفي مجلس النواب المصري سنة ١٩٢٤ عند عرض مصروفات السودان بدون بيان تفصيلي لميزانيته؛ فقد قال الصوفاني «بك».

أنا من رأي زميلي شوقي الخطيب أفندي[١] في احتجاجه على عدم تقديم ميزانية السودان مع ميزانية الحكومة المصرية، وخصوصا وقد لاحظت في أثناء مراجعتي لأرقام الميزانية أن هناك مبلغ ٧٥٠,٠٠٠ ج. م تقريبا لموظفي حكومة السودان».

أصوات: ليس هذا وقته.

---

(١) هو الذي أثار المناقشة في تلك المسألة.

عبد اللطيف الصوفاني «بك»: إني أقصد المسألة السياسية؛ لأن المبلغ المذكور ترك تفصيل إنفاقه إلى حكومة السودان، دون أن نقف على شئ من بيانه، مع أن العلاقة بيننا وبين السودان لم يطرأ عليها شئ مطلقا من الوجهة القانونية كما هو معلوم، أما من الوجهة العملية، فأذكر وقد كنت عضواً في مجلس شورى القوانين والجمعية التشريعية أن ميزانية السودان كانت تعرض علينا كل سنة، وبها التفصيل الوافي عما يختص بمصروفات السودان وإدارته فماذا جد حتى صار الأمر المألوف لا يتبع ولا يراعى الآن! ولا نعلم سببا نعلل به ذلك، أو نرجع إليه لمعرفة هذه المخالفة؛ فإلى متى نحرم من الإشراف على السودان! ويقال لنا إن حاكم السودان هو الحاكم بأمره هناك؟. وإذا طلبت منه الحكومة بعض البيانات لا يجيب طلبها، أو سألته شيئا لا يرد، مع أنه موظف مصرى، يتقاضى راتبه من الخزانة المصرية بدون أن يأخذ قرشا واحدا من لندره، وإذا طلبنا منه شيئا أو معلومات سكت، وكان سكوته أبلغ من الجواب. أملنا فيكم ياحضرات الوزراء، ألا تقولوا لنا ماذا نصنع؟ فإن الأمة من ورائكم، وهذه قوة عظيمة، فإذا ما قلتم تقدمت، واعلموا أن قوة الحق فوق كل قوة، وما القوة المادية إلا هباء يتلاشى أمام الحق.

فرد عليه رئيس الوزراء سعد زغلول «باشا» بكلام قيم جاء فيه:

ياحضرات الأعضاء، يجب أن نعمل بجد، تريدون منا أو بعضكم على الأقل أن نقدم ميزانية السـودان، ونحن لم نضع له الميزانية، بل السودان هو الذى يضع ميزانيته؛ فنحن لا نستطيع أن نقدمها لأنها ليست تحت يدنا، ولم نضعها! وأنا أقول إنه كان يجب أن تكون ميزانية السودان معنا، وأن نكون نحن واضعيها، بل يجب أن نكون واضعى اليد على السودان، ويجب أن نسعى لذلك وأنا ساع له. ومعتمد على قوة الأمة، وعلى حقها فى هذا، ولدى الأدلة القاطعة، والحجج القوية، ولكن لمن أقدمها؟ ألحضرتك[1] أم لمغتصبى حقوقنا؟. نحن نريد حقوقنا، ونريد الوصول إليها، وأنا أولكم وفى مقدمتكم، ماوهن عزمى، ولا ضعفت همتى، بل أريد أن أصل إلى هذا الحق بأية طريقة كانت، وأمامى طريق مفتوح أريد سلوكه؛ لأصل إلى غايتى، فإن وصلت إليها، فبها ونعمت، وإلا عدت إليكم... أنت[2] لاتريد ذلك، فماذا أصنع؟ والضرورة تقضى بتوجيه هذا السؤال؛ لأنك تقول بعدم مخاطبة واضعى اليد على السودان، وفى الوقت ذاته تطلب ميزانية السودان، إنها ليست تحت يدى، والسودان كله تحت

(١) الخطاب للصوفانى «بك» وهو لا يرى جواز المفاوضة، ويريد سعد زغلول بذلك السياق أن يجذبه إليها.

(٢) يخاطب الصوفانى «بك».

يد قوية، فماذا أصنع؟ إما أن تتبع طريقتي، وإلا فدلني على خير منها. إذا تكلمت في مجلس النواب فأنت مسئول عما تقول، وعن الطريق التي تريد أن تتخذها لتنفيذه، فإن أقرك المجلس على ما تقول فكلكم مسئولون، أما أنا فمسئوليتي تكون على قدر إقراري وموافقتي.

أنا في مقدمتكم في كل ما فيه خير بلادي، وعلى قدر فكري أرى أن الطريق المفتوحة أمامي لتحقيق غرض الأمة وغايتها هي المفاوضة، فإن كان عندك أو عند غيرك طريق لاستخلاص حقوق الأمة، فوضحه لي، وأنا أكون أول العاملين في هذه السبيل إن كان محققاً لأغراض الأمة.

إخواني، المسألة مسألة جد لا هزل، وعمل لا كلام، نحن هنا نتحمل مسئولية كل أمر نقرره، فيجب علينا قبل أن نصدر قراراً يختص بهذه المسائل المهمة أن ندرسها ونفحصها، وألا نطيع الهوى بل نستشير العقل والحكمة. فكر في ذلك جيداً، ولا تسع لإحراجي لأن إحراجي إحراج للأمة؛ لأني أقول، وأنا صادق فيما أقول: إني لا أريد إلا ما تريده الأمة، فإن أحرجت زغلولاً، فقد أحرجت الأمة، أنا لا أسعى في سياسة غير سياسة الأمة، والذي يرشدني ويدلني إلى ذلك هو صوت في ضميري، صرخ قبل أن يصرخ في قلب أي إنسان، وهذا الصوت يناديني دائماً أن أقوم بواجبي بدون أن يحضني عليه حاض، أو يحثني عليه حاث، ولكن في موقفي هذا يجب أن ألاحظ اعتبارات كثيرة، ليس منها المحافظة على مركزي؛ لأن لي مركزاً أعلى من المركز الرسمي، ولكن إذا لم أعمل الآن فلاعتبارات ترجع إلى رعاية مصلحة الأمة، لا إلى مصلحتي الشخصية، فإن كنت لم أقدم ميزانية السودان، فالأمر سهل؛ لأن الذي يضع ميزانية السودان هي حكومة السودان... دعونا من هذا، واتركونا نعمل نحن في مراكزنا التي لانلين بها إلا للأمة، ولا نخشى إلا صوتها، فإن رأيتم فينا اعوجاجاً، فقوموه لا بألسنتكم بل بسيوفكم. عاهدتكم وعاهدت الأمة من قبلكم، وأعاهدكم الآن ألا أحيد مطلقاً عن رعاية مصلحة الأمة على قدر استطاعتي، وليس على المرء أن يكلف إلا ما يستطيعه، فعليكم مادمتم وطنيين أن تساعدوني؛ لأن في ذلك مساعدة للأمة ووصولاً بها إلى الغاية المطلوبة.

(ب) الخطب الانتخابية:

هي الخطب التي يتقدم بها لتزكية نفسه، ومبادئه، ومناهجه والرد على خصومه من يريد أن يكون نائباً عمن يخاطبهم، أو يتقدم بها بعض أنصاره مزكيا داعياً إلى اختياره، راداً على الخصوم، ذاكراً للمناقب، مبيناً المصلحة التي تدعو إلى ترجيح كفته، وتأييد دعوته.

والنجاح في هذه الخطب له طرائق مسلوكة، وشروط معروفة، تحتاج إلى مهارة ولباقة، ودربة تامة بمخاطبة العوام والخواص والأوساط من الناس، ومناحي تأثيرهم، فإن هذا النوع من الخطب يلقيه الخطيب على جماهير غير متفقة في التهذيب والتفكير، وإنا ذاكرون لك بعض ما يجب على الخطيب الانتخابي أن يلاحظه:

١ – فهم روح الجماعة الانتخابية التي يخاطبها، ودراسة مشاعر أهل الدائرة الانتخابية التي يتقدم للنيابة عنها، فإن تلك الدراسة تكشف عن آمالهم، وتبين الحاجات والرغبات المستكنة في نفوسهم، فإذا تكلم المرشح أو مزكيه، ساير تلك الرغبات، أو ضرب على نغمتها، فيكون كلامه مصوراً لآمالهم، حاكيا لأمانيهم، وبذلك يجتذبهم إلى تأييده، ويحتاز أصواتهم.

٢ – أن يستخدم الخطيب الانتخابي غريزة حب الثناء، في التقرب من نفوسهم، فيثني عليهم غير مسرف، ويبين صواب نظراتهم، وأنهم في مستوى من الإخلاص عظيم، ثم يبين أنه يؤمن بسلطان الجماعات، وأنها صاحبة الأمر والنهي. ويرى بعض العلماء أن تملق الجماعة الانتخابية من أقوى الوسائل لنيل المرشح بغيته منهم، ونحن لا نوافق على التملق لأنه مذهب لجلال النيابة، مضعف لنفوذ النائب، ولكننا نجيز بل نوجب على الخطيب الانتخابي والمرشح أن يكون لين الجانب سهل الملمس، وألا يكون فظاً غليظ القلب متغطرساً، يثني على الجماعة بقدر غير بادي الملق، لأن الملق إن بدا عرف النفاق، فذهب التأثير.

٣ – ذكر المنهج الذي يختاره ومذاهب الإصلاح التي يراها، وليلاحظ في منهجه أن يكون جزء منه يتعلق بالمصلحة التي تعود على تلك الجماعة لانتخابه مباشرة، ولا نطالبه بأن يجعل مصلحة تلك الجماعة هي كل شيء في منهاجه. لأن النائب في القانون يكون نائبا عن الأمة كلها، كما نصت على ذلك أكثر القوانين النظامية، كما لا نطالبه بخلو منهاجه من وعود تعود على تلك الجماعة بشكل خاص، فإن الناس مأخوذون دائماً بالمصالح التي تعود عليهم بالنفع القريب الداني القطوف.

٤ – وليلاحظ أيضاً ألا يعد إلا بما يعتقد أنه قدير على الوفاء به، فلا يغالي ولا يسرف، لأنه إن فعل ظن به الكذب، وكانت وعوده مظنة الإخلاف، فيذهب التأثير، ولكن الدكتور جوستاف لوبون يقول في كتابه روح الاجتماع: أما المنهج الذي يحرره المرشح ببيان ما ينوي من الأعمال، فينبغي ألا يكون صريحاً، حتى لا يتخذه خصومه حجة عليه، لكن يجب أن يطيل في المنهج الشفوي ما استطاع، ولا خوف عليه من الوعد بإجراء أعظم الإصلاحات، فإن ذلك يؤثر

في نفوس الناخبين، وهو في حل منه آجلا، إذ القاعدة المطردة أن الناخب لا يبحث أبداً في: هل المنتخب جرى طبقا لتصريحاته التي كانت السبب في انتخابه، وترى من هذا أن ذلك العالم الجليل يرى أن المرشح للانتخاب لا يحاسب على ما وعد، ولكنا نرى في التجارب الانتخابية التي كانت في الأمة المصرية أن النابهين من الناخبين يرقبون المنتخبين، ويلاحظون تنفيذهم لمناهجهم ووعودهم، ونلاحظ أن خصومهم لهم بالمرصاد، يحاسبونهم حساباً عسيراً على ما يقولون، فإن رأوا منهم إخلافا ولو في وعودهم الشفوية، أثاروا عليهم قالة السوء، ولا يصح أن نتوهم أن التصريحات الشفوية لاتصل إلى مسامعهم؛ لأن لهم عيونا على خصومهم، وآذانا يسترقون السمع منهم؛ ولهذا نحن نرى أن الواجب على المرشح أو مزكيه ألا يعد إلا بما يقدر على الوفاء به، وألا يسرف في الوعود؛ لكيلا يكون وعده مظنة الإخلاف.

٥- ذكر مبادئ الحزب الذي ينتمي إليه إن كان؛ فيبين أن مبادئه هي المبادئ السامية، وأنها أقرب المبادئ إلى الإصلاح، وأن الهمة العالية تدنيها، والجد الوطني في اجتماعها، وأن العزة الشامخة في الأخذ بها، والسير في مناهجها. وعليه أن يوازن بين مبادئ حزبه ومبادئ الأحزاب الأخرى؛ فيبين أنه أقربها إلى سمو الحق، وأدناها إلى العمل؛ وأن الطريق إليها واضح، والمهيع الموصل إليها قريب، وليكن ذكره لمبادئ تلك الأحزاب في أدب ورفق وحذر واتزان ليكون نزيه اللسان، عفيف البيان؛ يحترم الآراء، ويقدس الأفكار؛ فإنه لا يقنع أكثر من الاتحاد في القول، والكلام المنزه البعيد عن البهتان، والبذاء والسب. وليعمد في ذلك الذكر إلى الإجمال بدل التفصيل؛ ليكون فضل البيان، والتفصيل الكامل لمبادئ حزبه؛ لأنه المقصود، وعمود الكلام.

٦- ذكر ماضي خدمات المرشح: وإذا كان المرشح نفسه هو الذي تصدى لبيان سالف خدماته، فليعمد إلى الإيجاز في ذكرها؛ لأن ثناء الإنسان على نفسه غير مألوف، والنفوس لا تقبله إلا على مضض، ولأنه إذا جرى على لسانه، شابته شائبة من المن والأذى. وإذا كان الخطيب غيره فلا مانع من تفصيل خدماته، والإطناب في ذلك، وليحذر المبالغة والغلو والإسراف في القول، فإن ذلك يجعل كلامه عرضة للتكذيب، فقوم يقولون عنه مستأجر، وآخرون منافق، وغيرهم متملق، وكل هذا تكذيب، وإثارة للريب في خيره.

ولا مانع من أن يوازن بينه وبين غيره من المرشحين، وليكن ذلك في قول خال من الطعن والسب، وبخس الناس أشياءهم، وقرضهم في فضائلهم، والنيل من كراماتهم، فإن ذلك يذهب بروح التأثير، ويجعل القول المقذع يذيع، ويسيطر على الجو الانتخابي. وذلك مفسدة ومضرة إذا ظهرتا في جو فكري عششت فيه الرذيلة، واختلط فيه الحق بالباطل، وضاع الحق وسط ضجة من البهتان.

٧- عدم التوعر: على الخطيب الانتخابي أن يتجه إلى السهولة في التعبير، فلا يتشادق ولا يغرب، بل يتجه إلى تقريب الأفكار، وتوضيح المبهمات، والإطناب في شرح الحقوق والواجبات، ولا يكتفي باللازم عن الملزوم؛ لأنه يخاطب العامة، والعامة لا يدركون إلا الواضح القريب الداني.

وعلى الخطيب الانتخابي أن يعلم أن تلك الخطب دروس سياسية قانونية للشعوب، فليجتهد في ألا يقدم إليهم إلا الصحيح الذي لا تضليل فيه، لكي يعلمهم الحقوق والواجبات النظامية، وليسهل لهم المعلومات لتكون قريبة معروفة دانية من مألوفهم، وبذلك يوجه أفكارهم، وينال تأييدهم، وينفع أمته بتهذيبهم.

هذه وصايا من أخذ بها من الخطباء الانتخابيين قارب النجاح في مهمته، ونال الثقة، وفاز بالتأييد.

(جـ) خطب النوادي والمجتمعات:

تكون خطب النوادي والمجتمعات في أكثر الأحيان لبسن حزب من الأحزاب خطة سياسية أو لتأييد فكرة من الأفكار والدعوة إليها، والعمل على نصرتها، أو حفز الهمم، وإيقاظ العزائم، أو للدفاع عن تهم توجه للحزب، ورد كيد الخصوم في نحورهم، وفي الغالب يكون المجتمعون في النوادي من الخاصة أو الأوساط، وقليل أن يكونوا من العامة.

ولذا يحسن أن تكون تلك الخطب محكمة الأفكار مع الوضوح والسهولة، وأن تسرد فيها الأدلة المنطقية مع الوسائل الخطابية، فيكون للمنطق فيها سلطان بجوار سلطان الخطابة، وما يتخذ فيها من طرق لإثارة الأهواء.

وإذا كان الاجتماع للرد على هجوم وجهه أناس للحزب، فليبتدئ الخطيب بتفنيد الأدلة التي يسوقها الخصوم بالطرق التي بيناها في التفنيد، فإذا انتهى من كشف ما في حجج الخصوم من بطلان، انتقل إلى مهاجمة مبادئهم وأفكارهم والموازنة بين ما يدعو إليه وما يدعون، وليكن في تلك الموازنة عف اللسان، لا يتجه إلى السب، فإن الاتجاه إليه عجز، والأخذ به فتح لباب البهتان والتضليل، وبذلك يختفي الحق في عثير من الباطل.

وعلى خطيب الحزب أن يجتهد في أن يجعل عباراته فخمة قوية، واضحة سهلة، لا تنزل عن الأكفاء، ولا تعلو على الأوساط، ولا تتسامى عن العوام؛ فإن الخطبة ستنشر في الغالب في الصحف، وتقرؤها الطبقات كلها، وإن كان السامعون من الخواص أو من قاربهم.

ولأن الخطيب الحزبي يخاطب الأمة كلها بكلامه في ناديه وينشرها في صحفه، وجب أن تكون خالية من كل ما يؤاخذ عليه قائلها بأي نوع من أنواع المؤاخذة، فلا إسراف فيها ولا غلو، ولا وعد بما يكون مظنة الإخلاف، وإلا نزلت بالقول والقائل، وارتدت الدعوة إلى التأييد خسرانا مبينا. وإن قوما يظنون أنه لا حساب على القول، فيسرفون في ذكر مبادئ واسعة النطاق في نواديهم ومجتمعاتهم، فإذا عملوا تخلى عملهم عن دعواهم، وقام منه دلائل لا تقبل النقض على غير ما يدعون، والناس يسمعون ثم يرون ويعاينون، فيحرمون هؤلاء من ثقتهم وتأييدهم؛ لأن من يسرف في القول، ويضؤل عمله، لا يوثق به.

(د) خطب المؤتمرات السياسية:

هذه خطب الكبراء، والنائبين عن الحكومات في المؤتمرات الدولية، ويظهر لي أن عنصر الشعور وإثارة الأهواء أقل العناصر ظهوراً في تلك الخطب، وإن أوضح ظاهرة فيها هي الدقة في حكاية المهمة التي ناب عن حكومته فيها، وصدق التصوير لأقصى ما تتسامح فيه دولته. وليس لنا أن نتعرض لبيان تفصيلي لما يجوز وما لا يجوز في تلك الخطب، فإن ذلك من عمل أناس يجيدون ذلك العمل، ولسنا منهم في شيء، ولنكتف من هذا بأن ننقل لك خطبة الرئيس ولسن في مؤتمر السلام العام الذي كان منعقدا في ٢٥ من يناير سنة ١٩١٩ وها هي ذي:

أيها السادة، إن الطبقات المختارة من الجنس البشري لم تعد حاكمة الجنس البشري؛ فحظوظ البشر هي الآن في أيدي شعوب العالم كله، وإذا كنتم ترضون هذه الشعوب، فإنكم تبررون ثقتها، وتقرون السلام، وإذا كنتم لا تعملون في إرضائها، فإن كل اتفاق تضعونه لا يقر السلام في العالم، ولا يوطده.

ويخيل إلي أنكم تتصورون العواطف والمقاصد التي يعاضد بها مندوبو الولايات المتحدة هذا المشروع العظيم، مشروع جماعة الأمم، فنحن نعده أساسا للعمل الذي أعربنا به عن مقاصدنا وغاياتنا في هذه الحرب، والذي قبلته الشعوب المشتركة أساساً للتسوية.

فإذا عدنا إلى الولايات المتحدة دون أن نبذل كل ما في وسعنا لتحقيق هذا البرنامج، فلن نلاقي سوى السخرية التي نستحقها من بني وطننا؛ لأنهم كتلة تتألف منها ديموقراطية عظيمة، فهم ينتظرون من قادتهم أن يتكلموا، ومن ممثليهم أن يكونوا خداما لهم.

فليس علينا إلا أن نعمل بالوكالة التي في أيدينا، وإننا نقبل هذه الوكالة بأعظم حماسة وسرور، وبما أن هذا هو أساس العمل كله، فقد وقفنا عليه، وعلى كل ذرة منه جميع اهتمامنا.

ولا نجسر أن نضرب صفحا عن أية مسألة كانت في البرنامج الذى تضمنته التعليمات التي في أيدينا، ولا نتساهل في أي جزء منها، لأن ما ندافع عنه هو سلامة العالم، هو موقف العدالة، هو المبدأ القائم على أننا لسنا أسياداً للشعوب، ونحن قد جئنا إلى هنا لنحرص على أن يختار كل شعب في العالم أسياده، وأن يتصرف في شئونه؛ لا كما نريد نحن، بل.. كما يريد هو. وصفوة القول أننا جئنا إلى هنا لنحرص على اقتلاع جذور الحرب وأسسها جميعها.

وقد انفرد بأمر هذه الأسس عصبة من الحكام المدنيين والهيئات العسكرية، وهذه الأسس هي الاعتداءات من الدول الكبيرة وتأليف الإمبراطوريات بقوة السلاح على الرغم من الرعايا، وجعل الجنس البشرى لعبة تتقاذفها الأيدى، فلا شئ يأتى بالسلام سوى تحرر العالم من هذه الأمور. ا هـ.

الخطابة القضائية

الفصل في الخصومات على وجه الحق أمر عسير، وحل معضلات القضايا، ومعرفة الحق من الباطل، وتحرى العدالة الحقيقية، أمور فوق قدرة البشر؛ وقد قال خير الخلق رسول الله محمد ﷺ فيما روته أم سلمة رضي الله عنها: «إنكم تختصمون إلى، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار». وقد اتفقت على رواية هذا الحديث كتب السنة.

وقال رجل من رجال القانون وشيوخه عمل في المحاماة وفي القضاء وفي الاشتراع، وهو المغفور له سعد زغلول: يظهر لي أن العدالة الحقيقية غير موجودة في هذا العالم. لهذا كله كانت مجالس القضاء مكانا لمغالبة الخصوم، ومقارعة الحجج، وميدانا فسيحا للاستدلال الخطابي، كل يحاول جذب القضاء إلى فكرته، وإقرار دعواه، وإجابة طلبه، وقد قال بعض القضاة: لا تقولوا: إن الحقيقة تدافع عن نفسها؛ فإن ذلك يكون صدقا لو خلت النفوس مما يشينها، ولكن الناس بحكم الطبع والعادة ليسوا أصفياء، أنقياء الروح، لذلك كان حتما علينا أن نفعل كما يفعل الذين يدخلون الحديد النار ليلين، فنصهر أفئدة المصغين لنا في حرارة البلاغة، حتى تقبل الحقائق التي نبديها لهم.

وهذا النوع من الكلام هو الذي تسميه الخطب القضائية، وهو قديم بقدم الخصومات والمنازعات البشرية، وقد جاء في كتاب المحاماة للمرحوم أحمد فتحي زغلول «باشا» : قد كان لليهود في زمن موسى عليه السلام رجال يشتغلون أمام القضاء فيما يشبه المحاماة اليوم، وأخص ما كانوا يعملونه حل المشكلات التي تظهر بين الأفراد من المسائل القانونية، وكانوا في عملهم هذا مأجورين ممن يعملون لمصلحته؛ لأنهم في عملهم كانوا يأخذون جعلا من بيت المال

وكان قدماء المصريين في بعض عصورهم يخشون التأثير الخطابي بالصوت والإلقاء والحركات والإشارات وجمال الشارة؛ فحرموا المرافعات بغير الكتابة، خوفا على العدالة من أن تذهب فريسة قوة التأثير.

وكان لقوة تأثير المرافعات في مجالس القضاء عند اليونان أثر واضح في الأحكام، حتى سنت القوانين لمنع الخطباء من استخدام الوسائل لإثارة الوجدان والعواطف فيها، وحتى عين

فى كل محكمة رجل بمقاطع الخطيب أو يسكته، كلما رآه يحاول التأثير بقوة العاطفة والألفاظ، وإثارة الإعجاب.

والرومان مع قوة تأثير الخطباء عندهم تركوا العنان، ولم يقيدوا الخصوم بأى قيد، ثقة بالقضاء، واعتمادا على وضوح القانون وصراحة قواعده.

وكذلك الشأن الآن فى كل البلاد المتمدينة أطلق العنان لهم، يدلون بحججهم، غير مقيدين بنحو خاص من القول، ولا بمنهاج من التعبير، ولا بطريق من التفكير والتأثير، فلا قيد إلا قيد النظام والقانون، وفى غير ذلك هم طلقاء من كل قيد. وقد حرصت الحكومات على أن يكون من رجالها من يثبت الجريمة، ويؤثم المجرمين، ويقدم نصوص القانون الموضحة للعقاب، وهؤلاء هم رجال النيابة، فلهم مرافعات فى القضايا التى تتعلق بالنظام العام، وعلى ذلك يكون عندنا نوعان من الخطابة القضائية: مرافعات النيابة، ومرافعات المحامين، ولنتكلم على ما يحسن سلوكه فى كل منهما، ليؤدى إلى المنجاح، وسيكون كلامنا بالإجمال؛ فالتفصيل لأهل الخبرة فى هذه الأعمال.

مرافعة النيابة

١ - يشبه عمل النيابة الحسبة الإسلامية، فكما أن المحتسب يرفع الدعوى فى حقوق الله سبحانه وتعالى، كبعض الحدود،ودعاوى الوقف ونحوها، كذلك النائب العمومى ووكلاؤه يرفعون القضايا فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام، وهى الجنايات المنصوص عليها فى القانون، ويقدم النائب الأدلة المثبتة للدعوى فى الجملة؛ فإن ظهر أن القرائن غير كافية للإدانة بعد رفع الدعوى فوض الأمر للمحكمة؛ فقد جاء فى منشور وزارة الحقانية الصادر فى ٢٠ إبريل سنة ١٨٩٨: وليست النيابة إلا خصما أقيم لرفع الدعوى باسم الهيئة الاجتماعية؛ ولا يوجد فى النصوص القانونية ما يسوغ لها أن تطلب براءة المتهم كما شوهد حصول ذلك فى العمل من زمن غير بعيد؛ وإذا كانت الأدلة القائمة على المتهم غير كافية لإثبات التهمة عليه لا شك أنه لا يتعين عليها أن تشدد فى طلب الحكم عليه بالعقوبة، بل الواجب الذى يفرض عليها فى مثل هذه الظروف أن تكل الأمر إلى المحكمة لتفصل فيه بما ترى، إذ هى الحكم دون سواها.

٢ - ويلاحظ أن النيابة ليست خصما من كل الوجوه فهى من ناحية أخرى لها عمل يشبه عمل القضاة؛ إذ الواجب على النائب أو وكيله أن ينظر إلى المتهم عند تحقيق اتهامه نظرة

غير متحيزة إلى اتهام بل يزن الأدلة، ويفحصها، ويتعرف المجهول منها والمستور، حتى إذا اجتمعت لديه الأسباب رفع الدعوى، وعند الإدلاء بالحجج يجب أن تكون كل جهوده متجهة إلى الأخذ بيد العدالة؛ ليضعها على ما وصل إليه من حقائق؛ فلا يحاول إنجاح الاتهام بكل الطرق، بل بطريق واحدة، وهي سرد الحقائق، وسوق الأدلة الناطقة بالاتهام، لأن القانون جعل النيابة قيمة على الحقوق العامة، ومعينة للقاضي على إظهار الحقيقة، لا على تأثيم مطلق؛ ولذا نقول إن الواجب في مرافعة النيابة أن يسودها سرد الحقائق وسوق الأدلة فلا يكون فيها ما يثير الوجدان والعاطفة إلا بقدر محدود، وإلا إذا توقعت أن الدفاع سيثير جواً كذلك، فإنها تتقدم بما تراه موصلا لغايتها من غير إفراط ولا تفريط.

٣- وكما يجب على الخطيب القضائي الممثل للنيابة ألا يكثر مما يثير الوجدان والعاطفة، كذلك يجب عليه أن يلتزم الاعتدال، ولا يندفع وراء تيار من العبارات الخطابية؛ فإن ذلك قد يستر الحقائق، ولا يؤدي إلى كشفها، وهو الواجب عليه، وإذا جاز ذلك من المحامي الذي لا يهمه إلا التبرئة، والذي هو بطبيعة عمله ينظر النظرة المتحيزة؛ فهو لا يجوز من النائب العام الذي لا يهمه إلا الحق في ذاته، والجميع بين يديه سواء، ولذا لا تكون الحماسة في خطب النيابة إلا بقدر، بل يحسن الهدوء، والاجتهاد في تصوير الجريمة، من غير مبالغة.

٤- وإذا عمد إلى وصف نفسية المتهم، فليكن بعبارات مهذبة عفيفة، لا تجني فيها، ولا ما يشبه السب، كما فعل ممثل النيابة في قضية القنابل التي كانت في سنة ١٩٣٢ ومنها ما جاء في تصوير نفسية أحد المتهمين (محمد علي) فقد قال: إني إذ أتقدم لحضراتكم بهذا المتهم. إنما أقدم نسيجا ليس له مثيل بين باقي المتهمين، حاولت أن أتفهم نفسيته، وأن أعرف حقيقة عقليته، فأعجزني، حتى لقد ظننت، وأنا أحاول ذلك أني كرجال الرقابة عليه، راغ مني كما كان يروغ منهم.

ليست نفس هذا المتهم إلا نفساً مضطربة، رمي بها وسط التيارات المتباينة، علم سطحي بالقراءة، ومطالعة مبتسرة للجرائد، وضعف في التكوين، طم على جميعه، أن كان للحين المقدور سكرتيرا لجماعة من جماعات العمال، فظن أنه أصبح شيئا مذكورا، وزاد عنده أنه كان يجالس بعض من فوقه مجالسة النظير؛ ألا ترون دلائل الفخر في قوله: أنا قوي الإرادة جداً، ولم يؤثر على أحد بطريق البلف، ألا ترون دليل الغرور في قوله عمن كانوا يراقبونه: إنه كان يمتحن ذكاءهم.. إلخ إلخ. وترى في هذا وصفا صادقا لنفسية المتهم مع النزاهة التامة في التعبير.

وإذا اعترض أحد على ممثل النيابة أو فرط من الدفاع كلام يشم منه حرج، لا ينساق في الرد فيقع في الحمأة التي وقع فيها خصمه، بل يرد في رفق وهدوء، كما فعل المغفور له أحمد زكي أبو السعود «باشا» عندما كان وكيلا للنائب العمومي، ووقف ضد محام في مجلس تأديب، فرد المحامي برد جارح، فقد قال زكي «باشا» في مذكرة كتبها في الرد: مثل النيابة في تحقيقها مع المتهمين بالجرائم مثل الطبيب يعالج الأمراض، فيوفق إلى استئصال شأفتها، ومنع أذاها عن الناس، ولكنه قد يصاب في الوقت نفسه بشيء من سمومها، كذلك حالنا مع المتهم في هذه القضية، شكاه خصومه، فحققنا شكواهم، وأظهر التحقيق إدانته، فرفعنا أمره إلى مجلس التأديب، سلم خصومه من نتائج عمله، ولم تسلم النيابة من لسانه، ولسنا ننكر على المتهم حقه في الدفاع، لأن حرية الدفاع من المبادئ التي نحترمها، ونعمل لتأييدها، ولكننا ننكر عليه تهوره في دفاعه إلى حد الطعن في الذم، وتجريح الضمائر، كتبنا مذكرتنا، كما يكتب القاضي حكمه، فقصرناها على رواية الوقائع، وبيان الأدلة، ولم نتعرض لدفاع المتهم بكلمة تؤذيه، وكنا ننتظر أن يأخذ بأدب النيابة في مرافعتها فيجعل دفاعه مهذبا أثناء المحاكمة، كما كان دفاعه مهذبا أثناء التحقيق، ولكنه لم يستطع أن يضبط قلمه، فجرى في دفاعه على أسلوب لم يألفه المترافعون، ولا تميل إليه أسماع المتأدبين.

ومن الناس من يتوهم أن إجراءات التحقيق من الأمور التي يمكن التصرف فيها تبعا للشعور والعواطف، يريدون من المحقق أن يكون لينا متساهلا، فإذا ما آنسوا منه ميلا إلى التشدد في الواجب عدوه قسوة وشدة، لأنهم لا يعرفون للواجب حدا يقفون عنده، أولئك هم الأميون الذين يجهلون القانون، وهم لجهلهم معذورون، وهم معذورون أيضا لأنهم إذا كرهوا عمل المحقق احترموا شخصه، وتهيبوه، فلا هم يصلون إلى ضميره بطعن، ولا هم يمسون ذمته بسوء.

لم يرد... أفندي أن يقف في كراهته للتحقيق عند الحد الذي يصل إليه عامة الناس في شعورهم، فسمح لنفسه بالطعن في عمل المحقق؛ ليتسع أمامه مجال القول بالظنون، بعد أن ضاق في وجهه مجال القول الصحيح وقعدت به همته عن مناقشة الدليل فزعم أني تحاملت عليه، ومعنى هذا التحامل أني هضمت شيئا من حقه، فراجعت أعمالي فألفيتها تنطبق على القانون من كل وجه. وراجعت الذاكرة فوجدتني لا أعرف شخصه؛ ولا أذكر أني صافحته في حياتي قبل أن أشتغل معه بالتحقيق، زعم أني تحاملت عليه وهو أعلم الناس بفساد هذا الزعم؛ فرأيت أن أقول كلمتي لا لأبرئ نفسي فهي أكبر من أن تتأثر بطعن لا يؤيده دليل، وإنما أقولها ليعلم الناس أن... أفندي أساء إلى النيابة بقدر ما أحسنت هي إليه في المعاملة.

رأيت منذ شرعت في التحقيق أن أسمح للخصمين بأن يأخذ كلاهما من حرية القول حقه فيها، فلا أذكر أني وقفت في وجه أحدهما لكلمة أراد أن يثبتها أو سؤال طلب أن يوجه إلى شاهد أو عمل من الإجراءات التي يسمح بها القانون ولم تكن سلطة التحقيق إلا فيصلا بين الحق والباطل، وضمان مساواة بين الدعوى والدفاع كي لا يتغلب قوي على ضعيف. ارتاح... أفندي إلى التحقيق فدافع عن نفسه هادئا مطمئنا، وقد دفعه اطمئنانه إلى الاعتراف بوقائع يعاقب عليها القانون، وما كان التحقيق ليكشف أمرها لولا اعترافه؛ وثق فاطمأن فاعترف، فكيف يتفق هذا الاطمئنان مع التحامل الذي يدعيه؟! هذا حقه في الدفاع قد استوفاه، وتلك أعمالي في التحقيق ذكرتها في الرد؛ وأبنت وجه الصواب فيها، لا أقول إني معصوم، ولا أقول إني ملك، وإنما أقول: إني لم أعمل في التحقيق عملا لا يرتاح إليه ضميري؛ تعمدت إظهار الحق بوسائل مشروعة، وأعتقد أني وصلت إليه، فإن كان في ذلك ما يغضب المتهم فأنا أول من يلتمس له عذرا؛ لأن في الحق قضاء على حياته الأدبية، وإنما لا ألتمس له العذر في طعن لا يستند فيه إلى سبب صحيح، ولا يقصد به إلا التجريح وهو يعلم أني لم أعمل إلا ما قضى واجبي به وأني كنت به رؤوفا.

هذه مرافعتي لم أذكر فيها كلمة أعتقد أنها غير صحيحة، وقد ذكرت فيها شيئا من أعمال... أفندي في قضية واحدة ليقاس عليها عمله في القضايا الأخرى فاحكموا بعمله على أخلاقه فإنما على الأخلاق تحكمون[1].

وهذا مثل قيم للرد اللاذع على تجريح الدفاع من غير إسفاف، بل بتسام واعتصام بسلطان الواجب والحق.

٦- هذا ويلاحظ ممثل النيابة أن كل تطويل في غير التحليل والتفصيل عند الحاجة إليهما إضاعة لوقت القضاء ولوقته في غير طائل، وكل إيجاز فيه نقص وعدم توضيح وإبهام إخلال بالواجب المنوط به والعدالة التي تعده من رعاتها وحماتها؛ والعاملين عليها، والداعين إليها، فليتحر الوضوح والشرح، وسرد الوقائع من غير حشو، والاقتصار على المطلوب، وعدم الإسراف في الألفاظ من غير إخلال.

٧- وعبارة النيابة تستحسن فيها السهولة والانسجام والاسترسال مع عدم تكلف التحسين، وإلا ضاعت الحقيقة وسط ضجة من الألفاظ، وسيل من التعابير، وعليه مع ذلك ألا يفوته أمران:

(١) من كتاب المرافعة للأستاذ الجداوي.

(أحدهما) أن يتجه إلى الألفاظ الفخمة الرنانة إن كان يتكلم في سلطة القانون وقوة سلطانه، ليلقي في روع السامعين مهابة القانون فيلتزموا خطة الطاعة، ويخاف العصاة صولة العقاب.

(وثانيهما) أن يلاحظ قوة رجال الدفاع، فإن وجدهم من أهل البيان واللسن، وممن يحاول التأثير بالكلام شهر عليهم مثل سلاحهم من غير أن ينسى أن عمله الدفاع عن الحق في ذاته، وأنه ليس كغيره يتحيز ويسير وراء مصلحة من يتحيز له؛ فإن كان له أن يتحيز، فللمجتمع والحق والقانون، لا لغيرهما.

مرافعات المحامين

المحامي هو العليم بالقانون الذي يستطيع أن يثبت حق ذي الحق ويدفع باطل المعتدي معتمدا في ذلك على علمه بما شرع القانون من حقوق، وما ألزم من واجبات، وما قيد به الحريات حفظا للجماعة، وتثبيتاً للمصالح.

ولسنا نتكلم هنا عن مرافعات المحامين من كل وجوهها؛ فنثبت مالهم من حقوق قانونية في حق الدفاع، وما عليهم من واجبات، وما قيدوا به من حدود؛ ليؤدوا واجباتهم على الوجه الأكمل ولانبين مراتب الأدلة، ومواضع قوتها، وما يجب اتخاذه منها في القضايا المختلفة، لا نتكلم في هذا ولا في ذاك، فهما من شأن رجال القانون والمشترعين، وذوي الدراية من المحامين، وأهل الخبرة من القضاة.

وإنما نقتصر في كلامنا على ما يتعلق بأداء المرافعات، وطرق تحضيرها في الجملة، وما يحسن في لغتها، وما لا يحسن، ومايراعيه المحامي من مقتضيات، وما ينتهزه من فرص، وغير ذلك مما هو لب الخطابة القضائية، وفي الأخذ به نجاح المحامي، والوصول إلى غايته، إن كان قد اعتمد على أدلة قوية دامغة، وفي الجملة كلامنا هنا في شكل المرافعات الخطابي.

وقبل أن نخوض في بيان هذا يجب أن نذكر ما يتحلى به المحامي؛ ليكون أقدر على النجاح في مهمته:

١ - الرغبة الصادقة في إنصاف المظلوم إن وجده؛ فإن تلك المهنة الشريفة ليست مرتزقا يتخذ للعيش فقط، بل هي عمل شريف من قبيل الإصلاح الاجتماعي قبل كل شيء، ومن

هذه الناحية تكتسب المحاماة شرفها، وينال المحامي مجدها، وإلا فهي مهنة ككل المهن لا فرق بينها وبين الصناعات المادية التي تفيد الناس في نواحيها.

قال الأستاذ الغرابلي «باشا» في محاضرة ألقاها على المحامين الذين هم تحت التمرين سنة ١٩٣١:

المحامي هو قبل كل شيء نصير المظلوم، ثم هو بعد ذلك الرجل القانوني الذي يستطيع أن ينتصر لذلك المظلوم انتصارا مفيدا، وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم الناس وظيفة المحامي، فمن وجد في نفسه ميلا فطريا لنصرة المظلوم، ومحاربة الباطل، فليسلك سبيل المحاماة إذا أراد، ومن لم يحس في نفسه بهذا الميل الغريزي، فإني أنصحه أن يبتعد عن المحاماة، وأن يشق له في الحياة طريقا آخر.

وقال في المحاماة وطلب المال: ومتى كان جمع المال غاية، فما أشقى المحاماة بهذه الغاية، بل ما أشقى العدالة بمحاماة تكون وسيلة لجمع المال؛ لأن كل وظيفة من وظائف العدالة تفسد، وتنقلب إلى خطر محقق، إذا كان صاحبها طالب عيش قبل كل شيء؛ إذ أن الوظيفة تكون في هذه الحالة مسخرة لخدمة الشخص، وليس الشخص هو المسخر لخدمة الوظيفة، فيالها من جريمة شنيعة، جريمة أولئك الذين يستخدمون وظائف العدل لإشباع بطونهم.

وقد نظرت القوانين إلى المحاماة نظرتها إلى الناصر للمظلوم؛ ولذا جعلت على المحامي فريضة واجبة الأداء وهي التقدم للدفاع عمن ليس لهم محام يدافع عنهم، أو يثبت حقوقهم متى ندبه القضاء لذلك، وإلا استحق العقاب.

٢- الإلمام التام بأحوال الجماعات، وطوائف الأمة، وعرف كل طائفة، ليستطيع أن يتخذ من عرفها، وما يجرى بين الناس في عامة أحوالهم دلائل تثبت ما يقول، وتقطع على الخصم طريق الانتصار، فعليه أن يعرف حال الزراع وما يجرى بينهم، وما هم عليه من أخلاق وعادات ومعاملات، وعليه أن يعرف حال التجار وعرفهم في مبادلاتهم وما يصطفقون به في الأسواق؛ ويسيرون عليه في الأعمال، وهكذا في كل الطوائف، فإن أقضية الناس متصلة كل الاتصال بأحوالهم وشئونهم، ويحدث لهم من الأقضية بقدر ما يحدث بينهم من شئون.

٣- قوة الانتباه واليقظة التامة، وحسن المراقبة لما يجرى في مجلس القضاء، ويقال من شهود وخصوم ووكلاء، لكي يستطيع أن يعرف المقتل، فيضرب الضربة القاصمة للخصم.

وقد قال الأستاذ إبراهيم الهلباوى فى ذلك:

كثيرا ما شعرت بتحول فى تيار فكرى إلى نقط تصلح لموكلى أستنبطها من طريقة الخصم، أو من ملاحظة المحكمة، وأعظم نعمة أشكر الله عليها توفيقى فى انتهاز هذه الفرص فى لحظاتها، ثم التعبير عنها والاستفادة منها.

٤- أن يكون متصفا بصفات الخطيب التى لا يعد المتكلم فى صفوف الخطباء بدونها، وقد بيناها، وذلك لأن المرافعة خطابة لها طابع خاص.

٥- وقد أوجب الأستاذ محمد على علوبة (باشا):

(أ) أن يكون المحامى على شئ غير قليل من أدب اللغة، ليجد فيه بغيته متى أعوزته الحاجة إليه.

(ب) وأن يكون ملما بقواعد علم النفس والاجتماع.

(جـ) وأن يكون ثابت الجنان يملك زمام نفسه عند المفاجآت، فلا يسد عليه انفعاله مسالك التفكير.

وقد علمت مما سبق ضرورة هذه الأمور للخطابة؛ ليستطيع بالأول أن يكون ذا ثروة لغوية يصرف بها فنون القول، ويسلك بها من طرائق البيان أقربها توصيلا، وليعرف بالثانى كيف يثير الوجدان والأهواء فى الناحية التى يريدها، ولكيلا تطيش حجته إذا أخذته الرهبة، واستولت على لبه مفاجآت الخصوم.

٦- الهدوء التام، ومجانبة الغضب، والاجتهاد فى ضبط نفسه، وعدم مسايرتها فى سبيل الغضب إن لم يستطع التخلى عنه؛ فإن المناقشات التى يسودها الغضب تندفع إلى المهاترة، والمهاترة نوع من الحمق والجهل كما ذكرنا؛ ولأن المحامى إذا استرسل فى غضبه، ضاعت حجته، وضل محجته، ويوجد الخصم الطريق إلى الغلب، وكثيرا ما يثير الخصم الأريب خصمه الغضوب؛ ليقتنص منه الحجة، ويستحل منه القضية، ويتركه يحرق الأرم، ويعض بنان الندم، فليعتصم المحامى بالهدوء فى مساجلاته؛ ليستطيع أن يسدد السهام، وهو ثابت الجنان، فلا يبتعد عن الهدف.

هذه بعض ما يتحلى به المحامى من صفات، وما يكمل نفسه به من تهذيب، وقد آن لنا أن نبين طرق إعداده المرافعة، وطرق الإدلاء بها، ولغة المرافعات.

إعداد المرافعات:

إن إعداد المرافعات يجب أن يتناول الدرجات التي بها يصل المحامي إلى غايته، وتلك الدرجات ثلاث:

أولاها : جمع عناصر القضية، واستخلاص الأدلة.

ثانيها : إعداد العدة للرد على ما عساه يجري على ألسنة الخصوم ووكلائهم من أدلة.

ثالثها : التفكير في الأسلوب الذي يتجه إليه، والمسلك الذي يسلكه ليصل إلى إحساس القاضي ويمس به وجدانه.

أما جمع العناصر والأدلة فيكون:

١– بدراسة أوراق القضية واستيعاب أجزائها، واستقرائها استقراء تاما، بعد الاستيثاق من أنها كاملة لم ينقص منها شيء، حتى إذا أتمها قراءة، ولم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا غاص في فهمها واستبطان ماحوته.

٢– رتب ما أخذه منها، ووضعه في وضع مسلسل متماسك الأجزاء.

٣– ثم يستنبط منه ما يراه مؤيدا لما يريد، وإذا رأى في هذا الكفاية اقتصر عليه، وإلا اتجه إلى القانون يستنطق مواده، ويغوص في قواعده؛ حتى يصل إلى ما يراه مؤيدا له، مثبتا لما يريد موكله، ولو على سبيل الرجحان لا اليقين.

وهنا يثار بحث هو: هل يجب على المحامي ألا يتقدم للمرافعة في قضية، إلا إذا وجد أن ما تحت يده من الأورق والأحداث يثبت أن موكله على حق مبين؟ أم يصح أن يتقدم للدفاع، ولو اعتقد البطلان؟ يرى بعض كبار المحامين، وبعض أولئك الذين أخذهم سلطان الحق والفضيلة والغيرة على تلك المهنة الشريفة أنه لا يصح للمحامي أن يقف إلا إذا كان مؤمنا تمام الإيمان بحق وكيله فيما وكله فيه، وإلا كان في عمله تلبيس على القضاء، وعرقلة للعدالة، وسعي في نصرة الباطل.

ونحن نوافق صاحب هذا القول في القضايا المدنية والشرعية التي لا شبهة فيها، والتي يلوح فيها حق الخصم واضحا مكشوفا، فعلى المحامي أن ينصح لموكله بالصلح، ويبين له جلية الأمر، ليحسم الخلاف، ويعلمه الناس ثقة لا ريب في ذمته، وإن كان الأمر موضع نظر، وأن

الحق فيها قد التبس بالباطل، ولم يتضح له جانب منهما، تقدم وأثبت بما يراه موصلاً، غير أنه لا يصح له أن يسلك من الوسائل الموصلة، إلا ما يعتقد كل الاعتقاد أنه حق يؤيده القانون، ومن غير تلبيس ولا تضليل.

أما القضايا الجنائية فإن المحامي يجب عليه أن يدافع، ولو أن المتهم جان، لأن الواجب أحد أمرين، إما نفي الجريمة إن لم تكن الأدلة عليها قائمة بيقين، وفي هذه الحال يكون دفاعه عن بريء بمقتضى القانون.

إذ المتهم بريء ما لم يقم الدليل القاطع على جريمته، فلا شيء في الدفاع حينئذ.

وإما تصوير الحال التي وقعت فيها الجريمة استدراراً للعطف وإثارة للرحمة، وليس المحامي في هذه الحال إلا رسول المتهم يصور حاله، وينطق بجنانه، ويعرضه لمجلس القضاء. وإن نظرة عاجلة إلى المجرمين ترينا أن كل مجرم منهم لابد أن يحيط جريمته بأحوال نفسية شاذة تخفف من حدة الجناية، وتلطف من شدة وقعها، اللهم إلا العتاة القساة الذين يتخذون الإجرام مرتزقاً من غير اضطرار، فالمحامي يبين كل ما يصح أن يكون دفاعاً. ولقد لاحظت القوانين ذلك، فأوجبت أن يكون لكل متهم في جناية محام يدافع عنه، فالنيابة قد تقدم الرجل إلى المحاكمة، ويده مخضبة بالدماء، ومديته تنطف دماً، أو صدى الرصاصة التي ألهب بها رأس المقتول يدوي في الآذان، ومع ذلك تنتدب له المحكمة من يدافع عنه، إذ يجوز أن يكون مما أحاط بالجناية ودفع إليها، ما يخفف من شرة هذه الجريمة، وما دامت النيابة تترافع ضده، فليكن من المحامين من يدافع عنه.

ولذا نقول إنه في إعداد المرافعة إذا لم يوصله بحثه في القانون وحوادث القضية وأوراقها إلى ما يثبت الدعوى بيقين، فليكتف بالرجحان، فإن لم يكن رجحان ولا شبهة، فليرفض الدفاع في القضية المدنية والشرعية، وليقدم في القضية الجنائية، وعلى المحامي في هذه الحال أن يشعر بشعور المتهم، ويحس بإحساسه، ليستطيع أن يدافع عنه بحرارة، ولينقل وجدانه إلى المحكمة.

قال بعض البلغاء في وصف محام قدير وسر مقدرته أنه يتعمق في درس الدعوى، ويلج إلى قلب القضية، فينظر بعين المتهم، ويحس بأعصابه، فيغضب غضبه، ويصيح صياحه، كأنه يطلب الرحمة لنفسه، ويترجم عن يأس المسكين بيأسه، يأخذ شبكة الاتهام، ويلقيها على نفسه بافتخار، ثم يقطعها تقطيعاً، كأنه من مصارعي الرومان.

وأما إعداد الردود على ما عساه يكون دليلا؛ فيكون بأن يتخيل نفسه في موقف خصمه، ثم ينظر في القضية بنظره، ويجمع الأدلة التي تصلح له، ثم يعود عليها بالهدم لبنة لبنة، وبذلك يغشى مجلس القضاء، ومعه كل الأسلحة، فليقدر شهادات الشهود، ثم يستعد للرد عليهم، وليعرف أقوال الخصوم، وليلتمس من ثناياها ما يهدم مطالبهم؛ وليحذر أن يكون السب مما يعده من الذخائر، فإنه سلاح ذو حدين، وربما كان ضرره أكبر من نفعه. ويظهر أن بعض الناس يتخذ من المحامي والخصومة ذريعة للنيل من كرامة خصمه، فليحذر المحامي أن يطوع لهذا الصنف من الناس وأن يكون سيفة في يده، ولا يصح أن يعبأ برضاه أو سخطه، فإنه إن جعل رضاه مقياسا لجودة المرافعة، نزل بها من عليائها.

وقد جاء في كتاب المحاماة لأحمد فتحي زغلول «باشا» أن مونتسيكو أوصى المحامين من هذه الناحية قائلا:

أيها المحامون، إن فيكم غيرة على حقوق موكليكم، ونحن نمتدح ذلك منكم، لكن غيرتكم تكون جريمة إذا أنستكم ما يجب عليكم نحو خصومكم، نعم أنا أعرف أن واجب الدفاع يقتضي ذكر سيئات خصومكم التي طوتها الأيام، إلا أن في ذلك ضررا لا يخفى، ونحن لا نسمح لكم بذلك إلا إذا قامت الضرورة على أنكم كنتم إليه ملجئين.

خذوا عنا هذه الحكمة، واذكروها على الدوام، لا تقولوا الحق إذا لم يكن له من أثر غير الإضرار بغضلكم وكرامتكم، فما أشد تمس اللسن إذا كان في أكل لحم الغير ميتا، ولعلنا لا نتألم من أمر، ولا يكدر صفونا أكثر من تجاوز بعض الألسنة حد الكمال في المقال،

إن الذي تضحك منه الناس لا يفرحنا، ولكنا نبكي دائما على أولئك التاعسين الذين يشان شرفهم، وتنتهك حرماتهم بقوارص المطاعن والكلام.

أيليق أن يلحق الخزي، ويركب العار كل من اقترب من رحاب هذا المجلس المقدسة؟ بالأسف! هل يخشى البعض أن تظهر العدالة خالية من كل عيب، بعيدة عن الرذائل والمساوئ؟ وأي عمل يساء به الخصوم أكثر من انتحابهم وحرقتهم إذا خرجوا من الخصومة كاسبين، وقد جعلت حدة القول مذاق العدل مرا، ناشدتكم الذمة، ما الذي نجيب به قوما يقولون لنا: أيها القضاة، إننا أتينا للمثول بين أيديكم، فكان حظنا أن رمينا بالنقائص، وألبسنا جلابيب المخازي، ولقد انكشفت لكم جراحنا، فلم تضمدوها، وجلستم لتنصفونا من إساءات أصابتنا بعيداً عنكم، فنالنا من الإساءات أمامكم ما هو أعظم، وأشد وقعا، فلم تفوهوا ببنت

شفة، وأنتم الذين كنا نراكم في مجلس قضائكم ملائكة الأرض؛ فسكتم كأنكم أصنام من الخشب أو الحجارة لا تنطقون، تقولون إنكم وليتم القضاء لتحفظوا علينا أموالنا، وإن شرفنا أعز علينا من كل مال، ولتحفظوا أرواحنا، نعم وإن الشرف أعز على النفوس منها، فإن لم تستطيعوا أن تردوا جماح خطيب أخذته حدته، فدلونا على مجلس قضاء أعدل منكم، وأحفظ لحقوقنا، وما يدرينا أنكم لم تقتسموا تلك اللذة البربرية التي طلبها خصومنا، ولم تفرحوا بما نالنا من اليأس! وما نولنا من الأضرار! وإن سكوتكم الذي نعده ضعفا منكم هو في الحقيقة إثم قد ارتكبتموه عمدا واختيارا.

أيها الحاضرون، ليس لنا طاقة على احتمال مثل هذا التعب والتعنيف، ولا نريد أن يقال إنكم كنتم في ترك الواجب عليكم أسرع منا في أدائه.

وكما لا يصح أن يجعل الرد على الخصوم سبا وشتما، لما ذكره ذلك القاضي الحكيم، كذلك لا يصح أن يجعل الرد على شهادات الشهود بتجريح ذم الأخيار. فإن ذلك فوق أنه طعن في الذم بالباطل، وتلبيس على القضاء، وعمل لا يليق بشرف المهنة، ولا بأدب الخطابة، هو منع لفضلاء القوم من أن يؤدوا الشهادة، وحمل لهم على أن يكتموها، وفي ذلك ضياع للحقوق، وإهدار للدماء، وعرقلة للعدالة في كل نواحيها.

وقد قال روس، كما جاء في كتاب المحاماة:

ومن الأسف أن بعضهم عندما يعجز عن تفنيد الشهادة وبيان سقوطها يرجع على الشاهد بما يحط من قدره، ويسقط من اعتباره، فيصليه نارا حامية، وقودها التخيلات الوهمية، والشبهات التي لا دليل عليها، وينسون أنهم بذلك يلحقون الضرر برجل من الأخيار أدى واجبه، ليخلصوا رجلا من الأشرار خرج على القانون بجريمته، وإنهم يمتهنون الفصاحة والعقل باستعمالهما في خدمة الأثيم ضد المستقيم، حتى يتسنى لهم أن يقولوا لقد نجينا المجرم بقوة البيان وفصاحة المنطق وذلاقة اللسان، لكن ذلك مجد لا يستقر زمنا طويلا في الأذهان.

وأما ترتيب المرافعة: فيكون بأن يبدأ بحصر وقائعها مسلسلة، ثم يستنبط من الحوادث الأدلة التي يراها مؤدية لمطلوبه، ويذكر الحجج القانونية التي يعتمد عليها في تقرير ما يقرر، وليلاحظ عند ترتيب المرافعة الأمور الآتية:

١ – أن يبدأ بأقوى الأدلة التي يتقدم بها عند ذكر الأدلة، فإنه إن فعل ذلك سبق إلى ذهن القاضي عدالة مطلبه، والفكرة الأولى عن شيء شديدة الثبات، قارة في النفس أبلغ قرار، وإزالتها من النفس تحتاج إلى مجهود قوي، وثمن أغلى.

٢- أن يسهل على القاضي الاستنباط، فيذكر له الحوادث في صورة ناطقة بما يريد؛ ليسبقه القاضي إلى إدراك ما يريد أن يستنبط، حتى إذا ذكر له ما يستنبطه تمكن في نفس القاضي فضل تمكن، ويجيء في الصورة موافقا لتفكير القاضي، وقد استثاره هو في نفسه بحسن تصويره، فيجتذب بهذا ميله إليه.

٣- أن يكون على إلمام تام بنفسية القاضي وأسلوب تفكيره، وما يستهويه من الآراء وما يستثيره من الأفكار والمعاني؛ ليستطيع أن يمد في مرافعته ما يشبع رغبته الفكرية، وليجعل كلامه صورة لما في ثنايا نفسه، فيسكن في قرارتها، إذ يجد ما يلائمه، ويعيش مع ما يوالمه؛ وليستطيع أن يعيش في الجو الذي يعيش فيه القاضي؛ فيكون بينهما فهم متحد في كل ما يقدم من أدلة واستنباطات.

طرق الإدلاء بالمرافعة:

إلقاء المرافعة هو روحها، وهو عمادها، وإليه يعود جزء كبير من نجاحها؛ إذ بغير حسن الإلقاء وجودة الإدلاء لا يكون للتحضير قيمة؛ ولا للإعداد أثر، ومثل المحامي الذي يجيد الإعداد، ولا يجيد الإدلاء كمثل المعلم الذي يجيد تحضير الدروس، ولا يحسن إلقاءها.

وليكون الإلقاء جيدا لابد من مراعاة أمور حق الرعاية، منها:

(أ) ألا يلقي مذكرات كتبها ودونها، بل لابد أن يلقي مشافهة لكي يستطيع أن يشرف بنظراته؛ فيدرك كل ما يحيط بقوله، من إقبال أو إعراض، من تنبه أو انصراف، ولكي يستطيع أن يشرك في التصوير حركاته ونظراته. والجمود على ألفاظ مكتوبة قد يحبس الذهن عن التصرف التام في فنون القول على حسب المقام، ولهذا يقول الخبراء: إن أقل المرافعات تأثيرا ما كان مكتوبا؛ لأنها لا يستفيد فيها المحامي من الجو الذي يسود مجلس القضاء، ولا يتخذ منه قوة له.

(ب) وأن يلاحظ القاضي في إقباله أو إعراضه؛ وفي نظراته وإشاراته، لكي يسير في طريق واحد، وفي متجه واحد، فإن لاحظ منه إقبالا في نقطة أشبع فيها القول، وإن لاحظ منه إعراضا في ناحية لا يصارحه بالمخالفة في وجهة النظر لأن للمصارحة بالمخالفة مخاصمة، والمخاصمة تباعد ما بين المتناقشين، وتوسع الهوة ما بين المتخاطبين، وما وقف أمامه ليخاصمه، بل ليعاونه في إظهار الحق، وليستدنيه إلى وجهة نظره. ولا يترك الأمر الذي أعرض عنه مرضاة له، فقد يكون في ذلك ضياع للحق، وإخلال بواجب الدفاع، بل يعمد إلى الرفق والأناة،

ويترك مؤقتا التصريح فيما اعترضه فيه؛ ثم يأخذ في شرح أمور مسلم بها من الجميع تثبت صحة ما اعتزم قوله؛ ثم يهجم به فلا يجد إعراضا، وعليه ألا يظهر منه في أثناء ذلك ما يدل على أنه فهم إعراض القاضي عندما أعرض، لأن القاضي إذا فهم أن الخصم علم إعراضه، ثم ميله إلى التسليم، ربما قاوم نزعة التسليم؛ لأنه بشر يهمه أن ينصر فكرته، إن ظهرت للناس.

(جـ) أن يلاحظ وقت القاضي، فلا يطنب إلا إذا وجد متسعا من الوقت، ولم يغن الإيجاز عن الإطناب، لأن الإطناب حيث أغنى الإيجاز تطويل ممل، وإسراف في القول من غير حاجة داعية إليه، والإطناب حيث يضيق صدر القاضي بالسماع، وحيث لا يتسع الوقت له تكليف بما لا يطاق، فليوازن المحامي بين وقت القاضي، ومصلحة القضية، والقول اللازم، وبذلك ينال السداد وحسن الاستماع والانتباه والوصول إلى الغاية المطلوبة، والضالة المنشودة.

(د) إعطاء المرافعة حياة وقوة بتغيير النبرات، برفع الصوت حيث يلزم الرفع، ويخفض في موضع الخفض، ويبدي تأثيره بالحق الذي كان مضيعا، أو بالعطف على الجاني إن أراد أن يستدر عطف القضاة عليه، ويسرع أو يبطئ في القول، حسب مقتضيات الأحوال؛ فيسرع في مواقف الحماسة، ويتأنى في مواقف الروية، وكأنه في هذه الحال يسير على قمة جبل تحته الهاوية، فيقدر للرجل قبل الخطو موضعها.

وإعطاء المرافعة حياة وقوة يخلق في مجلس القضاء جوا فكريا عاطفيا يساعد على توجيه القضاء إلى ما يريد.

وإن المرافعة القوية بروح ملقيها، وحسن تصريفه، وقوة دلائله وظهور استنباطه تضع في رءوس القضاة صورا فكرية صادقة النقل لحق من يدافع عنه، إن كان الحق هو المراد.

لغة المرافعة:

ألفاظ الخطيب وأساليبه، يجب أن تكون ملائمة كل الملاءمة للذوق العام الذي يسيطر على البيئة التي يخطب فيها، ولعرف الجماعة التي يخاطب أحد أشخاصها، وقد بينا ذلك فيما سلف من القول، وهنا نقول إن لغة المرافعة يجب أن تكون ملائمة للذوق اللغوي الذي يسود أهل القانون، وأساليب تخاطبهم؛ والألفاظ الشائعة بينهم. ولغتهم في الحقيقة قريبة من الفصحى، وأعلى من العامية، وهم في ذلك ككل المثقفين بثقافة أدبية تهذيبية اجتماعية في مصر؛ فعلى المحامي إذن أن يتحرى في مرافعاته أن تكون بلغة مرسلة لا تكلف فيها ولا تحسين ولا سجع، ولا ما يشبه السجع، تسودها السهولة بحيث تكون قريبة من لغة أولئك الخاصة

المثقفين، لا تتنادق فيها ولا تفيهق، ولا نزول إلى العامية، ونحن لا نبيح له العامية إلا في حالين:

إحداهما : إذا أراد أن يأتي بملحة تفكهة للسامعين.

ثانيتهما : إذا لم يستطع تصوير فكرته تماما إلا بالعامية، أو أراد أن ينقل عبارة شاهد، ليناقشها، فإن العامية تباح في هذه الحال اضطرارا.

وقد يلجأ المحامي إلى العبارات الفخمة القوية الرنانة في بعض القضايا الجنائية، ليهز إحساس السامعين والقضاة، كما إذا أراد أن يصور حماسة المتهم في الدفاع عن نفسه أو عرضه مثلا، فإنه يتكلم بعبارات قوية تقرع الحس، ليكون في ذلك ناقلا لقوة حماسة موكله، واندفاعه فيما يفعل.

ويجب على المحامي في دفاعه أن يغير أساليب القول ويصرفها، فمرة يقول مستفهما، وأخرى متعجبا، وثالثة قصصيا، ورابعة مستنكرا، وهكذا ينوع عباراته؛ ليكتسب كلامه جدة.

وعليه أن يسوق كلامه في صورة مشوقة، يبتدئ بعبارات مثيرة لاهتمام السامعين؛ موعزة لأفكارهم، حتى إذا تمت تهيئة الأذهان دفع إليهم بكل ما يريد، وهكذا في كل أجزاء دفاعه، حتى يتم له النصر. والله المستعان.

خطب الوعظ الديني

تمهيد في بيان وجوبه وحاجة الناس إليه

١ - الوعظ الديني هو الأمر بالمعروف في الدين، والنهي عن المنكر فيه، وقد أجمعت عليه الشرائع، واتفقت على وجوبه الأديان، فعليه قد قامت الدعوة إليها، ومن ينبوعه تغذت النفوس البشرية غذاءها الروحي؛ ومن ضوئه اقتبست نورانيتها، وقد قال في وصفه الغزالي:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد.

والأدلة على لزوم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر- كثيرة في الشريعة الإسلامية؛ حتى لقد عدت بحق شريعة التواصي بالحق، والتناهي عن المنكر؛ فقد قال تعالى: ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر** ﴾. وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون** ﴾. وقال تعالت كلماته: ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله** ﴾.

وقد روى أن النبي ﷺ قال: «ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله، إلا كنفثة في بحر لجي، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- إلا كنفثة في بحر لجي».

وقال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

٢ - والأخبار متضافرة بما كان عليه سلف هذه الأمة من القيام بذلك الحق؛ لايهابون في ذلك سلطان ذي سلطان، ولا تأخذهم رأفة في دين الله، ولا هوادة في إقامة حقه، والأخذ بناصر دينه، كل شئ هين في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وكل عذاب سهل مساغ إذا كان من كلمة حق قالوها؛ لا يمنعهم من أن يصدعوا بها أقوى الحكام عتواً، وأشدهم قسوة؛ وأبعدهم في الأذى منالا؛ وما أخبار وعاظ التابعين مع الحجاج وأشباهه من

حكام بني أمية بعيدة عن الأذهان؛ كانوا لا يتخلون فيما يفعلون تقية، ولا يرضون في دينهم بالدنية.

يروى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق، وفيهم الحسن البصرى والشعبى، وأخذ يحادثهم فذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه، فنال منه، وجاراه من معه تقربا له، وأمنا من شره، إلا الحسن البصرى، فصمت على مضض وعض على إبهامه؛ إذ غلى مرجل غضبه، فالتفت إليه الحجاج وقال: يا أبا سعيد، مالى أراك ساكتاً؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرنى عن رأيك فى أبى تراب. قال: سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله، وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾؛ فعلى ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول: ابن عم النبى ﷺ، وختنه على ابنته، وأحب الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات؛ سبقت له من الله، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه؛ ولا يحول بينه وبينها. وأقول: إن كانت لعلى هناة فالله حسبه. والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا. فبسر وجه الحجاج، وتغير، وقام عن السرير مغضبا، فدخل بيتا خلفه، وخرج الجمع؛ فقال عامر الشعبى: أغضبت الأمير، وأوغرت صدره، فقال: إليك عنى ياعامر، يقول الناس: عامر الشعبى عالم أهل الكوفة، أتيت شيطانا من شياطين الإنس تكلمه بهواه، وتقاربه فى رأيه؛ ويحك ياعامر، هلا اتقيت إن سئلت، فصدقت، أو سكت؛ فسلمت.

قال الشعبى: يا أبا سعيد، قد قلتها، وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذاك أعظم فى الحجة عليك، وأشد فى التبعة.

وبعث الحجاج إلى الحسن. فلما دخل عليه، قال: أنت الذى تقول: قاتلهم الله؛ قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم! قال: نعم. قال: ما حملك على هذا؟ قال: ما أخذ الله على العلماء من المواثيق ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال: ياحسن، أمسك عليك لسانك، وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره؛ فأفرق بين رأسك وجسدك.

هكذا تكون قوة الإيمان، وهكذا يكون الأخذ بتلك الشريعة المستقيمة؛ والفريضة المحكمة، فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تلك الفريضة التى لو أخذنا بها كما أخذ ذلك السلف الصالح، لارتبط حاضر الأمة بماضيها، ولاتصلت نفوس الحاضرين بنفوس السابقين بتلك الأمراس النورانية.

٣- وقد ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاث مراتب:

فالمرتبة الأولى -- دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير؛ ليشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى، وقد أوجب الله ذلك على المؤمنين، فقال تعالى في وصفهم: **﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر ﴾**.

والمرتبة الثانية -- دعوة المسلمين بعضهم بعضا إلى الخير، وتأمرهم فيما بينهم بالمعروف، وتناهيهم عن المنكر، ببيان طرق الخير، وتطبيق ذلك على أحوال الأمم، وضرب الأمثال، ويقوم بهذه وسابقتها العارفون بأسرار الشريعة، وهم الذين قال تعالى فيهم. **﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة، ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾**.

والمرتبة الثالثة -- تكون بين آحاد الأمة علماء وجهلاء بالتواصي على الحق، والتناهي عن المنكر، كل بما يعرفه، فإذا رأى أحد المسلمين مسلما يتردى في موبقة هو يعلمها، ولو لم يكن من الخاصة تصدى لنصحه وإرشاده. وبيان ما أمره به الدين، وما ينهاه عنه في هذا المقام.

٤- وقبل أن نترك هذا نشير إلى أمر جدير بالنظر، فقد اعترض بعض الذين ضعفت عزائمهم، وأرادوا أن يسكتوا ويطمئنوا، فلا يقوموا بذلك التكليف العظيم- بقوله تعالى: **﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾**. ولا نجيب هؤلاء بغير المأثور عن صاحب السنة الشريفة الذي بين للناس ما نزل إليهم:

فقد روى أن أبا ثعلبة الخشني سأل رسول الله ﷺ عن معنى قوله تعالى: **﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾** فقال: يا أبا ثعلبة، مر بالمعروف وانه عن المنكر، فإذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بنفسك، ودع عنك العوام؛ إن من ورائكم فتنا كقطع الليل المظلم؛ للمتمسك فيها بمثل ما أنتم عليه أجر خمسين منكم، قيل: بل منهم يارسول الله. قال: لا، بل منكم؛ لأنكم تجدون على الخير أعوانا، ولا يجدون أعوانا.

[illegible] هذه الكلمات الموجزة علمت مقدار عناية الدين الإسلامي بالأمر بالمعروف والنهي [illegible] ولا غرابة في أن يعني به ذلك الدين السمح، فإنه بناء الأمم، وحافظ الجماعات [illegible] بها من التردي في مهاوي الضلال والفساد، وما الرأي العام الذي تعترف له

الأمم بالسلطان وتجعله مقياس الرقي فيها، ودليل التقدم أو علامة التأخر، إلا وليد الإرشادات، وثمرة التواصي بالخير، والتناهي عن الشر، وإن شعور كل امرئ بأن عليه من الجماعة من له كالرقيب العتيد، يحصي عليه سيئاته ويعد له حسناته، يدفعه إلى الكمال، ويسير به في طريق الرقي.

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له هذه القوة، ولو كان معتقده العقل، وما يراه الناس حسنا، فكيف يكون الشأن لو كان ذلك تحت سلطان الدين، وإجابة لندائه، ودعوة إليه؟

٦- إن الجماعات لا تصلح إلا بالدين، ولا يقوم لها شأن بغير هدايته، ولا تستقر إلا بقوته، لأن الأديان تهذب العالم، والجاهل، وذا العقل القوي، وصاحب العقل الضعيف، فهدايتها عامة شاملة لا تخص فريقاً دون فريق، بل إن الجماعات مهما تكن ثقافتها ومعارفها تخضع للدين، وتستولي على مشاعرها آياته.

قال العلامة جوستاف لوبون في كتابه (الآراء والمعتقدات): وإذا نظرنا إلى المنطق الديني من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية، فإننا نراه ذا تأثير في الفنون، والآداب والسياسة... ولا تزال البقاع التي ارتادها العلم محدودة... ولا شك في أن سيطرة التفكير الديني على البشر ستمتد زمنا طويلا. اهـ.

نعم ستمتد سيطرة الدين إلى يوم الدين، لأنه سلوان الجماعات، وعزاء البائسين وعزة المغلوبين.

إن الدين هو الذي يربي الوجدان الفاضل، ويهذب الضمير، ويوقظ شعور الإنسان بالفضيلة، فإرشاده يمس مواطن الإحساس في النفوس ويؤثر فيها أبلغ تأثير، ويصل إلى الأعماق في الهداية والصلاح.

٧- والدين الإسلامي في عمومه في الأحكام يشبه قانون الأخلاق من حيث إنه يحكم على كل أفعال الإنسان الإرادية بالخير أو الشر، فكذلك يحكم الإسلام على كل الأفعال بالقبول عند الله أو عدم القبول، وكما أن الأخلاق تنوط الأحكام بالأغراض والمقاصد، كذلك الدين ينوطها بالنيات، ففي الحديث الصحيح «إنما الأعمال بالنيات» وفي الأثر «البر ما حاك في النفس، فاستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك».

ولما كان للإسلام هذا العموم في الأحكام كان صالحا لإرشاد الناس في كل أمورهم، وكان للواعظ الإسلامي من النفع بمقدار ما يستطيع أن يقدمه من إصلاح في بناء الحياة الاجتماعية عند المسلمين، ولقد لاحظت الحكومة ذلك؛ فطلبت إلى الوعاظ في المساجد أن يخطبوا في بعض أمور اقتصادية أو زراعية أو صحية، ومن أمثلة ذلك أن وزارة الأوقاف أمرت خطباء المساجد أن يخطبوا في الوقاية من السل، وأرسلت إليهم نص الخطبة، ومما جاء فيها: عباد الله، كم لله علينا من نعمة، وكم فيما شرعه من حكمة؛ فعلينا أن نشكر لله نعمته، ونعمل ما نرجو به رحمته، لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد، خلق الله الداء، وخلق معه الدواء، وقدر به الشفاء، فمن يرجو من الله شفاء علته، فليتبع ما أرشد إليه في كتابه، وليعمل بنصائح أهل الذكر، فقد قال تعالى في كتابه المكنون: ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾. وإن من أشد الأمراض فتكا بالإنسان مرض السل القتال، وقانا الله شره، وخلف عن المصابين ضره. وإن على المصاب واجبين: واجبا لنفسه، وواجبا لغيره؛ فإذا قام بواجبه نحو نفسه، وواجبه نحو أبناء جنسه، فرج الله كربته، وأذهب علته... يجب على المريض بهذا الداء أن يمتنع عن بلع بلغمه؛ فإن في ذلك إضراراً بباطنه، وخطراً على باقي أعضاء جسمه. ويجب عليه ألا يشرب لبناً قبل غليه، فربما كان فيه من جراثيم المرض ما يزيد علته، ويضعف علاجه. ويجب عليه أن يتخذ لنومه غرفة خاصة به؛ فإن هذا أرجى لشفائه، وأبعد عن أذى غيره، ويجب أن تكون الغرفة الخاصة به تتخللها الشمس والهواء؛ فإن في حرارة الشمس وتجدد الهواء عونا على قتل جراثيم المرض، وتطهير الغرفة من آفاته. ويجب أن تتعهد الغرفة بالتنظيف والتطهير؛ فإن فيهما وقاية من المضاعفات، وتخفيفا لويلات الآلام.

هذه واجبات المريض نحو نفسه، فعليه أن يقوم بها، ولا يهمل واحدة منها؛ فإن الله سبحانه وتعالى نهانا أن نلقي بأيدينا إلى التهلكة، وأمرنا أن نقي أنفسنا من الأمراض، وندفع شرورها ونتلافى أضرارها، فمن أهمل في واجبه فإنما إثمه على نفسه.

- وأما واجب المريض نحو الناس فألا يعرضهم لأذاه، وألا يكون سببا في إصابتهم بمثل ما أصيب به، فإن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده... فالله الله في صحتكم؛ فلا تهملوها، وفي صحة الناس فاحفظوها، وفي نصائح الأطباء الصادقين فنفذوها، وفي كل حسنة فافعلوها، وفي كل سيئة فاتركوها...

روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل». وفي مسند أحمد عن أسامة بن شريك قال كنت عند النبي ﷺ،

وجاءت الأعراب فقالوا: أنتداوى يارسول الله فقال: نعم ياعباد الله، تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد، فقالوا: ما هو يارسول الله؟ قال: الهرم.

ألا ترى أن منشئ هذه الخطبة بين أن التداوي والوقاية من السل عمومًا مقبولان مطلوبان في الشرع الإسلامي؛ وبنى على ذلك حث السامعين على العناية بهذين الأمرين، وبين بعض طرق الوقاية وضرورة الأخذ بأهل الخبرة من الأطباء الثقات. وإذا كان الإسلام له ذلك الشأن في الإصلاح، فالوعظ المبنى الذى يدعو إلى الفلاح تحت ظلاله ينال الفوز والسبق، والجماعة التي تأخذ بهديه تنال السعادة والسلام.

ولقد سبقتنا أمة قامت على أساس هديه، ومدنية شمخت على دعائم وعظه، فقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عنهم يتخذون من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وما يدعوان إليه وسائل إلى الإصلاح؛ فكونوا دولة أخذت ملك كسرى، وهزت عرش قيصر.

الوعاظ والمرشدون:

ذكرنا المراتب التي بينها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وقلنا إن المرتبتين الأوليين (وهما دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وإرشاد عامة المسلمين) لا يقوم بهما إلا العالمون بأسرار الشريعة، الفاهمون لمراميها، المدركون لغاياتها، وهؤلاء هم الوعاظ المرشدون المشار إليهم في قوله تعالى: **﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ﴾**. وعملهم شريف عظيم، لأن الذى يقوم به يبين شرع الله للناس، ويصلح به دنياهم وآخرتهم، ويربى وجدانهم، ويهذب نفوسهم، ويرشدهم إلى طريق الفوز، والخروج من آلام هذه الحياة، ولشرف ذلك العمل أشار الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسير الآية السابقة إلى أن الأمة تختار مرشديها، وتراقبهم، فقال رحمه الله: والمخاطب بهذا جماعة المؤمنين كافة، فهم المكلفون أن ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة، فهنا فريضتان: إحداهما على جميع المسلمين، والثانية على الأمة التي يختارونها للدعوة... والمراد بكون المؤمنين كافة مخاطبين بتكوين هذه الأمة لهذا العمل، هو أن يكون لكل شخص منهم إرادة وعمل في إيجادها، وإسعادها، ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة، حتى إذا رأوا منها خطأ أو انحرافا، أرجعوها إلى الصواب. وقد كان المسلمون في الصدر الأول، ولاسيما في زمن أبي بكر وعمر على هذا المنهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة، حتى كان الصعلوك من رعاة الإبل يأمر مثل عمر بن الخطاب (وهو أمير المؤمنين) وينهاه فيما يرى أنه الصواب، ولا يدع فالخلفاء

على نزاهتهم وفضلهم ليسوا بمعصومين. وقد صرح عمر بن الخطاب بخطئه، ورجع عن رأيه مراراً.

والصفات التي يجب توافرها في المرشدين الداعين إلى دين الله كثيرة، إذ هي صفات الكاملين يفيضون بفضلهم على من هم دونهم، والكمال البشرى بعيد المدى، مترامى الغايات، كل يسعى منه إلى شأو، ويصوب سهمه نحو هدف من غير أن يبلغ الغاية، ويصل إلى النهاية.

ولنذكر لك بعض المشهور مما يجب على الواعظ التحلي به:

١ – يجب أن يكون الواعظ فيه صفات الخطيب، وقد ذكرناها موضحة فارجع إليها.

٢ – ويجب أن يكون على حظ عظيم من الشجاعة المعنوية، يصرح برأيه، وبالحق الذى يراه في الدين واجب الرعاية، لا يهمه في ذلك إغضاب أو إرضاء أحد من البشر، فما وقف نفسه للإغضاب أو الإرضاء، بل وقف نفسه للإصلاح والهداية، ولا يهمه الأذى من المخلوق، مادام يعمل لإرضاء الخالق. قال الغزالي في الإحياء: أوصى بعض السلف بنيه، فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف، فليوطن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى، فإذن من آداب الحسبة توطين النفس على الصبر؛ ولذا قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف حاكيا عن لقمان: ﴿ **يابني، أقم الصلاة، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك** ﴾.

وليس معنى ذلك أن يجافي الواعظ الناس ويخاشنهم، فإن الموعظة الحسنة والحكمة هما طريق الدعاية الإسلامية الأولى، فقد قال تبارك وتعالى: ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾ فليأخذهم بالرفق في القول، ولكن لا يسايرهم فيما لا يرضاه الدين، بل يصدع بالحق، ولا يرجو لغيره وقاراً، فإن لان ففي سبيله، وإذا اشتد فحيث دعا داعيه إلى الشدة، يلين لينال حق الله، ويشتد لينصر كلمة الله.

٣ – والورع والتدين الظاهر والعفة عما في يد الناس صفات يجب أن يتحلى الواعظ بها؛ لأنه قدوة، ويتخذ الناس منه أسوة، ولأن إخلاص الخطيب من أسباب التأثير، كما أسلفنا. والناس إن رأوا في الواعظ رجلا يتخلى عمله عن قوله، وأنه يقول ما لا يفعل، ظنوا فيه الظنون، ولم يعتقدوا أن قوله صادر عن قلبه، فلا يكون له تأثير، ويذهب كلامه هباء منثورا. فمن تصدى للوعظ والإرشاد يجب أن يتسربل بسربال التقوى، وعليه أن يجتهد في ألا يكون في ظاهره ما يخالف الدين بأي نوع من المخالفة، فإن منصبه خطير، وعمله جليل، والعيون إليه

شاخصة، ولأعماله كاشفة، فإن كان منه معصية فليعمل على سترها ماسترها الله، وليعلم أن من المجاهرة أن يعمل عملا ستره الله عليه فيقول عملت كيت وكيت، يكشف ستر الله، وقد قال الغزالي في إحدى رسائله: أما الوعظ فلست له أهلا، لأن الوعظ زكاة نصاب الاتعاظ، ومن لانصاب له كيف يخرج الزكاة؛ وفاقد النور كيف يستنير به غيره، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج. وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: عظ نفسك، فإن اتعظت. فعظ الناس، وإلا فاستحي مني. وقال نبينا ﷺ تركت فيكم واعظين: ناطق وصامت. فالناطق هو القرآن الكريم، والصامت هو الموت، وفيهما كفاية لكل متعظ، ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره، ولقد وعظت بهما نفسي فصدقت وقبلت قولا وعقلا، وأبت وتمردت تحقيقا وفعلا... ومن هذا نرى أنه يشترط لجواز الوعظ الاتعاظ، ولكن نراه في الإحياء يوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على المرتكبين، ويقيم على ذلك الدلائل القاطعة. ومنها ما رواه عن سعيد بن جبير وهو قوله: إن لم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر، إلا من لا يكون فيه شئ لم يأمر به أحد، والتوفيق بين هذين النصين أن نقول إنه أراد بالأول من قام للدعاية، ونصب نفسه للوعظ، وأراد بالثاني الأمر بالمعروف والنهي الواجب على الكافة، لا على الخاصة، وهو المرتبة الثالثة في المراتب التي ذكرها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده؛ وأيضاً فنحن ما اشترطنا في الواعظ ألا تكون منه معاص قط، بل اشترطنا التدين الصادق، وألا يكون في ظاهره ما ينافي الدين من نفاق ظاهر، أو كذب صراح، أو عمل بنقيض ما يدعو إليه، أو مجاهرة ببعض المعاصي، بل يكون متدينا لا يصر على معصية، وفيه سمت الصالحين، وصفاء المتقين، وصدق المؤمنين.

٤- العلم التام بكل ما يساعده في مهمته، ويعين في الوصول إلى غايته، ونيل بغيته. وقد أحصى الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى: «ولتكن منكم أمة... الآية» المعارف التي يجب على الواعظ الإلمام بها، فكان منها:

(أ) العلم بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة:

وكذلك العلم بسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وسلف الأمة، والعلم بالقدر الكافي من الأحكام.

(ب) العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شئونهم:

والتعرف على استعداداتهم وطبائع بلادهم، وأخلاقهم، أو ما يعبر عنه في عرف العصر

بحالهم الاجتماعية، وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة بخلافة أبي بكر كونه أنسب العرب، ومعنى هذا أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها، وتاريخ كل قبيلة، وسابق أيامها وأخلاقها، كالشجاعة، والجبن والأمانة والخيانة، ومكانها من الضعف والقوة، والغنى والفقر، وما كان من إقدامه مع لينه وسهولة خلقه – التي يعرفها له كل أحد حتى الإفرنج– على حرب الردة، إلا لهذا العلم الذى كان به على بصيرة، فلم يهب ولم يخف، وقد خاف عمر، وأحجم على شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين.

(جـ) العلم بمناشئ الأمم والتاريخ:

ليعرف الفساد في العقائد، والأخلاق، والعادات؛ فيبني الدعوة على أصل صحيح، ويعرف كيف تنهض الحجة، ويبلغ الكلام غايته من التأثير، وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعوين من حال إلى حال، ولهذا كان القرآن الكريم مملوءا بعبر التاريخ[1]

(د) علم النفس:

ليعرف الواعظ خواص العقل البشرى، ومناحى تفكيره، والغرائز التي أودعتها النفس الإنسانية، والميول التي كمنت في أطوائها، وبهذه المعرفة يستطيع أن يثير الأهواء والمنازع إلى ما يدعو إليه، ويبعث الميول من مراقدها، ويوجهها إلى الغاية التي يريدها، والمقصد الأسمى الذى يبتغيه، وفيما ذكرنا في مبحث «إثارة الأهواء والميول» ما يعطيك صورة واضحة لحاجة الواعظ إلى الإلمام بالعلوم النفسية. وقد قال الأستاذ الإمام في درس التفسير: لا تظنوا أن الصحابة لم يكن عندهم شئ من هذا العلم، إذ لم يكونوا يدرسونه في الكتب، ويتلقونه عن المعلمين، فإنكم إذا قرأتم التاريخ، وعرفتم كيف كانوا يتجادلون، أمكنكم أن تعرفوا مكانهم منه.

(هـ) علم الأخلاق:

وهو العلم الذى يبحث عن الفضائل، والمثل الأعلى في السلوك، فهو يعطى صورة صحيحة للفضائل وما يفيد الناس، وما لا يفيد، وصلة الفضيلة بالعرف، وهو في الجملة يعين المتدين على فهم شئ كثير من أسرار الدين، وما جاء فيه من واجبات وتكاليف، فالعلم به يعرف الدارس كثيراً من حكم الشرع الإسلامي، فهو دراسات عقلية، يجد فيها المتبصر تعليلا صحيحا لكثير من مبادئ ذلك الدين الحكيم، والواعظ في حاجة إلى مثل هذه الدراسات، ليقرب الشريعة من معروف الناس ومألوفهم ومعقولهم، وما هو حسن في نظر المفكرين.

(١) من تفسير الأستاذ الشيخ رشيد رضا المشتمل على ما قاله الأستاذ الإمام في دروس التفسير نقلناه بإيجاز وتصرف قليل.

(و) علم الاجتماع:

هو علم الجماعات، يعطيك صورة لتكوينها وتفكيرها وطرق التأثير فيها، ولا شك أن الواعظ يتصدى لقيادة جماعة إلى فكرة يدعو إليها، فلابد أن يكون عالما بنفسية الجماعات، وسلطان العادات، وكيف يتغلب عليها، ويمزق أغشية الجمود، إن كانت الجماعة جامدة على باطل، وكيف ينهنه من حدتها، ويكفكف من غربها، إن كانت مندفعة متهورة وراء غاية باطلة.

وقد وضحنا في صدر هذا الكتاب حاجة الخطابة إلى علمي النفس والاجتماع والاتصال الوثيق بينهما، والوعظ شعبة من شعب الخطابة، بل هو أحوجها إلى هذين العلمين.

(ز) العلم بلغات الأمم التي يعظها ويرشدها، وذلك يدعى ليستطيع مخاطبتها بما يصلحها، فإنه لا يتيسر له ذلك بغير لغتها.

وقد ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل مخاطبة اليهود الذين كانوا مجاورين له.

هذه العلوم كلها ضرورية للواعظ، ويجب أن نقول فوق ذلك إنه لابد أن يعنى عناية خاصة بدراسة الكون وما فيه من آيات دالة على قوة الخالق وعظيم قدرته، وجليل تكوينه، وحسن تدبيره.

وقد دعانا القرآن الكريم أن ننظر في ملكوت السموات والأرض، وفي أنفسنا وفي الآفاق، وجعل ذلك من طرق الوصول إلى إدراك صفاته عز وجل، فعلى الواعظ أن يسلك ماسلك القرآن الكريم، فيوجه أنظار الناس إلى الكون وما فيه من آيات تدل على الوحدانية، وسلطان الله القاهر. ولا يستطيع أن يوجه الناس ذلك التوجيه إذا لم يكن على علم ببعض ما في الكون من أسرار وجلائل.

(ح) الحلم، وسعة الصدر، والتواضع، والصبر على الأذى:

فإن الجماعات التي استشرى فيها الفساد كالمريض، والواعظ لها كالطبيب، وكما أن المريض قد يدفعه جهله أو ألمه أو سوء تصرفه إلى أن ينال الطبيب ببعض السوء، كذلك الجماعات التي أنهكها الشر، قد يدفعها تغلغله في أحشائها، وتمكنه من كيانها إلى أن تنال طبيب الأرواح ببعض الأذى، وتتقدم إليه ببعض السوء، فعلى الواعظ أن يلاحظ هذا، وإذا

كانت القلوب عنه معرضة، والنفوس جامحة، والأهواء متحكمة، وناله من حدة السوء بعض الأذى- فليعلم أن المهمة لديه شاقة، ويستمد لجهود عظيم يبذله، وليداو كلوم النفوس بالهدوء وسعة الصدر والصبر ولين الجانب وخفض الجناح؛ فإن تلك الصفات رقية النفوس الشرسة، وبلسم الجراح الناغرة؛ وليعلم أنه ما وقف ليخاصمهم فيخصمهم؛ ولكن ليداوى فسادهم، فيؤلف القلوب والنفوس الشاردة بتلك الصفات، وقد قال تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿ **ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك** ﴾ فالرفق واللين والصفح قوام الدعوة لله، والإرشاد إلى صالح الأعمال، ولذلك أمر سبحانه وتعالى بالعفو بجوار أمره بالأمر بالمعروف، فقال تعالى: ﴿ **خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين** ﴾.

وعظ المأمون واعظ، وعنف له في القول، فقال له، يارجل ارفق؛ فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرفق، فقال تعالى: ﴿ **فقولا له قولا لينا، لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ وروى أبو أمامة أن غلاما شابا أتى النبي ﷺ فقال: يانبي الله، أتأذن لي في الزنى؟ فصاح الناس به، فقال النبي ﷺ قربوه، ادن مني؛ فدنا حتى جلس بين يديه ﷺ فقال النبي ﷺ: أتحبه لأمك؟ قال: لا، جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لابنتك؟ قال: لا، جعلني الله فداك؟ قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. قال ﷺ: أتحبه لأختك؟ (وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة، وهو يقول: لا، جعلني الله فداك وهو ﷺ يقول. كذلك الناس لا يحبونه) ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه.

انظر إلى ذلك الهدى النبوى الحكيم، وإلى تلك الموعظة الحسنة تصيب شغاف القلوب فتسيرها بسيرها، وتهديها، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

أقسام الوعظ

إن خطب الوعظ الديني تتشعب إلى شعب، وليكون المتصدى للوعظ على بينة من أمر العمل الذى تصدى له، ولينال النجاح فيه- يجب أن نذكر تلك الشعب، ونبين طرق النجاح في كل شعبة، فنقول: إن شعب الخطابة الوعظية أربع: خطب المجادلة في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، وخطب التعليم الديني للعامة، وخطب تثبيت الإيمان في النفوس، وخطب إصلاح العيوب، والنهي عن المنكرات.

(أ) خطب الدعوة إلى الإسلام أو الدفاع عنه:

لا يتصدى لهذا النوع من الوعظ إلا ذو العقل الأريب، الخبير بشئون الجماعات وأحوال الأمم، الملم إلماما تاما بالملل والنحل والأديان القديمة، ليستطيع الموازنة بين صحيح العقائد وسقيمها، وحقها وباطلها؛ فإذا دعا أو جادل كان على بينة من أمره.

ويجب أن يكون فوق ذلك مرنا على الجدل، قوى الحجة، ناهض الدليل، لا تعروه حبسة فكرية، ولا يأخذه استهواء الخصوم ومغرياتهم، ويكون ممن يحسن إصابة المقاتل، ويتحرى مواضع الضعف في خصمه، يأتيه منها فيصيب الحز، وفصل الخطاب.

وعند دعاية قوم إلى الإسلام يبين لهم من مبادئه ما يكون أحب لقلوبهم، وأدنى لمألوفهم، وأقرب إلى ما تقره عاداتهم، وما هو عندهم في مرتبة التقديس؛ لأنه إن فعل ذلك ربط الإسلام بجليل أعمالهم، فيتجهون إليه طالبين، ويبحثون عنه متعرفين، والإسلام غنى بالمبادئ التي تألفها الجماعات وتحبها؛ إذ هو دين الفطرة التي فطر الناس عليها، ففيه مبادئ الحرية على أكمل ما تطلبه الجماعات الصالحة، وفيه مبادئ الشورى، وفيه مبادئ المساواة بشكل لم تسبق به شريعة، ولم تطمح الجماعات الإنسانية إلى أكمل منه، وفيه مبادئ التعاون بين الآحاد والطوائف والأمم، وفيه مبادئ السلام، وفيه مبادئ الرحمة والعطف الإنساني، وكل جماعة ترضى ذلك وتألفه، فليقبس الداعي إلى الإسلام قبسة من ذلك النور يتخذ منها مصباح دعوته، ليستضيء به في ديجور الضلال.

وإذا آنس الداعي ممن يدعوهم إلفا ورغبة في التعرف بعد ذلك، هجم عليهم بحقائق الإسلام كما بينها النبي ﷺ، وعرفهم أسرارها وحكمها وصلاحها، وتاريخ الذين أقاموها؛ وكيف كانوا أعلام الأنام، وهدايتهم إلى صلاح بشرى قويم.

وإذا اعترض معترض على الإسلام فهاجمه في إحدى شرائعه أو مبادئه، وأراد الواعظ أن يرد عليه- اعتصم بالمنطق في أشكاله وأقيسته فإنها هي التي تبين ما في الكلام من خلل، وما يشتمل عليه من باطل. وقد بينا ذلك في التمهيد عند الكلام على تنسيق الخطبة، فارجع إليه.

وعليه أن يوازن بين الإسلام وبين غيره من الأديان وخصوصا دين الشخص الذي يدعوه أو يناقشه، وليكن ذكر الواعظ لدين غيره من غير سب ولا لعن، حتى لا يحنق خصمه، فيندفع في الطعن في الإسلام، وتنتقل المجادلة من مناقشة عقلية إلى مسابة للأديان، وليعتبر

بقوله تعالى: ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله، فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾، وبقوله تعالى: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾.

ولنختتم الكلام في هذا النوع من الوعظ بكتاب أرسله النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة يدعوه إلى الإسلام، فقد قال فيه عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة. أسلم تسلم، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول[1]، الطيبة، الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل. وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي. والسلام على من اتبع الهدى».

وقد بعث النبي ﷺ الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري، وقد قال هذا للنجاشي ما فيه حث له على الإسلام، فلننقله لك لتعرف كيف كان ذلك السلف الصالح يدعو إلى الدين، قال رضي الله عنه: يا أصحمة[2] إن علي القول، وعليك الاستماع: إنك كأنك في الرقة علينا، وكأنا في الثقة بك - منك، لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك.

الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفي ذلك الموقع الحز، وإصابة المفصل. وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس، فرجاك لما لم يرجهم، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف، وأجر ينتظر. فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار- كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر. ثم كتب إلى النبي ﷺ بإسلامه.

خطب التعليم الديني للعامة:

هذا النوع من الخطب دروس دينية يلقيها الواعظ على العامة، يعرفهم فيها أصول دينهم والأحكام الشرعية العملية التي يدعو إليها، والفضائل الخلقية التي يحث عليها، ويجعلها

(١) البتول معناها العابدة.

(٢) أصحمة اسم النجاشي.

أما لقيام الجماعة الإسلامية الفاضلة، وهذه الدروس إما بيان عقائد، وإما بيان الأحكام والفضائل.

وعليه في بيان العقائد وإثباتها:

(أ) أن يبتعد كل الابتعاد عن الشروح الفلسفية، فإنها تسمو على مدارك العامة، وتعلو على أفهامهم، وقد تدفعهم إلى الضلالة، لعدم فهمهم.

(ب) وأن يبتعد عن مواضع الخلاف ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فإن ذكر الخلاف مضلة للأفهام، محير للألباب، مبعد لها عن الهداية.

(جـ) وليعول كل التعويل على الكتاب، فليبين لهم أوصاف الله كما ذكرها القرآن الكريم لا يعدوه، ولا يتجاوزه، وليذكر أوصاف النبيين كما وصف الله الأنبياء، وليجعل السمع لا العقل هو المورد لمعرفة العقائد، لأن فيه التمير العذب للحقائق الدينية، وأصول الاعتقاد، ولنا أسوة حسنة في السلف الصالح، فقد كانوا يعرفون عقائدهم من كتاب الله سبحانه وتعالى، وبما يبينه لهم رسول الله ﷺ، من غير أن يتعرضوا لمناقشات فلسفية لا تصلح لغير طارسى الفلسفة، ومن تمرسوا بدراسة العلوم العقلية، ومن يجادلون في الأديان للدفاع عنها.

وإذا كان الواعظ يعلم الناس أحكام دينهم وفضائله، فعليه أن يعمد إلى توضيح ذلك كل التوضيح وإن اضطر إلى القيام ببعض حركات يقوم بها- أداها لأجل التوضيح وليتصور الحكم تصورا دقيقا من غير التباس، ولا إبهام، وليختر من الأحكام العلمية لدروسه ما يكون العامة مظنة الجهل به، ليكمل بذلك علمهم بالدين وتفاصيل أحكامه، فليبين لهم مناسك الحج، لأن أكثر الناس على غير علم بها، وليبين لهم أحكام الزكاة، فإنه يندر من العامة من يعرف حقيقة أحكامها مع فرضيتها عليهم، ومخاطبتهم بها، وليعلم المرشد أن علم أولئك بها عهد في عنقه هو مسئول عنه يوم محاسبة الديان، وليبين لهم الأحكام بحكمها، ليعرفوا فضل الشريعة وأسرارها، ومراميها من أقرب طريق، وأنجع سبيل.

وليذكر مع الأحكام الأحاديث الواردة فيها، والآيات الشارعة لها، من غير أن يتعرض للاختلاف في تفسيرها والمنازعات في تأويلها، فإن ذلك لا تصل إليه أفهام العامة، فليذكر الآيات والأحاديث إحياء لها، وتقوية للأحكام، وإقراراً لها في النفوس، من غير أن يثير حولها مثارات الخلاف، وعثير النزاع. ولقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم يبينون للعامة أحكام الدين بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ويقربونها من أفهامهم ومداركهم من غير أي خلاف، وبهذا فليسترشد المرشدون.

(جـ) خطب تثبيت الإيمان وتقويته:

هذا النوع من الخطب يتجه إليه الخطيب، ليقوى برد اليقين في قلوب المؤمنين، ويثبت دعائم الإيمان في قلوب المهتدين، ويلقي في نفوسهم الحماسة لدينهم؛ ليستمسكوا بعروته، ويجيبوا دعوته. وليجعل الخطيب قوام خطبته أحد الأمور الثلاثة الآتية أو جميعها وها هي ذه.

١ – فضائل الإسلام:

فيبين لهم فضائله. وكيف كان طريق المجد والعلو في الدنيا والأخرى، ويبين لهم أنه عصمة للجماعات، وحفاظ لوحدتها، وأنه مربي الوجدان، وموقظ الضمائر، وأنه العاطف على المسكين وابن السبيل، والداعي إلى الإخاء والحرية والمساواة، وأنه المشتمل على الشرائع التي تكون من يأخذون بها جماعة فاضلة، أسست على تقوى من الله ورضوان.

٢ –الكتاب:

فيشرح بعض آيات الكتاب الحكيم المبينة حقيقة الإيمان الذاكرة أوصاف المؤمنين، وما يكون لهم يوم القيامة من منزلة، ومالهم في الدنيا من مكان، وقد كان النبي ﷺ يجعل أحيانا خطبته كلها قرآنا، ومن ذلك ماروى في صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة؛ قالت: ما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

فالقرآن بما حف من جلال، وبما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة، وبما له من حلاوة، وما عليه من طلاوة يهز الإحساس، ويقوي الإيمان وفيه هدى للمتقين.

أخبار المؤمنين الذين صبروا، وصابروا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ولم يجعلوا لغير الله على قلوبهم سلطانا؛ لا يخشون في الحق لومة لائم، ولا يجعلون لرضا العبد أو غضبه مقاما بجوار رضا الله أو سخطه، أحلاس عبادة، وأهل جلاد وجهاد في سبيل ما يعتقدون.

والتاريخ الإسلامي خصب بهذه النفوس؛ فقد كان من رجاله عدد عظيم جاهد وجالد في سبيل الله، ولم يعرف لغير الله عليه من سلطان، وعلى رأس هؤلاء أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير وعبد الرحمن بن عوف، وغير هؤلاء من علية الصحابة. وخلف من بعدهم جمع من التابعين حاكوا نهجهم، وساروا سيرهم، ومن هؤلاء سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وكل هؤلاء ممن آثروا الباقية

على الفانية، والحق على الباطل. وذكر هؤلاء وبلائهم في سبيل الله، وصبرهم على الأذى في سبيل ما يعتقدون- فيه طب القلوب، يرد شارد النفوس، ويقوى ضعيف الإيمان، وإن في قصص أخبارهم عظة المتعظين، وعبرة للمعتبرين. ونورا للمستبصرين، وهم في حياتهم وأخلاقهم ودينهم قدوة لأهل التقى واليقين؛ فليكثر الواعظ من أخبارهم فإن أخبارهم حياة القلوب وطب النفوس، ودواء لأمراضها، وما يعروها من غشاوات مادية؛ وإن لهيب إيمانهم يبدد بحرارته كل سحب تتكون على نفس المهتدين.

وما كان قصص القرآن الكريم للنبيين، وصبرهم وبلائهم إلا لما فيه من بث روح الإيمان، والصبر على البأساء والضراء في نفوس قارئيه.

ونرى من هذا أنا نبيح للواعظ القصص ولكن مع إقرارنا للقصص في مقام الواعظ نرى أنه يجب أن يكون الواعظ القاص صادقاً متحرياً صادق الأخبار والمقبول منها، ويجب أن يخرج الأخبار تخريجا صحيحا؛ فلا يستنبط منها غير ما تنبئ عنه. ولا يستنبئها بغير ما تنبئ.

خطب الإصلاح ومحاربة المنكرات:

في هذه الخطب يتجه الواعظ إلى إصلاح العيوب الشائعة الضارة بالمجتمع، الهادمة لبناء الأخلاق فيه، فقوام هذه الخطب محاربة المنكرات، ومقاومة الفجور ومنع الفواحش من أن تشيع في الذين آمنوا. ومن أجل أن يصل الخطيب إلى غايته لابد:

(أ) أن يجعل الخطبة متصدية لعيب واحد لا تعدوه؛ لأنه لو تعرض لعدة عيوب لضعف التأثير، وما استطاع أن يصل إلى مرماه. ولذا يؤخذ على بعض خطباء المساجد أنهم في كل خطبة من خطبهم ينهون عن المعاصي جملة واحدة، أو يحصونها إحصاء، ويكررون في كل جمعة- والعاصي في غيه يعمه، وهو عنهم وعن وعظهم لاه، ولو خصصوا خطبهم لحل أن يعمموا لأجدى كلامهم، ولأفاد وعظهم؛ ولوصلوا إلى بعض ما يريدون، أو نصبوا له.

(ب) وليبدأ الواعظ في خطبه بأكثر المعاصي خطراً، وأشدها في بناء الدين هدماً، وأعظمها فيه نكراً، يأخذ في نهي الناس عنه حتى إذا اطمأن إلى نفورهم منه، وإبعادهم اتجه بخطبه اتجاها آخر، وهكذا حتى يثمر غرسه أينع الثمرات.

(جـ) وفي وعظ الناس بالنهي عن منكر يبين الخطيب لهم مضار المنكر النازلة بمرتكبه، الحائقة به، الموبقة له؛ ثم يبين لهم مضاره بالمجتمع، ويصور لهم حال جماعة من

الناس فشا فيها هذا المنكر كيف تكون، ويستعين على ذلك بضرب الأمثال ومقايسة الأشباه والنظائر، ثم يصور لهم حال المجتمع وقد انتهى عن هذه المأثمة، ونفى عن نفسه أوضار ذلك المنكر، ويذكر في هذا المقام حال السلف الصالح، وما كانوا عليه من إصلاح، وما نالوه من حظ عظيم في الدنيا والآخرة بسبب الابتعاد عن ذلك المنكر، وأشباهه.

وبعد هذا البيان السابق يتجه إلى كتاب الله سبحانه يبين ما فيه من دلالة على قبح ذلك المنكر، والآيات الواردة في الترهيب منه، والترغيب في نقيضه، وبمثل ذلك يستعين بحديث رسول الله ﷺ والمأثور عنه، ويبين هديه عليه الصلاة والسلام، فخير الهدى محمد ﷺ.

الإنشاء الديني

في الخطب الجدلية التي تشتمل على دعوة إلى الهداية المحمدية يتحرى الخطيب أن يتكلم بلغة من يدعوهم، ليستطيع أن يضع أفكاره في الألفاظ التي تدل عليها دلالة محكمة من غير احتمال لغيرها؛ ولتكن عباراته واضحة القصد بينة المقصد؛ لا التباس ولا غموض ولا إبهام، ولتكن بأسلوب رائق جذاب، شفاف عن معانيه، وألفاظ تثير الخيال وتجتذب النفس.

وفي الخطب التعليمية يتحرى الخطيب أن تكون عباراته واضحة الصور في أذهان الناس من غير أي تنميق أو تحسين، فمقصده الأول أن تنتقل معانيه إلى أخيلتهم، فيتصوروها كما تصورها هو، وإن اضطر في سبيل ذلك إلى أن يكون درسه كله بالعامية فليفعل؛ لأن الغرض من هذا النوع من الخطب التفهيم لا التأثير، وتوضيح الفكرة لا تزيينها.

وفي خطب تثبيت القلوب تختار الألفاظ القوية الرنانة التي تثير في النفس معاني قدسية روحية، وتذهب بها في مجال المعنويات وتتجرد بها عن قيود الجسمانيات، وتحلق بها في سماء الحقيقة، فعلى الخطيب أن يختار ذلك النوع من الألفاظ، وفي مواعظ النبي ﷺ، ومواعظ السلف الصالح من ذلك الشيء الكثير.

وفي خطب النهي عن العيوب وطلب الإقلاع عنها ينوع الخطيب عباراته، فتارة يختار الألفاظ القوية التي تهز الحس هزاً عنيفاً إن أراد تحذيرهم بالترهيب من سوء العقبى، وتارة يختار الألفاظ السهلة اللينة الرقيقة إن أراد اجتذابهم إلى السير فيما فيه حسن المآل، وطورا يشرح بلغة لا تكلف فيها، وكأنها حديث معتاد إذا أراد أن يأخذ بأيديهم، ويضعها على الحقائق مجردة من غير إنذار ولا تبشير.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الخطب العسكرية

هي الخطب التي يلقيها القائد على جنده ليثبت قلوبهم، ويلقي الحماسة في نفوسهم، ويدفعهم فيها إلى حياة شريفة أو إلى موت عطر الذكر.

ولهذا النوع من الخطب أثر عظيم في الحروب؛ فهو الذي يقوي روح الجند المعنوية، والقوة المعنوية لها الأثر العظيم في الانتصارات، كذلك يحدثنا التاريخ، وبذلك تنطق الحوادث الآن. فما كانت النصرة في الماضي بالذخيرة والعدد، ولكن بالتأييد والتثبيت وقوة الروح، وعظم الثقة بها وبالله.

قال بطل الحروب نابليون: إن نسبة القوة المعنوية إلى القوة المادية في الانتصار كنسبة ٣ : ١، وقال قائد ألماني محنك: لا تزال القوة المعنوية هي العامل الحاسم في الحروب في العصر الحاضر كما كانت في الغابر، ولا ريب في أن الخطب العسكرية لها الأثر الواضح في تقوية الروح المعنوية.

وينجح الخطيب في هذا النوع من الخطب إذا جعل قوام خطبته:

(أ) بيان شرف الغرض الذي من أجله يحاربون، ويتقدمون إلى مواطن الردى، حيث تخضب الأرض بالدماء، فإن كانت الحرب دفاعا عن وطن في خطر يبين ما في السكون من ذلة وعار ودمار. وإن كان يدافع عن عقيدة بين ما في الخذلان من نشر للفساد، وما في الانتصار من إقامة للحق والفضيلة.

(ب) وبيان الأثر الحسن لمن يتقدم لهذا البلاء بثبات جأش، وقوة جنان؛ فإما انتصار وعزة وفخار وشرف عظيم، وإما موت وذكر عطر بالثناء؛ إذ يكون له من جهاده لسان صدق في الصالحين.

(جـ) وبيان أنه لا يأمر بالقتال، ويمتنع بنفسه، بل إنه يتقدمهم يوم اللقاء والزحف ليكون له منهم القدوة الحسنة.

ويجب أن تكون الخطبة بصوت جهوري رزين، قوي النبرات، وعبارتها حماسية نارية تلهب الإحساس بالحمية والرغبة في اللقاء. وألفاظها تثير الآمال، وتسمو بالخيال إلى مواطن

الشرف والكبرياء في الجندية. وليتحر الخطيب الإيجاز؛ فإن الألفاظ الموجزة تحفظ، وتطبع في ثنايا النفس، وقد أمر أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان عندما أرسله على رأس جيش أن يوجز الخطبة في الجند، حتى لا ينسى الكلام بعضه بعضاً.

ومن أمثل الخطب العسكرية خطبة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جنده قبيل موقعة صفين وقد جاء فيها:

اعلموا أنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله ﷺ؛ فعاودوا الكر، واستحيوا من الفر؛ فإنه عار في الأعقاب، ونار يوم الحساب. وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشيا سجحا[1]، وعليكم بهذا السواد الأعظم، والرواق المطنب[2] فاضربوا ثبجه[3]، فإن الشيطان كامن في كسره[4]؛ قد قدم للوثبة يدا، وأخر للنكوص رجلا؛ فصمدا صمدا[5] حتى ينجلي لكم عمود الحق، وأنتم الأعلون، والله معكم، ولن يتركم[6] أعمالكم.

(١) المشي السجح: السهل والمراد أن يسيروا إلى الموت بثبات واطمئنان.

(٢) الرواق ككتاب وغراب الفسطاط، والمطنب المشدود بالحبال. والسواد الأعظم جند الشام والرواق فسطاط معاوية.

(٣) الثبج الوسط.

(٤) الكسر المراد به هنا الجانب.

(٥) الصمد القصد.

(٦) يتركم ينقصكم.

المحاضرات العلمية العامة

قد رأت الجامعات في البلاد الراقية أن تمد جماهير المتعلمين بالبحوث العلمية تنويراً لأذهانهم، وتثقيفاً لهم، وترقية للرأي العام ونشرا للثقافة في ربوع البلاد. ويرى بعض الذين تهمهم مصالح بلادهم ونشر الأفكار الناضجة بين أهليها أن يتقدموا بالبحوث العلمية يلقونها على الملأ من المثقفين، ولذا تكثر المحاضرات العامة في البلاد المتمدينة.

وهذا النوع من المحاضرات تقرب فيه المسائل العلمية، وتسهل فيه الأفكار، وتجتذب الأسماع؛ ولذا يعد من أنواع الخطابة، وإن لم تكن بحوثه من الموضوعات الخطابية.

ويلاحظ في الخطب العلمية ألا تفقد صبغتها العلمية. ولا روحها الفكرية، ولذا يجب أن يقل الخطيب فيها مما يثير الغضب أو الحزن أو الحماسة؛ فما وقف ليثير أشجانهم أو أفراحهم، ولا يحفز هممهم، أو يلهب حماستهم. ولكن وقف لينمي عقولهم، ويمدها بخلاصة لما وصل إليه الفكر البشري في الموضوع الذي يطرقه.

وليس معنى ذلك أن يخلي كلامه وإلقاءه من الطرق الخطابية، بل معناه ألا تسيطر المظاهر الخطابية على الحقائق العلمية؛ فتطمسها أو تبعثرها وسط الجو الخطابي؛ فعليه أن يتخذ من الخطابيات ما يساعد على تثبيت المعلومات في الرءوس، وإثارة الانتباه، وإيقاظ الشوق إلى ما يقول؛ فالخطابيات هنا وسيلة لا غاية، وأمة للحقيقة لا سيدة لها.

ويجب الابتعاد عن المصطلحات العلمية، والعبارات التي لا يفهمها إلا الأخصائيون في علوم تلك البحوث؛ لأن المحاضرة تلقى على الجماهير المتعلمة إلى حد، وفيهم الفاهم للمصطلحات، وغير العارف لها، فإلقاء المحاضرة بالعبارات العلمية الجافة الغامضة على غير أهلها موجد لسأمهم، ذاهب برغبتهم. فيجب الاتجاه إلى العبارات المألوفة، وتسهيل الأفكار، وتقريبها من المعروف، وضرب الأمثال والمقايسات بين ما يعرفون وما يُريد أن يعرفوه.

وعلى من يتصدى لنشر الثقافة بين عامة المتعلمين أن يختار من الموضوعات ما يجتذبهم، أو ما ينفعهم في عامة أمورهم، وعليه أن يبدأ المحاضرة بتمهيد يقرب فيه بين ما هو شائع بينهم من الأفكار والآراء، وما هو بصدد إلقائه عليهم، ليجتذب نفوسهم، وليثير تفكيرهم إلى ما يريد قوله، ولا يني في أثناء محاضرته عن أن يقرب كل فكرة إلى ما يعرفون

ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وما أمكنته الفرصة، وبمقدار ما توافيه الحقائق العلمية في هذا المقام.

إلقاء المحاضرة:

يستحسن بعض المحاضرين أن يلقي محاضرته من قرطاس، لكيلا تذهب الحقائق العلمية في تيار الحماسة الإلقائية إن اعتمد على الخطابة من غير قرطاس؛ ولكي يكون التعبير عن الحقائق دقيقا محكما. وقد وافق موريس آدم مع تشديده في الارتجال على كتابة المحاضرات وإلقائها؛ لأن الارتجال في الخطب السياسية أو ما شابهها.

ويرى بعض المحاضرين أن أحسن إلقاء للمحاضرة الإلقاء من غير قرطاس، ليستطيع المحاضر الإشراف على السامعين، فيتبع حركات أفكارهم، ويستطيع بهذا الإشراف اجتذابهم، ولأن الإلقاء من ورق من شأنه أن يوحي بالملال والسأم.

ونحن نرى إذا عول المحاضر على الإلقاء من الورق أن يتركه وقتاً بعد آخر، ويعتمد على ذاكرته، ليستطيع الإشراف على السامعين، وليتصل بهم روحيا، وليمنع سأمهم، وعند القراءة يجب ألا يجعل كل نظراته فيما يقرأ، بل يكون بعضها فيما يقرأ، وبعضها يتجه به إلى السامعين، فيبدأ بأول الجملة ونظره في القرطاس، وينتهي منها ونظره إلى السامعين، وهكذا في كل جملة، وبذلك يجمع بين الحسنيين من كلتا الطريقتين.

وننبه هنا إلى أن الحركات والإشارات يجب أن تكون قليلة جداً في المحاضرات العلمية. وبعض المحاضرين لا يعتمد مطلقاً على الحركات في محاضرته. ومع ذلك يبلغ بها حد الكمال في الإلقاء والاجتذاب.

خطب التأبين

الخطب التي تقال في مناقب الرجال عند وفاتهم وفاء لهم على ما أسدوا من جميل وحسن صنيع، وحثا للسامعين على اقتفاء آثارهم. عزاء للمكلومين بهم، أو مشاركة في الحزن لهم، أو للإشادة بذكرهم، لأن في إظهار مناقبهم فخرا للراثين، أو إظهار الألم والأسى.

وخطب التأبين قسمان: قسم تحليلي تدرس فيه نفس الرجل، وأخلاقه وأعماله وآثاره العقلية أو غير العقلية. وهذا من قبيل المحاضرات العلمية فله خواصها ومظاهرها. وقسم لمجرد الثناء والمدح، وذكر المناقب، ولواعج الألم. وأحسن مسالكه:

(أ) أن يبدأ الخطيب خطبته بتلاوة آية من القرآن الكريم أو حديث نبوي شريف أو بيت شعر أو حكمة تشير إلى زوال هذه الدنيا، وأن ما فيها إلى فناء، لا إلى دوام وقرار.

(ب) ثم يبين ألم الفقد الذي نال الناس بموت ذلك العظيم، والرزية التي عمت، ولم تخص، والكارثة التي شملت الجميع لفقده حتى إذا أثار في هذا شجون العيون.

(جـ) اتجه إلى مناقب المتوفى فذكرها ثم إلى آثاره التي خلفها في أمته فبينها، مع الأيادي التي قدمها للأجيال.

(د) ثم يبين الذكر الحسن الذي أعقبه، واللسان العطر الذي يتحدث به الناس عنه.

(هـ) ثم ينتقل من هذا إلى حث السامعين على اقتفاء أثره؛ والسير على منهاجه، والعمل بمثل ما عمل، وبهذا يختم قوله.

وألفاظ الخطابة التأبينية تكون من الألفاظ السهلة لا الألفاظ الفخمة، والأساليب العلية من غير لين ولا ضعف هي أحسن الأساليب لخطب التأبين، لأن الرثاء حديث النفس بالألم والحزن.

ويجب أن يكون في نبرات الصوت ونغماته ما يشعر بالحزن العميق، وينبع عن الألم الدفين.

ومن أجود الخطب التأبينية ما قاله علي بن أبي طالب في رثاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد تقدم في بيان إثارة الأهواء والميول.

خطب المدح والشكر

خطب المدح قسمان: قسم تاريخي تقريري، كمدح عظماء الرجال في حياتهم لا للزلفى إليهم والتقرب منهم بل دراسة لأحوالهم، وبيانا لصفاتهم، وتقريراً لمذاهبهم، وهذه إما علمية تحليلية إذا كان الغرض منها البحث والتحليل، ورد الأمور إلى أسبابها، والمقدمات إلى نتائجها، وإما سياسية إذا كانت للدعوة لمذهب العظيم السياسي. والأولى تلحق بالمحاضرات العلمية؛ فلها طرائقها ومسالكها، والثانية تلحق بالخطب السياسية، فلها خواصها وطرق النجاح فيها.

والقسم الثاني من قسمي المدح يكون بذكر المناقب والصفات إعلاء لشأن الممدوح وتشريفاً له، لا ابتغاء منفعة منه، أو لإظهار شعوره نحوه، وما يكنه له من إجلال واحترام.

ويسلك الخطيب المادح من الطرق ما يراه أقرب لوصف ممدوحه وصفاً حقيقياً، فإن أثقل أنواع المدح ما كان الكذب فيه ظاهراً.

فعليه أن يبين بصدق:

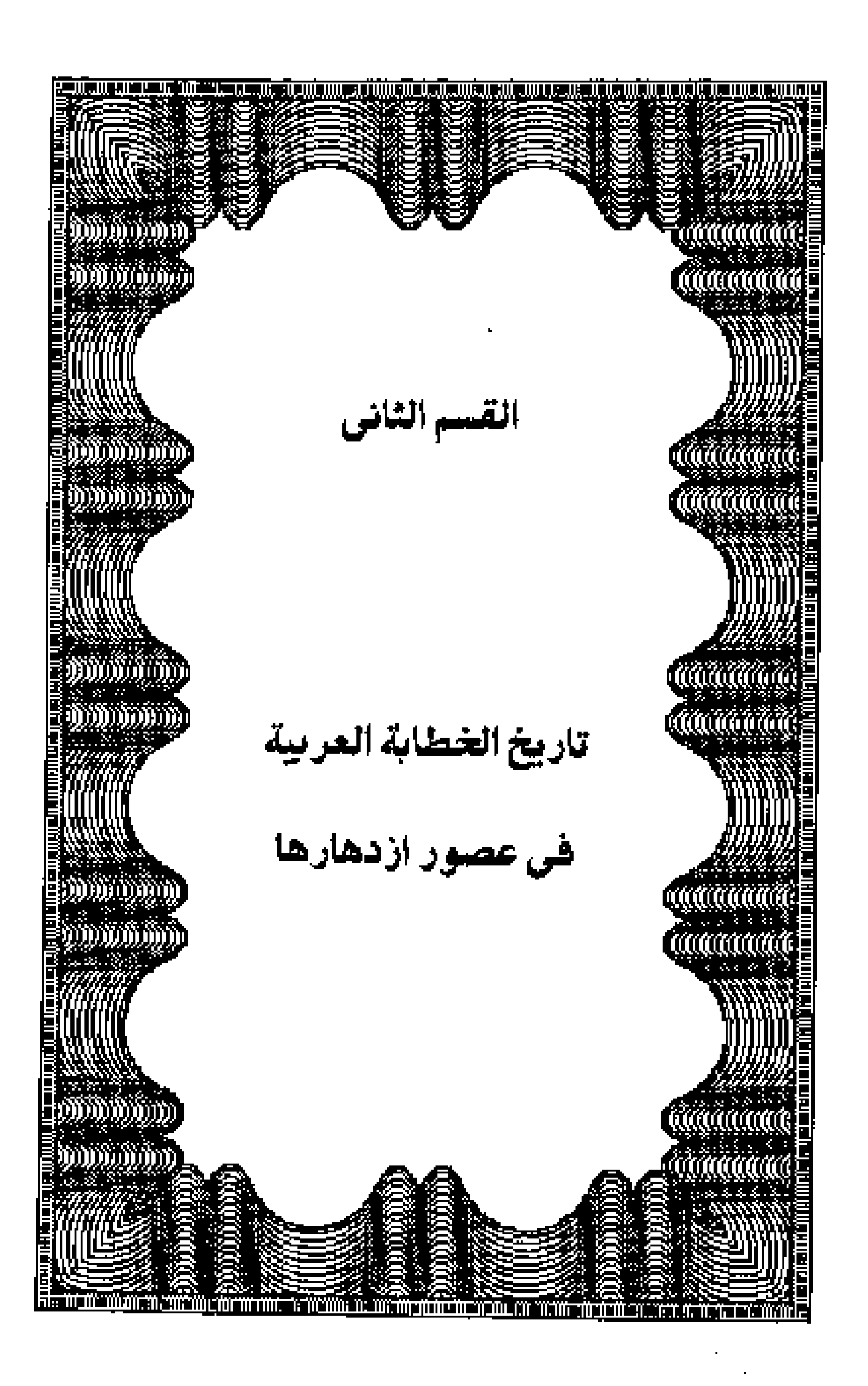
١ – سجاياه وأخلاقه وصفاته التي رفعته وأحلته في تلك المنزلة السامية.

٢– ثم يبين أياديه البيضاء على الجماعة التي يعيش فيها، وفضله عليها إن كان له عليها فضل، وعليه إن كانت له عليه أياد.

٣– ولا مانع من أن يذكر شرفه النسبي وفضل أسرته، ونبلها وكرمها، وما اشتهرت به من صفات سامية جليلة القدر إذا كان ممن لهم شرف نسبي، فإن كان ممن سودتهم نفوسهم العصامية فليكتف بالإطناب في صفاته الشخصية وأخلاقه وعلومه وسجاياه.

وخطب الشكر يسلك فيها نفس المسلك، ويزاد عليه أن يطنب في ذكر النعمة التي أسداها الممدوح إلى الشخص، وطريقة إسدائها، ووقته، وتصدر تلك الخطب عادة بذكر نعم الممدوح وفضله عليه.

والله ولي النعم، وولي التوفيق.



القسم الثانى

تاريخ الخطابة العربية

في عصور ازدهارها

الخطابة في العصر الجاهلي
الحاجة إليها

كل ظاهرة في الأمة ترجع إلى عاملين: عنصرها، والبيئة التي أظلتها، ولذلك يجب أن نلم إلمامة موجزة في هذا المقام بمزاج العربي وبيئته، لنعرف هل فيهما ما يدعو إلى الخطابة والبيان؟

البلاد العربية أكثرها صحراء جرداء، يندر فيها النبات والماء، وتكثر الجبال والوهاد والرمال ورمضاؤها، ولذلك كان سكان هذه الصحراء في شظف من العيش، وقلة من الزاد، واكتفوا من الحياة بالكفاف، ورضوا بالقناعة. واطمأنوا إلى الخشونة مع العزة، ولعدم المواصلات في الصحراء، وتقطع أسباب الاتصال؛ لم تكن عند سكانها جامعة تجمعهم تحت حكم دولة واحدة، بل كانت كل قبيلة كأنها أمة وحدها، تخضع لزعيمها، وتقدم له الطاعة، وله فيها الكلمة النافذة، وما كان اختيارهم زعيما لهم إلا تنفيذاً لقانون الانتخاب الطبعي، إذ يرأس القبيلة أقواها عقلا، أو أشدها في الهيجاء بطشا، أو أكثرها تمرساً بتجارب الحياة، وفنونها. وعلاقة القبيلة بمن سواها من تنازع على مواقع المطر، ومواطن الكلأ، أو احتكاك صغير قد يؤرث عداوة، ويخضب الأرض بالدماء.

وأطراف البلاد العربية، كالحيرة واليمن، والجزء المسكون بقبائل عربية من الشام فيها خصب عظيم، ولذا تكونت بها حكومات، ولكن هذه الحكومات قبيل الإسلام كانت واقعة تحت سلطان فارس والروم، ولابد أن نتصور أن الخضوع للأجنبي ليس من طبع العربي، ولا يلائم فطرته، لذلك كان أولئك العرب الواقعون تحت سلطان الأجنبي في تململ، راغبين في الانسلاخ من سلطانه.

ومكة المكرمة وما حولها للخصب القليل بها، ولما كان يفد به الحجيج عليها من خيرات وثمار، ولوقوعها في الطريق الموصل بين اليمن والشام، واتجار قريش، لهذا كله كان بها ثروة، وسلطان، وشبه حكومة، الرياسة فيها لأكبر بيت في قريش، وكان بمكة المكرمة دار ندوة يجتمع فيها زعماء العرب، وأقيالهم من كل نواحي البلاد.

هذه إلمامة موجزة أشد الإيجاز لبيئة العرب وأحوالها– أما العربي فعصبي حاد يثور لأتفه الأسباب، ويحمل السيف عند أول نداء، إذا استولت على رأسه فكرة نفذها، من غير تدبر

للعواقب، أبي لا يرضى ضيماً، ولا يسكن إلى ذل، جواد كريم، يؤثر على نفسه، ولو كان به خصاصة وفقر، يرعى حرمة الجوار، ويفي بعهده، قال فيه بعض الفرنجة: إنه نبيل بفطرته، وقد مكنته صحراؤه، وضعف السلطان فيها، من أن يعيش عيشة فروسية، اعتماده في الحماية على سيفه، لا على حكومة تحميه، ولا دولة ترعاه، وقد كان فيه بعض المساوئ؛ سببها له جهله، وأميته، أو فقره، وإدقاعه، كقتل الأولاد، خشية الإملاق، والحاجة.

هذا هو العربي، وتلك حياته وبيئته، وهي لعمري حافزة إلى الخطابة مستثيرة البيان الرائع.

فالتنازع المستمر، والحروب الدائمة الناشبة بين سكان الصحراء، تستدعي بياناً يثير الحمية، ويقوي العزائم، ويدفع النفوس إلى مشتجر السيوف، وملتقى الحتوف. ولا شئ يقوي روح المحارب أكثر من قول حافز، وعبارات تهز أوتار القلوب.

انظر إلى كلمة هانئ بن قبيصة قبيل موقعة ذي قار.

يامعشر بكر، هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية خير من الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأدبار والظهور، ياآل بكر قاتلوا، فما من المنايا بد.

انظر إلي هذه الكلمة كيف دفعت العرب إلي لقاء جنود فارسية وكان لهم عليها الغلب!.

وكثيراً ما كان يعقب حروب العرب التي كانت تقع فيما بينهم صلح تقوم به إحدى القبائل التي لم يكن لها في الخصومة ناقة ولا جمل، أو أحد الأشخاص ذوي النفوذ، والعقل الراجح، كما فعل هرم بن سنان، والحارث بن عوف عندما أصلحا ذات البين بين عبس وذبيان، بعد أن كادوا يتفانون. ومجالس الصلح تبين فيها أضرار الحرب، ووشائج القربى بين القبيلتين المتنازعتين، إن كانت؛ وذلك لا يكون إلا بالخطابة، أداة الترغيب في النافع، والترهيب من الضار الوبئ.

وتعصب كل عربي لقبيلته يجعله يفتخر بصفات أبطالها من شدة بطش، وقوة بأس، وثبات في الهيجاء، وصبر على اللأواء، ووفاء للعهد، ورعاية للجوار، وإكرام للضيف، وذلك تارة يكون بشعر قوي، وأخرى يكون بكلام خطابي مبين.

والعرب مع تفرقهم، وانقسامهم، وتوزعهم في الصحراء، وتمزقهم فيها كل ممزق، كانوا أمة واحدة؛ قال فيهم الجاحظ: العرب كلهم شيء واحد؛ لأن الدار والجزيرة واحدة، والأخلاق والشيم واحدة، وبينهم من التصاهر والتشابك، والاتفاق في الأخلاق، وفي الأعراق، ومن جهة الخئولة المرددة، والعمومة المشتبكة، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة، وطباع الهواء والماء؛ فهم في ذلك شيء واحد في الطبيعة، واللغة والهمة والشمائل، قالوا: والمشاكلة من جهة الاتفاق والطبيعة والعادة بما كانت أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم. وقد كان العرب يشعرون بهذه الوحدة الطبعية، ويحنون إلى تقويتها بجمع كلمتهم، وقد قوى تلك الرغبة فيهم محاولة الفرس إذلالهم، ومحاولة الحبشة قبل الإسلام الاستيلاء على الكعبة، موطن تقديسهم، وطمع الأجانب فيهم؛ لذلك استدعت الحال أن يكون بينهم خطباء، يدعون إلى هذه الوحدة الجامعة.

وإذا علمت أن العرب كانت لهم دار ندوةٌ يجتمعون فيها ويتشاورون ويساجلون ويقررون ما يرونه صالحاً، ولهم أسواق هي شبيهة بالمنتديات الأدبية، كانت منابر عامة تروج فيها بضاعة الكلام البليغ، وتزجى فيها غيرها.

كانت في العرب مساوئ كما أسلفنا، وكانت بالغة الحد الأعلى من الشناعة وقد نعاها القرآن الكريم عليهم، وكان بعضهم يستنكرها منهم قبيل الإسلام؛ لذلك تصدى هؤلاء للدعوة بخطب رائعة إلى الفضيلة، والحث عليها، ونبذ العادات السيئة، والخرافات الباطلة، وربما كان أظهر هؤلاء الدعاة أكثم بن صيفي، وقس بن ساعدة الإيادي.

وقد كانت قوة إحساس العربي، وشدة حميته، واندفاعه، ومعيشته في الصحراء صافية السماء، ومن أعظم الدواعي للخطابة، والاتجاه إليها، فإن قوة العاطفة تدفع ذا البيان إلى تبيانها؛ قال الأستاذ كركوس في كتابه (فن التكلم في الجمهور): تصور راعياً يسوق نعمه في الخلاء، قد حيته ابتسامة الفجر، وهو يفتح للشمس قصره الذهبي، أو ناجاه الشفق الوردي، وهو يخلع على الكون رداء السكون، وانظر أي أثر يكون لهذا المشهد في نفسه، فقد يقف صامتاً جامداً مأخوذاً بروعته وجلاله، أو يتناول مزماره، وينفخ فيه زاهراً وطرباً، وإذا كان خطيبا يرفع رأسه وعينه ويدعو إليه قوى الوجود الخفية، باحثا عنها في الريح العاصفة، أو الموجة الثائرة، أو الغصن المائل مع الهواء، أو الصخرة الصماء. ومن هذا ترى كيف تكون قوة العاطفة، مع المنظر الطبعي الذي يهز النفس البشرية، ويأخذ بلب العاقل، دافعة إلى البيان الرائع إن تهيأت أسبابه، وقد جعل الله للعربي من أميته سبيلا لفصاحته.

وفي الجملة إن حياة العربي في الصحراء كانت حياة فروسية، وقوة شكيمة، دفعته إلى البيان دفعاً. قال الأستاذ المؤرخ جورجي زيدان في الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية في بيان تأثير الخطابة في ذوي الفروسية: ويغلب تأثيرها في أبناء عصور الفروسية، وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية.. ولذلك تشابهت جاهلية العرب، وجاهلية اليونان من هذا الوجه، لأن كليهما أهل شعر وخطابة، وأهل إباء واستقلال، ولذلك أيضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان، مع تأخر الشعر عندهم، أما العرب فقد قضى عليهم الإقليم بالحرية والحماسة، وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري، فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم، فالعبارة البليغة تقيمهم وتقعدهم، بما تثيره في خواطرهم من النخوة.

موضوعات الخطابة

كانت موضوعات الخطابة أثراً للدوافع التي دفعت إليها، وثمرة لها، ولكن يجب أن نقول: إن العرب قد أثر عنهم القول في موضوعات دفعت إليها العوامل السابقة، وموضوعات أخرى قد ساد لديهم القول فيها، ومهما يكن من الأمر، فالموضوعات التي تعرضوا للقول فيها منها.

١- إثارة الحمية، وإيقاظ الحماسة، وتثبيت القلوب:

وقد ضربنا لك مثلا خطبة هانيء بن قبيصة في موقعة ذي قار، وفي الواقع أن العرب قد قالوا في هذا أبلغ كلامهم، وأصدق عبارات دالة على قوة شكيمتهم وإقبالهم على الموت بنفس قوية، وبأس وحمية، وطبعي أن يكون الحث على القتال، والحض على اللقاء، أعظم أغراض القول في أمة تعمد القبيلة فيها إلى السيف في الذود عن حياضها، والدفاع عن شرفها، ولا حاكم يردع المعتدي، ويزجر الطاغي، بل طبعي أن يكون البأس فخار العربي، والشجاعة شرفه، وأن يكون كل قول خطابي يتعلق بالشجاعة والقتال أروع بيانهم، لأن البدوي أخص صفاته البأس، والقوة والبطش، فلا غرابة في أن تكون أعظم موضوعات بلاغته.

٢- الصلح:

كثير ما كانت الحرب تنتهي بالصلح بين المتحاربين كما أسلفنا، ينهض به ذوو الرأي والحزم، فيحسمون النزاع، ويقضون على العداوة التي كانت بين المقاتلين، ومن أعظم الخطباء، الذين امتازوا بالقول في هذا المقام أكثم بن صيفي، فكثيرا ما كانت ترد على لسانه في خطبه

التى تشبه الدر المنثور مضار الحرب، ومساويها الوبيعة، ونفع الصلح، وعواقبه المريحة؛ وقد يغلظ فريق القول مع آخر، فتوشك نيران الحرب أن تتأجج، فيدخل أحد الناس للصلح، ويقول من الخطب ما يناسب المقام، كما وقع بين سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب أمام مرثد الخير من الخاصمة «الأمالى جـ١ ص ٩٢».

٣- المفاخرة والمنافرة:

وقد يتحدث رجلان فى أمر صغير أو كبير؛ فيتلاحيان، ويشتد فخر كل منهما على صاحبه، فيتحاكمان إلى شخص أو جماعة، وكل يتقدم بفخره، ومكان شرفه، فيدلى به على مسمع من ذويه، ومن ارتضاه حكما، وتسمى هذه منافرة، وقد كانت كثيرة لدى العرب، ومن ذلك منافرة علقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل تحادثا ثم تهاجيا، ثم تنافرا على مائة من الإبل، يعطيها للحكم أيهما نفر عليه صاحبه، وكانت منافرتهما إلى هرم بن قطبة، فألقى كل منهما من بليغ القول ما رأى فيه فخارا له على ملأ من قوميهما، وفى المنافرات كهذه المنافرة ميدان متسع للخطابة، والبيان الرائع.

٤- الدعوة إلى الفضيلة ونبذ الخرافات:

وقد كان هذا من ميادين القول، إذ وجد من العرب مصلحون حكماء، رأوا ما عليه أقوامهم، من انحدار فى بعض الشرور، وامتلاء رؤوسهم بالخرافات والأوهام الصادرة عن الجهل الموبق، وقد كانت دعواتهم تجد نفوسا مصيخة وقلوبا صاغية، ومن هؤلاء قس بن ساعدة، وجمع من خطباء عبد القيس وإياد، وأكثم بن صيفى، وكعب بن لؤى جد النبى ﷺ؛ ومكان هذه الدعوة الأسواق التى كانت تعد منتديات العرب الأدبية كما ذكرنا.

٥- الدعوة إلى الوحدة العربية:

وكثيرا ما كان ذلك فى دار الندوة، وفى وفود العرب على رؤساء القبائل، وزعمائها، والملوك من العرب، وربما كان يقع منها شئ فى الأسواق التى كانت فرصة اجتماع تتلاقى فيه القلوب المتنافرة، وقد اشتدت الدعوة إلى الوحدة العربية قبيل البعث النبوى، عندما اشتد طمع الأجنبى فيهم، وهاجمهم فى موضع تقديسهم، كما ذكرنا.

وانظر إلى خطبة عبد المطلب جد النبى ﷺ أمام سيف بن ذى يزن، عندما ذهب إليه فى وفد من قريش، بعد أن أجلى الحبشة عن بلاد بالعرب، انظر إلى هذه الخطبة تر فيها دعوة جريئة إلى الوحدة العربية، جاءت فى ثنايا المدح والثناء!.

٦- الرثاء والعزاء:

العربي حساس كما قلنا، وقد يدفعه ألم الفقد، فينطلق لسانه ببيان محامد من فقده، وموضع الآلام في نفسه، والرثاء ميدان واسع للقول البليغ، يكشف فيه اللسان عن ألم اللوعة، وحزنها في النفس، إذ ينفتق بما انفطر به القلب، وانشقت المرائر، وقد يجيء العزاء بالسلوان، وتصغير الدنيا، وآلامها، كما قال أكثم بن صيفي معزيا عمرو بن هند في أخيه:

أيها الملك، إن أهل هذه الدنيا سفر، لا يحلون عقد الترحال، إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، ورحل عنك ماليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك، ويدعك. إن الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عظة، وشاهد عدل، فجعك بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمه، واليوم غنيمة، وصديق أتاك، ولم تأته، طالت عليك غيبته، وستسرع عنك رحلته، وغدا لا تدري من أهله، وسيأتيك إن وجد، فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ واعلم أنه أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله.

٧- الوصايا:

قد يشارف العظيم في قومه على الموت، فيحس بالمنية، فيوصي بنيه وعشيرته، بما يجب أن يكونوا عليه، وقد يرى زعيم القبيلة أن الموت يدب في جسمه دبيبا، فيجمع قومه، وخاصته، ويلقي إليهم بما يكون كعهد بينه وبينهم، وقد حفظت الآداب العربية للعصر الجاهلي كثيراً من الخطب في الوصايا بلغت قمة البيان، من ذلك وصية ذي الأصبع العدواني لابنه، وأوس ابن حارثة، ووصية أكثم بن صيفي لقومه.

٨- خطب الزواج:

تعود الأشراف عند زواج ذويهم، أن يتقدم ولي الزوج إلى وليها بخطبة، يطلب فيها يد موليته، ويبين مزايا الزوج، ويرد عليه وليها بخطبة كذلك، ويسمى هذا النوع من الخطب خطب الأملاك، ومن ذلك خطبة أبي طالب عندما تقدم يطلب يد السيدة خديجة بنت خويلد للنبي ﷺ.

مرتبة العرب في الخطابة

يعد كثير من الأدباء العرب في المرتبة الأولى من البيان، والمنزلة السامية في الخطابة، وقد ذكر ذلك أبو حيان في مقابساته؛ إذ قال حاكياً عن أبي سليمان: سمعته يقول نزلت الحكمة

على رءوس الروم، وألسن العرب وقلوب الفرس، وأيدي الصين. وقال: الحرف[1] الذي يدعى في العربية وينسب إلى الأدب موروث من العرب، وذلك أن أرضها ذات جدب، والخصب فيها عارض، وهم من أجل ذلك أصحاب فقر، وضر، وربما دفعوا إلى وصال[2] وطي[3]، وكل من تشبه في كلامهم وطريقتهم، وعبارتهم، اتضح ما هو غالب عليهم.. ألا ترى أن الشبع غريب عندهم، والرغب مذموم منهم، وهذه هي الحال التي فرقت بين الحاضرة والبادية، وقد زادتهم بحبوبتهم شرا، لكنهم عوضوا الفطنة العجيبة، والبيان الرائع، والتصرف المفيد، والاقتدار الظاهر؛ لأن أجسامهم نقيت من الفضول، ووصلوا بحدة الذهن إلى كل معنى معقول، وصار المنطق الذي بان به غيرهم بالاستخراج مركوزاً في أنفسهم، من غير دلالة، بأسماء موضوعة، وصفات متميزة، بل فشا فيهم كالإلقاء والوحي؛ لسرعة الذهن، وجودة القريحة.

(ونرى من هذا أنه يثبت للعرب أن الحكمة جرت على ألسنتهم، وأنهم موصوفون بحدة الذهن، والبديهة الحاضرة، وأن المعنى الجيد يسارع إلى خواطرهم كالوحي، والإشارة السريعة، لجودة قريحتهم، وكل تلك الصفات تضعهم في المرتبة الأولى من الخطابة)

وقد ادعى مثل هذه الدعوى، وزاد عليها أن العرب لا يساميهم في منزلتهم الخطابية أمة من الأمم، الجاحظ؛ إذ يقول في البيان والتبيين: وجملة القول: إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس، وأما الهند، فإنما لهم معان مدونة، وكتب مجلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة، ولليونان فلسفة، وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام، وتفصيله ومعانيه وبخصائصه، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة. وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة، وعن معاونة، وعن طول التفكير، ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم، وكل شيء للعرب، فإنما هو بديهة، وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة، ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو

(١) الحرف: الميل عن الكسب وقلة المال.

(٢) الوصال: أن يصل نهاره بليله جائعا.

(٣) الطي: المبيت جائعا.

بعير، أو عند المقارعة والمناضلة، أو عند صراع، أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده، إلخ.. إلخ.

وملخص ذلك الكلام أنه يدعي: أن العرب فى المرتبة الأولى فى البيان وأن الأمم اليونانية والفارسية والهندية دونهم بلاغة وفصاحة. ونحن نوافقه في الأولى، ونناقشه في الثانية؛ إذ كيف ساغ له أن يوازن بين خطباء العرب، وغيرهم من الأمم، مع عدم توافر الأسباب، والمهيئات التي تمكنه من الحكم الصادق؛ إن من الصعب الموازنة بين فصاحة لغة وأخرى، والموازنة في المقدرة الخطابية بين أمم مختلفة.

جاء في مقابسات أبي حيان: قلت لأبي سليمان: فهل بلاغة أحسن من بلاغة العرب؟ فقال: هذا لا يبين إلا بأن تتكلم بجميع اللغات على مهارة، وحذق، ثم تضع القسطاس على واحدة، واحدة، حتى تأتي على آخرها وأقصاها، ثم تحكم حكماً بريئاً من الهوى والتقليد والعصبية والمين، وهذا ما لا يطمع فيه إلا ذو عاهة.

فهل وازن الجاحظ هذه الموازنة؟ وهل أوتي علماً باللغات، واحدة واحدة ثم حكم حكما بريئاً من الهوى، والتقليد؟ إن الجاحظ قد اندفع وراء العصبية، والخصومة الشعوبية، فادعى دعواه هذه، وكانت اندفاعاته بعيدة عن الحق كل البعد، عندما أنكر خطب اليونان، وادعى أن لا بلاغة ولا خطابة عندهم، إن التاريخ يحفظ لهم عصراً ازدهرت فيه الخطابة، حتى كان لها معلمون، ومربون، وكان الشباب اليوناني يرى الخطابة مطمحاً، وأملا يسعى إليه، ليكون له نصيب من الرأى في إدارة شئون بلاده، هذا العصر هو عصر بيركليس، وما سبقه ووالاه، وكانت أغراض القول واسعة، وفرصه كثيرة، ففي المنتديات الأدبية، وفي المجامع، وفي المشاورات السياسية كان القول البليغ هدفهم، كل يشد له قوسه، ويرمي إليه سهمه، وكانت الدعاوى والرد عليها في المحاكم ميادين قول مترامية الأرجاء، وكانت الخطابة فيها غرضاً مقصوداً، واستمرت الخطابة في اليونان، ما استمرت فيهم الحرية السياسية، حتى استولى عليهم فيليب، وكان أبلغ خطبائهم ديموستين، وجاء الرومان، فحييت الخطابة، وكان سيد خطبائهم شيشرون.

ويجب أن ننصف الحقيقة فنقول: إن خطباء اليونان والرومان لم تكن أكثر خطبهم ارتجالية، بل كانت تعد إعداداً، فالخطيب الأثيني مهما تبلغ ثقته بنفسه، لا يجرؤ على الوقوف

موقف الخطيب، قبل أن ينظر نظرة عميقة فيما سيلقيه قبل إلقائه، خشية النقد المر الصادر عن سامعين ذوى أفهام ثاقبة، ونظرات فاحصة كاشفة، وكان شيشرون الرومانى يهذب خطبه ويتمرن على إلقائها، قبل التقدم لإلقائها على الجماهير، حتى أنه فى سن الستين قبل أن يقتل، كان يمرن نفسه على الإلقاء.

ولا يمنع هذا من أن يكون بينهم مرتجلون، ولكن كانوا أقل عدداً. أما خطباء العرب فقد كانوا لأميتهم، ولتعويلهم فى بيانهم على اللسان وحده مرتجلين، لحضورهم فيما بين الجنان واللسان، ويقول الجاحظ فيهم:

وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر.

وفى الحق أن الخطيب العربى يعد فى الطبقة الأولى بين خطباء الأمم، وأن الخطابة العربية فى العصر الجاهلى كانت حية ناهضة، لتوافر الدواعى إليها، ووجود ذوى اللسن والبيان، وأولئك كانوا كثيرين، وخصوصاً فى قبيلتى عبد القيس وإياد.

ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها

الألفاظ:

أول ما يلاحظه القارئ للمأثور من خطب العرب في الجاهلية على ألفاظها:

١ - قوة وجزالة حتى تصل أحيانا إلى الخشونة، ولعل السبب في ذلك:

(أ) قوة نفوسهم، وشدة بأسهم، واندفاعهم في حماسة؛ فإن الكلمات صورة حية لنفس قائلها، تجيش صدورهم بالبأس؛ فتندفع ألسنتهم بكلمات؛ هي صورة لتلك القلوب القوية الجريئة.

(ب) ومعيشتهم في الصحراء بأسائها، ولأوائها وشدتها، فأصبحوا لا يرون إلا ما فيها من جبال وآكام ووهاد، فيكون كل ما يصدر عنهم مناسبا لتلك المناظر، مأخوذا من تلك المشاهد.

(جـ) ومناسبة تلك الكلمات الجاسية الشديدة، للموضوعات التي قيلت فيها، فأكثرها قيل في دعوة إلى قتال، أو في مفاخرة بنزال، أو في وصف يوم كريهة، ونحو ذلك.

وأنسب الكلام لهذه الموضوعات ما كان شديداً، قوي الأسر، فخما ضخما؛ ليقرع الحس، ويدفع النفوس إلى حيث ترتخص الأرواح.

٢ - وقد كان في كلماتهم الحوشية الغريبة؛ ولعل هذه كانت من لغة حمير التي طغت عليها لغة قريش، حتى أخذت في الاندثار، وبقي في الخطب والشعر منها كلمات نابية؛ لأنها تعيش في غير بيئتها، متفردة عن أخواتها.

٣ - ونجد في خطبهم سوق الحقيقة قائمة، وسوق المجازة كاسدة، فألفاظهم إلا قليلا مستعملة فيما وضعت له، وذلك لإحاطتهم الكاملة بلغتهم، وعلمهم علما صحيحا بمدلولات الألفاظ، ووجه دلالتها عليها، وقلة حاجتهم إلى استعمال لفظ في مدلول آخر؛ لعدم وجود طوائف من المعاني ليس في العربية ما يدل عليها، وهذا لا يمنع أن يكون في كلامهم الكنايات الرائعة، والأمثال السائرة، والتشبيهات المحكمة؛ فإن ذلك كان عندهم، ولكن لم يكن كثيرا في خطبهم؛ لإرسالهم القول ارتجالا من غير تحضير وتهيئة.

المعاني:

معاني الخطب الجاهلية:

١ – فطرية تنشأ عن اللمحة العارضة، والفكرة الطارئة، وعفو الخاطر من غير كد للفكر، ولا تعمق في النظر؛ لأنهم لم يكونوا أهل علوم يسودهم التفكير المنظم، والتقسيم المستقرى، والتتبع لكل أشتات الموضوع؛ ليجمع شملها في خطبة، ويضم متفرقها في بيان.

٢ – ولذلك جاءت خطبهم غير متماسكة الأجزاء، وغير مسلسلة الأفكار، لا يأخذ المعنى بحجز الآخر في فكر رتيب؛ لتستوفي الموضوع كله، وأصدق الخطب التي تدل على هذه الحال فيهم، خطب أكثم بن صيفي، فإنها حكم منثرة؛ بل هي در منثور غير منتظم في عقد.

ولكن إذا اتحد الغرض في الخطبة، جاء التماسك في الجملة في أجزائها، وكثيرا ما تكون الخطب التي على هذه الشاكلة موجزة كل الإيجاز، كخطبة أبي طالب في زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها.

٣ – وقد كان عدم تماسك أفكارهم من دواعي كثرة الحكم والأمثال في خطبهم، حتى لقد رأيت أن أكثم كما بينا، كانت خطبه كلها حكما، وقد يستشهد بعضهم بحكمة عالية لغيره، أو بمثل سائر يضربه، ليقايس بين حال من يخاطبهم، وحال من قيل المثل فيهم.

٤ – وأخص ما تمتاز به المعاني الخطابية عند العرب صدقها، وعدم وجود الإغراق والمبالغة فيها، وذلك لما فيهم من صراحة، وحب للصدق وللحقيقة.

٥ – وقد ترى في نصائحهم ووصاياهم معاني اجتماعية، وخلقية عالية، ولكنها في جملتها ليست مبنية على دراسة وبحث، بل هي صورة لتجارب الحياة، تجري على الألسنة من غير كد للذهن، ولا تعمق في الدرس، كما أسلفنا.

الأسلوب:

١ – أول ما تلقاه في المأثور من الخطب العربية أنك لا تجد الخطب قد لوحظ فيها حسن الافتتاح، وتنسيق الموضوع، وتجزئته، ثم حسن اختتامه؛ فإن ذلك شأن الخطيب الذي يحبر خطبته ويزور كلامه، ويهيئه، ويعده، ولم يكن أكثر خطباء الجاهلية كذلك؛ بل كانوا

يرتجلون الكلام ارتجالا، ولذلك لم تكن خطبهم متسقة مجزأة، بل كانت في الجملة غير متماسكة؛ لعدم تماسك معانيها كما بيناه.

٢- وأسلوبهم الكلامي لا تكلف فيه، ولا صناعة، لعدم عنايتهم بتهيئة القول، ولذلك خلا من كل المحسنات اللفظية، كالجناس والتورية، وما إلى ذلك مما نص عليه في علم البديع.

٣- كانوا أحيانا يسجعون في خطبهم، كما ترى في سجع الكهان، وأحيانا يأتون بجمل مزدوجة، كما ترى في خطب الوفد العربي لدى كسرى، وأحيانا يرسلون القول أرسالا؛ ولكن أيها كان أكثر، وأشيع، الكلام المرسل، أم المسجع والمزدوج؟ لقد اختلف الأدباء في الإجابة عن هذا السؤال؛ فغريق يقول إن السجع والازدواج كانا أكثر شيوعا على ألسنة الخطباء من الأرسال؛ لأن المروى من خطب الجاهلية أكثره مسجوع أو مزدوج، وإنك لتقرأ ما رواه الأمالي. والعقد الفريد، وغيرهما من كتب الأدب منسوباً إلى العصر الجاهلي؛ فترى أن أوضح ما يظهر في ديباجته السجع والازدواج، ولا يطعن في هذا بالشك في صحة النسبة، أو بالرواية بالمعنى؛ لأن من يقول قولا على لسان غيره، ولو كاذبا، يجتهد في أن يكون كلامه صورة قريبة مما يجرى على ألسنة من ينحلهم قوله، فالرواة الذين نحلوا الجاهليين تلك الخطب لابد أن يأتوا بكلامهم على النحو الذى يعرفه الناس عن العصر الجاهلي، فإذا أتوا بذلك الكلام مسجوعاً، فهو يدل على أن الناس في عصر الرواة ما كانوا يعرفون عن خطب العرب، إلا أن أكثرها مسجوع، وحسبك هذا دليلا على شيوع السجع عند الجاهليين.

ويرى آخرون أن الأرسال هو الأكثر شيوعا على ألسنة الخطباء؛ لأنه هو الذى يتفق مع الارتجال، والقول على البديهة اللذين عرفا في العرب، ولأنه هو الذى يساوق الفطرة، ولأن أكثر كلام النبي ﷺ، الذى ثبتت صحته، وأكثر خطب الصحابة التي لا مجال للطعن في صدقها مرسل قليل السجع، والازدواج، وأكثر أولئك أدرك العصر الجاهلي، فلو كان السجع طريقاً خطابياً معروفاً مألوفا لهم، ما خالفوه، ولا نعرف أن من أوامر الشرع ما يدعوهم إلى المخالفة، والابتعاد عن أمر معروف عند الجاهليين أنه من طرائق التأثير البياني، ولأنه قد تواتر عن العرب أن الكهان كان لهم كلام متمايز بديباجته، يخالف المألوف للعرب، وامتاز ذلك الكلام بالسجع الملازم،فلو كان السجع أمراً شائعاً يشمل الجزء الأكبر من خطب الخطباء، ما امتاز كلام الكهان عن سواه، وما صار له لون يغاير بقية الكلام، ولأنه قد جاء في البيان والتبيين للجاحظ؛ قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم

نفسك القوافي، وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد، لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب، والحاضر، والراهن، والغابر؛ فالحفظ إليه أسرع؛ والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد، وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون؛ فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره.

وهذا الكلام يدل على أن أكثر الخطب الجاهلية، لم يكن سجعاً، وإلا ما ضاع أكثرها، ولم يبق إلا أقل من العشر، ويردون على الفريق الأول في استدلاله بكثرة السجع في المروي على أنه للكثرة في الخطب- بأن الخطب المسجوعة هي التي رويت، مع قلتها بالإضافة إلى غير المسجوع، وذلك لنفاستها، وسهولة حفظها، وقوة علوقها بالنفس، وثباتها فيها، لما فيها من التزام قافية ووزن، وهما يسهلان اللفظ. وأنت ترى أن كلا له وجهة، ونحن إلى الثاني أميل.

الإيجاز والإطناب:

وقبل أن نختم الكلام في الأساليب العربية نتكلم على الإيجاز والإطناب في خطبهم، فنقول: لم نجد في المأثور عن العرب خطبة طويلة، بل كلها موجزة ولعل الذي بين أيدينا جزء من خطبة طويلة، علق بالقلوب، وذهب أكثرها في ضلال نسيان الراوي، أو هو الخطب القصار حفظها الرواة؛ لقصرها، وعجزوا عن ضبط الطوال لطولها، وذلك لأن أخبار العلماء والأدباء والرواة تدلنا على أن العرب كانت لهم خطب طوال، وأخرى قصار، ولكل حال تقتضيه في نظرهم، ففي خطب النكاح مثلاً يطيل الخاطب، ويقصر المجيب، وفي خطب الصلح كانوا يطيلون، قال الجاحظ: «والسنة في خطبة النكاح أن يطيل الخاطب. ويقصر المجيب، ألا ترى إلى قيس بن خارجة بن سنان لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخرة راحلتي الحاملين في شأن حمالة[1] داحس[2] والغبراء. وقال: مالي فيها أيها العشمتان[3] قالا: بل عندك؛ قال: عندي قرى كل نازل، ورضا كل ساخط، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل، وأنهى فيها عن التقاطع. قالوا: فخطب يوماً إلى الليل. فما أعاد فيها كلمة ولا معنى، فقيل لأبي يعقوب: هلا اكتفي بالأمر بالتواصل، عن النهي عن التقاطع، أو ليس الأمر بالصلة هو النهي عن القطيعة. قال: أو علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشف؟ ويظهر أنهم كانوا يطيلون القول في المفاخرات، لأن الإنسان إذا مال إلى

(١) الحمالة الدية. (٢) داحس والغبراء. فرسان كانتا سبباً في حرب طاحنة.

(٣) العشمتان واحدها عشمة وهي الطمع. والشيء اليابس.

الشيء أكثر من ذكره؛ والفخر بالحسب والنسب، وشريف الخصال من صفات العرب التي امتازوا بها.

وقد كانوا في إطالتهم، وإيجازهم بلغاء، أقوالهم محكمة، وقد قال الجاحظ في وصف الطوال منها: «ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة، ومشاكلا في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد. وقال في وصف العرب بشكل عام: ولم أجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح ألفاظا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعا رديا، ولا قولا مستكرها.

الخطيب الجاهلي
وعاداته

١ – الخطيب العربي زعيم القبيلة، أو بطلها، أو حكيمها، أو قاضيها، أو رجل من آحادها، ولكن يمتاز بميزة ليست في دهمائها، تجعله في منزلة تسمح له بأن يدعو، فيجاب، وأن يرشد، فيسترشدوا به، ولذا كان الخطيب العربي من أسدّ العرب رأياً، وأحكمهم نظراً وأبعدهم مدى، فرجاحة الفكر أولى مميزات الخطيب العربي في قومه، فأكثم بن صيفي أحكم تميم، وقس بن ساعدة من أقوى أهل الفكر عند العرب، وكعب بن لؤي كان شيخ كنانة في عصره، وعبد المطلب بن هاشم كان زعيم قريش، وأنبلها، وأسدها فكراً، وكل أولئك خطباء.

٢ – والخطيب العربي يخطب قوما اشتهروا بالفصاحة واللسن، وسلامة الفطرة، فلا يؤثر فيهم، ولا ينال من قلوبهم، إلا إذا كان يعلوهم فصاحة، ويسبقهم لسنا وبيانا، فلا يكون فيه بالأولى عيب من العيوب البيانية التي لا تتفق مع فصاحة اللسان، وجودة النطق، فلا يكون فيه عي، ولا حصر، ولا فأفأة، ولا تمتمة، ولا شيء من عيوب النطق والبيان، وكذلك كان الخطيب العربي فصيح العبارة، طلق اللسان، واضح اللهجة جيد الإلقاء.

٣ – كان الخطيب في الجاهلية يدعو العرب أحيانا إلى خوض غمرات الموت، والسبح في لجج من الدماء، فلا يصح أن تتنافى حاله مع ما يدعو إليه، لابد أن يكون جرئ القلب، قوي النفس، رابط الجأش لا تعروه رعدة، ولا اضطراب في موقفه، وإلا ضعف تأثيره، وذهب كلامه هباء، وكذلك كان خطيب الجاهلية، شجاع جرئ، ثابت الجنان، رابط الجأش، لا اضطراب، ولا وجل ولا خوف.

٤ – كان خطيب الجاهلية جهير الصوت مرتفعه. وكانوا يستحسنون ذلك في الجملة، ولذلك قالوا في وصف الخطيب المجيد: خطيب مصقع، من الصقع وهو رفع الصوت. ٥

وحضور البديهة من أخص أوصاف الخطيب العربي، لأن أكثر خطبه مرتجل، والارتجال عدته، وذخيرته بديهة حاضرة تسعفه بما يريد في أوجز مدة.

لم يكن الخطيب العربي منفراً في شكله، بل كان أقرب إلى الجمال، والجمال من مظاهره في نظرهم بسلامة الأسنان والفم، وقوة الجثمان، واستقامة القناة، فيكون كالرمح لا انحناء فيه، وبياض الوجه.

ولذا قال الشاعر مادحا خطباء قبيلته.

خطباء حين يقوم قائلنا بيض الوجوه مصاقع لسن

والخطيب الجاهلي ذو مهابة، وسمت ووقار وشرف، وبزة حسنة، وحسب ونسب، وفي الجملة فيه أكثر أوصاف الخطيب الكامل.

(ز) ومن عادات العرب في الخطابة:

(أ) أن يقف الخطباء على مرتفع من الأرض.

(ب) وأن يكونوا على زي خاص في العمامة واللباس تفخيما لعمله.

(جـ) وأخذهم المخصرة[1] بأيديهم، ومن ذلك قول الشاعر.

يكاد يزيل الأرض وقع خطابهم إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر

وكانوا أحيانا يعتمدون على القسي بدل المخاصر، ومنهم من كان يتخذ المخاصر في خطب السلم، والقسي في خطب الحرب، إشعارا بما ينوي قوله، وليكون لسان حاله متفقا مع مقاله في الدعوة إلى القتل والقتال.

(د) ومن عاداتهم أيضاً رفع أيديهم، ووضعها، وتأدية كثير من أغراضهم بحركاتها، إن كان ثمة داع لذلك، ولم تذهب تلك الحركات بهيبة الخطيب ووقاره ورزانته.

وقد انتقلت عادات كثيرة من عادات الجاهلية في الخطابة إلى الإسلام.

(١) شيء يشبه العصا.

من المأثور من خطب العرب في الجاهلية

كثرة الخطباء في الجاهلية، وقلة المروي من الخطب

خطباء الجاهلية كثيرون، من أقدمهم كعب بن لؤى (الجد السابع لرسول الله ﷺ)، كان يخطب العرب عامة، ويحض على البر كنانة خاصة، ولما مات أكبروا موته، وأرخوا به حتى عام الفيل، ومنهم ذو الأصبع العدواني، وسمي بذلك؛ لأن حية نهشت إبهام رجله، فقطعته، ومنهم أبو عمار الطائي خطيب مذحج، وقد بلغ النعمان بن المنذر حسن حديثه، فحمله إليه، وكان النعمان شديد العربدة، قتالا للندماء، فقتله في مجلس شراب له، ومنهم النعمان هذا وخطباؤه عند كسرى: أكثم بن صيفي، وحاجب بن زرارة التميميان، والحارث بن عبادة، وقيس بن مسعود البكريان، وخالد بن جعفر، وعلقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل العامريون، وعمرو بن الشريد السلمي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والحارث بن ظالم المرى، وكلهم يشار إليه بالبنان في العرب، ومنهم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ، وأبو طالب عمه، وقس بن ساعدة الإيادي خطيب عكاظ، وداعي العرب إلى التوحيد، ومنهم عطارد بن حاجب ابن زرارة، وقد أدرك النبي ﷺ، وخطب بين يديه.

وبعض القبائل اشتهر بكثرة الخطباء، كإياد، وعبد القيس، قال الجاحظ: وشأن عبد القيس عجيب، وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين: ففرقة وقعت بعمان، وفيهم خطباء العرب، وفرقة وقعت بالبحرين، وشق البحرين وهم من أشعر قبائل العرب، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية، وفي معدن الفصاحة، وهذا عجيب!.

وإذا كان خطباء الجاهلية كثيرين كما رأيت؛ فلابد أن تكون خطبهم كثيرة، ولكن المأثور من الخطب قليل، لا يتناسب مع تلك الكثرة.

جاء في صبح الأعشى: قال صاحب الريحان والريعان: إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر، من جيد المنثور، ومزدوج الكلام، أكثر مما تكلمت به من الموزون، إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره؛ لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذى يقوم فيه في مشافهة الملوك أو الإصلاح بين العشائر، أو خطبة النكاح، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه بخلاف الشعر، فإنه لا يضيع منه بيت واحد.

قال: ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الأنام، وهو أن النبي ﷺ هو الذي رواها عنه، فأطار ذكرها، ما تميزت عن سواها».

ولماذا كان حظ الخطب النسيان، وحظ الشعر الحفظ؟ يعلل ذلك القلقشندي، بشيوع قول الشعر في الحواضر والبوادي، وبين الخاصة والعامة، وسهولة حفظه، وكون الخطب لا تكون إلا من عظماء الفصحاء، واختصاصها بالمواقف العظيمة التي ربما لا يحضرها دهماء العرب، فقد كان يقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم، ممن فاز بقدح الفضل، وسبق إلى ذرا المجد، ويخصون ذلك بالمواقف الكرام، والمشاهد العظام والمجالس الكريمة، والمقامات الحفيلة، وما يلقى على العامة تتبادله الألسنة، ويشيع، أما ما يلقى على الخاصة فغير شائع، ولا معروف، ولا تتناقله الرواة، ولكن إذا كان هذا يصلح علة لنسيان ما كان يلقى على الخاصة فما علة نسيان ما كان يلقى في الأسواق والمجامع العامة، وما كان يلقيه زعيم القبيلة على القبيلة كلها صغيرها وكبيرها؟ يظهر أن العلة لهذا:

(أ) أمية العرب، ولو كان العرب يكتبون على الرقوق، أو ينقشون على الأحجار كالأمم ذوات الحضارات، لوجدنا آثارهم ناطقة بخطبهم ومحاوراتهم التي تشتمل على القول البليغ، والبيان الرائع، الآخذ بالألباب.

(ب) وكون الشعر سهل الحفظ والنثر صعبه؛ إذ الوزن في الأول جعل الآذان تنشط لسماعه والقلوب تميل إلى حفظه.

ومهما يكن من الأمر فما بقي يعطينا صورة للخطابة في الجاهلية وإن لم تكن كاملة، ويبين لنا حالها، وإن لم يكن البيان شافيا وافياً.

نماذج من خطب الجاهليين

١- كلمة قبيصة بن نعيم حين قدم على امرئ القيس مع وفد بني أسد

وفد على امرئ القيس بعد قتل أبيه رجالات من بني أسد، فيهم قبيصة بن نعيم، فبالغ امرؤ القيس في إكرامهم، واحتجب عنهم ثلاث ليال، ثم خرج إليهم، فنهض قبيصة، وقال: إنك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه، وتتنقل به أحواله، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ، ولا تذكرة مجرب، ولك من سؤدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك في العرب، محتد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، والرجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية، إلا رجعت إليك، فوجدت عندك من فضيلة الرأى، وبصيرة الفهم، وكرم الصفح، ما يطول رغبتها، ويستغرق طلباتها، وقد كان الذى كان من الخطب الجليل الذى عمت رزيته نزارا واليمن، ولم تخصص به كندة دوننا للشرف البارع؛ كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد، وطيب الشيم، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده، لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا، وأعلاها في بناء المكرمات صوتا فقدناه إليك بنسعه[1]، يذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته[2]، فيقال رجل امتحن بهالك عزيز، فلم يستل سخيمته إلا بمكنته من الانتقام. أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها، لم يردد تسليط الإحن على البرآء. وإما أن وادعتنا إلى أن تضع الحوامل، فتسدل الأزر، وتعقد الخمر فوق الرايات.

جواب امرئ القيس:

فبكى امرؤ القيس، ثم رفع طرفه إليهم، وقال: لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وأنى لن أعتاض به جملا أو ناقة؛ فأكتسب به سبة الأبد، وفت العضد؛ وأما النظرة فقد

(١) النسع بكسر النون سير من الجلد تشد به الرحال.

(٢) القصرة الباقي بعد الاشتحال أو أصل العنق.

أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ولن أكون لعطبها سبباء وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل من القلوب حنقاء وفوق الأسنة علقا.

إذا جالت الحرب في مأزق   تصافح فيها المنايا النفوسا

وصية زهير بن جناب الكلبي بنيه

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه فقال: يابني إني قد كبرت سني، وبلغت حرساً[1] من دهري؛ فأحكمتني التجارب، والأمور تجربة واختبار؛ فاحفظوا عني ما أقول، وعوه: إياكم والخور عند المصائب، والتواكل عند النوائب؛ فإن ذلك داعية للغم، وشماتة للعدو وسوء ظن بالرب، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم قط، إلا ابتلوا؛ ولكن توقعوها؛ فإن الإنسان في الدنيا غرض، تعاوره الرماة، فمقصر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لابد أن يصيبه.

وصية ذي الأصبع العدواني

لما احتضر ذو الأصبع العدواني، دعا ابنه أسيدا، وقال له: يابني، إن أباك قد فني، وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته، بلغت في قومك ما بلغته؛ فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، واسمح بمالك، واحم حريمك، وأعزز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أجلا لا يعدوك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا، فبذلك يتم سؤددك.

خطبة لمرثد الخير في الصلح

جاء في الأمالي بسنده، كان مرثد الخير بن ينكف بن معد يكرب بن مضحى قيلاء، وكان حدبا على عشيرته، محبا لصلاحهم، وكان سبيع بن الحارث، وميثم بن مثوب بن ذي

---

(١) الحرس: الزمن والدهر.

رهين، تنازعا الشرف، حتى تشاحنا، وخيف أن يقع بين حييهما شر، فيتفانى جذماهما[١] فبعث إليهما مرثد، فأحضرهما ليصلح بينهما، فقال لهما: إن التخبط[٢] وامتطاء الهجاج[٣] واستحقاب[٤] اللجاج سيقفكما على شفا هوة، في توردها بوار الأصيلة[٥] وانقطاع الوسيلة، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشتت الألفة، وتباين السهمة[٦] وأنتما في فسحة رافهة، وقدم واطدة، والمودة مثرية[٧] والبقيا معرضة[٨]، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب، ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صيور[٩] أمورهم، فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأى[١٠]، واستفحال الداء، وإعواز الدواء، فإنه إذا سفكت الدماء، استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت[١١] عرا الإبقاء، وشمل البلاء.

- خطبة عبد المطلب بين يدي ذي نواس

ذهب وفد من قريش إلى ذي نواس بعد أن ظفر بالحبشة، وأجلاهم عن بلاده، فلما مثلوا بين يديه، قال عبد المطلب: إن الله أيها الملك، أحلك محلا رفيعا، صعبا منيعا، باذخا شامخا، وأنبتك منبتا طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت أبيت اللعن رأس العرب، وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه. نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته، وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشفك الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة[١٢].

(١) الجذم الأصل. (٢) التخبط ركوب الرجل رأسه في الشر. (٣) الهجاج اللجاجة في الشر.

(٤) استحقاب اللجاج حمل حقيبته، والمراد من هذا اعتزام الخصومة والشر.

(٥) الأصيلة الأصل. (٦) السهمة القرابة. (٧) مثرية هنا معناها متصلة.

(٨) معرضة معناها ممكنة (٩) الأمر الذي يرجع إليه والمراد هنا العاقبة.

(١٠) الثأى بفتح الهمزة وسكونها الإفساد والقتل والجرح.

(١١) تقضبت معناها تقطعت. (١٢) المرزئة: الرزء والمصيبة.

خطبة أبي طالب في زواج النبي ﷺ

من السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما، وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس. وإن محمد بن عبد الله بن أخي لا يوزن به فتى من قريش، إلا رجح به بركة وفضلا وعدلا ومجدا ونبلا، وإن كان في المال مقلا فإن المال عارية مسترجعة، وظل زائل، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أردتم من الصداق فعلىّ.

خطبة أكثم بن صيفي

في قومه عندما جاءه نبأ النبي ﷺ

روى في مجمع الأمثال عن ابن سلام الجمحي قال: لما ظهر النبي ﷺ بمكة المكرمة، ودعا الناس إلى الإسلام، بعث أكثم بن صيفي ابنه حبيشا، فأتاه بخبره فجمع بني تميم، وقال: يابني تميم، لا تحضروني سفيها؛ فإنه من يسمع يخل أن السفيه يوهن من فوقه، ويثبت من دونه، لا خير فيمن لا عقل له، كبرت سني، ودخلتني ذلة، فإن رأيتم مني حسنا؛ فاقبلوه، وإن رأيتم مني غير ذلك، فقوموني أستقم. إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة وأتاني بخبره، وكتابه يأمر فيه بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه. إن أحق الناس بمعونة محمد (ﷺ)، ومساعدته على أمره أنتم، فإن يكن الذى يدعو إليه حقا، فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلا، كنتم أحق الناس بالكف عنه، وبالستر عليه، وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله، وسمى ابنه محمدا؛ فكونوا في أمره أولا، ولا تكونوا آخرا، ائتوا طائعين، قبل أن تأتوا كارهين. إن الذى يدعو إليه (محمد ﷺ) لو لم يكن دينا لكان في أخلاق الناس حسنا، أطيعوني، واتبعوا أمرى، أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبدا، وأصبحتم أعز حي في العرب، وأكثرهم عددا، وأوسعهم دارا، فإني أرى أمرا لا يجتنبه عزيز إلا ذل، ولا يلزمه ذليل إلا عز. وإن

الأول لم يدع للآخر شيئا، وهذا أمر له ما بعده، من سبق إليه غمر المعالى، واقتدى به التالى، والعزيمة حزم، والاختلاف عجز.

فقال مالك بن نويرة: قد خرف شيخكم! فقال أكثم: ويل للشجى من الخلى، والهفى على أمر لم أشهده، ولم يسبقنى.

نصيحة الجمانة بنت قيس لجدها الربيع بن زياد

اشترى قيس بن زهير درعا من مكة، فاغتصبها منه عمه الربيع بن زياد، فتقدمت الجمانة بنته، وقالت:

إذا كان قيس أبى، فإنك ياربيع جدى، وما يجب له من حق الأبوة على، إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى، والرأى الصحيح تبعثه العناية، وتجلى عن محضه النصيحة. إنك قد ظلمت قيسا بأخذ درعه، وأجد مكافأته إياك سوء عزمه، والمعارض منتصر، والبادى أظلم، وليس قيس ممن يخوف بالوعيد، ولا يردعه التهديد، فلا تركنن إلى منابذته، فالحزم فى متاركته، والحرب متلفة للعباد، ذهابة بالطارف والتلاد، والسلم أرخى للبال، وأبقى لأنفس الرجال. وبحق أقول: لقد صدعت بحكم، وما يدفع قولى، إلا غير ذى فهم. ثم أنشأت تقول:

أبى لا يرى أن يترك الدهر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى

فرأى أبى رأى البخيل بماله وشيمة جدى شيمة الخالف الأبى

الخطابة في صدر الإسلام

تمهيد

في عصور الانقلابات الفكرية والاجتماعية، والسياسية تسود الخطابة، حيث يصطدم القديم والجديد، والمألوف، بما هو غريب بدئ؛ إذ تدهش له العقول، فتتحير بعض الألباب أمداً طويلا أو قصيرا وتضطرب بعض النفوس بين ما ألفت من قديم، وما عرفت من حديث، وينكر الحق بعض الذين يرون مصلحتهم العاجلة في التمسك بالقديم؛ والأخذ بأهدابه، والنفوس الصافية، والقلوب الزاكية تدرك الصواب، وتزحزح عنها أدران الباطل، تمحص الحق، وتحلب سائغه، وتتجه إلى نوره، يشتد الاختلاف بين أولئك وهؤلاء، كل يدلي بحجته، وكل يريد اجتذاب الجماعة إلى طريقه، وكل يتخذ وسائل الإغراء؛ لتسلك مهيعه، وذلك بلسان ذرب، وبيان رائع، وبلاغة واصلة إلى أعماق القلوب. واعتبر ذلك في عصورنا الحديثة بالثورة الفرنسية، حيث فكت فيها الألسنة من عقالها، واندفعت تنطق بعبارات ملهبة، تثير الثائرة، وتشبع النفوس الثائرة؛ وتوقظ القلوب الحائرة. وقبلها كانت الثورة الإنجليزية التي وضع على أثرها الدستور الإنجليزي أول الدساتير الحديثة، وأقدمها، انطلقت فيها الألسنة بخطب قوية، وألفاظ نارية، وكذلك كانت الثورة الأمريكية، واعتبر ذلك في القديم بحال اليونان في عصر بركليس، إذ ازدهرت الخطابة لهذا الانقلاب الفكري والاجتماعي والسياسي، الذي نوج به تاريخ ذلك العظيم. واعتبر ذلك أيضا بحال الرومان في عصر يوليوس قيصر، إذ كانت الخطابة هي التي تلقي النخوة في قلب الروماني، فجعلت منه فاتحا في الشرق والغرب، تخفق الراية الرومانية حيث وضع قدمه، وحيث خفق قلبه بالنجدة والبأس والمروءة. وإذا كان محمد ﷺ قد أحدث دينه الحق انقلابا سياسيا، ودينيا، واجتماعيا، وفكريا في العرب (بل في كل العالم) لم ير التاريخ له نظيراً، فلابد أن تكون قد صحبته حركة بيانية خطابية، لم تعرف في أمة من قبل، وكذلك كان، بمجرد أن صدع النبي ﷺ بالحق، ودوى صوته الرهيب الكريم في بلاد العرب، وانبعث ذلك النور الوضاح، فأضاء السهول والجبال، بمجرد أن كان هذا، تجرد المقاول من العرب للرد عليه أو الدعوة إليه، وكان وهو الفصيح القرشي، ذو البيان النبوي يجادل ويناضل، ويدافع ويصاول، وليس له إلا لسان أيده روح القدس، وحق أوحى الله سبحانه به، وإذا عرفت أن الحجة التي كان يدلي بها برهانا على رسالته وحجة لدعوته من نوع الكلام، وإن كان من رب العالمين، وفيه المثل الكامل للبلاغة، إذا علمت ذلك،

وعلمت أن العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبيان. علمت أى مقدار من البلاغة قد استفادته الخطابة العربية بالدعوة المحمدية.

هذا إجمال، وما سيأتى تفصيله.

الحياة الإسلامية فى صدر الإسلام

لتعرف ما طرأ على الخطابة من تغير فى الدواعى والأغراض، يجب أن تعرف ما طرأ على النفس العربية من تغير فى مظاهرها، وأحوالها الدينية، والاجتماعية، والسياسية.

الأحوال الدينية:

كان العرب فى القديم يعبدون الأوثان، ويكاد يكون لكل قبيلة إله تعبده، فلما جاء الإسلام جمعهم على إله واحد، هو الله سبحانه وتعالى.. ﴿ **لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير** ﴾ وأحلهم مكان العادات الجاهلية، عادات إسلامية عالية، تزكى النفس وتطهر القلب، وتجعل من الشخص العربى الذى لا يحس إلا بشخصه وقبيلته شخصا اجتماعيا، يوثق الصلة بينه وبين بنى الإنسان. وإن شئت أن تعرف ما أودعه الإسلام نفس العربى من فضائل اجتماعية ونفسية، فاستمع إلى ما يقوله جعفر بن أبى طالب للنجاشى، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله، إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله وحده لنوحده، ونعبده، ولخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، أمرنا أن نعبد الله وحده، لانشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا.

فالإسلام كما ترى كل فضائله لتربية النفس، وتزكيتها، وجعل العربى وكل مسلم صالحا للائتلاف مع غيره، وبعد أن كانت كل فضائله فى الجاهلية شخصية، وجهه الإسلام

إلى الفضائل الاجتماعية؛ ليلتئم مع سواه، وبعد أن كانت الشجاعة في المبارزة والمناضلة للمفاخرة، صارت في الجهاد في سبيل الله لرفع كلمته، وبعد أن كان الجود ليملأ المعطي ماضغيه فخرا، صار في إمداد المجاهدين، وسد حاجة المعوزين، وإعطاء السائل والمحروم ابتغاء مرضاة الله، وحنانا وعطفا على بني الإنسان.

تغلغل الدين في كل شئ في هذا العصر، فصاروا لا يصدرون في عمل إلا عنه، وكانوا كلما جد شأن، أعملوا حكمه من الدين، إما بنص عليه، وإما بتأويل يرد إليه، وإذا صح قول نابليون: إن البواعث الدينية والإيثار والتقوى، هي التي يقوم عليها بناء الأمم. فلن نجد أدل من حال العرب على صدقها، فإن الدولة الإسلامية العربية قامت بباعث من الدين الحكيم، وتألفت بوحي الإيثار الذي أودعه الله قلوب العرب، وحميت بالتقوى والعزيمة حتى آخر عصر الخلفاء الراشدين.

الأحوال الاجتماعية:

قلنا إن الدين كان يسود في كل شئ؛ ولذا ساد في أكثر نواحي الحياة الاجتماعية، وما لم يسده كان واقعا تحت تأثير اجتماعي تقليدي، تنتقل فيه الأخلاق بالعدوى، لا بالفكر والإرادة، ومهما يكن من شئ، فقد امتازت الحياة الإسلامية الأولى: في زمن النبي ﷺ وأكثر زمن الخلفاء الراشدين بمظاهر اجتماعية منها:

محو العصبية أو سترها إلى حين:

إجابة لقول النبي ﷺ «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على العصبية».

ونستطيع أن نقول: إن العصبية الجاهلية اختفت في عصر الخلفاء الثلاثة الأولين خصوصا عصر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ فإن المسلمين كانوا سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وهم جميعا أمام حكم الله سواء، لا شريف ولا وضيع في تنفيذ الأحكام.

ومما يروى في ذلك أن جبلة بن الأيهم، وقد كان ملكا من ملوك الغساسنة، وطئ إزاره رجل من فزارة، فانحل، فرفع جبلة يده، وهشم أنف الفزاري؛ فشكاه هذا إلى عمر رضي الله عنه، فبين له عمر أن الحكم القصاص، أو عفو الأعرابي، فقال: كيف ذلك يا أمير المؤمنين، وأنا

ملك، وهو سوقة!؟ فأجابه عمر: إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله بشيء، إلا بالتقوى والعافية، ففر جبلة إلى بلاد الروم.

اختفت العصبية؛ لنهي النبي ﷺ في مثل الحديث السابق كما ذكرنا، ولأن العرب جمعوا تحت لواء واحد في الفتح الإسلامي فتآلفت قلوبهم، وسترت عصبياتهم، وشغلهم الجهاد عن الفخر بالآباء، والتمسك بالأنساب.

انتقال العرب من البداوة:

وتأثر الكثيرين من العرب ببعض الحضارة لما يلي:

(أ) لاختلاطهم بغيرهم من الأمم، فإن المدن العربية كانت تموج بعد الفتح الإسلامي بعناصر مختلفة من الأمم الأخرى، فالكوفة التي بناها عمر بن الخطاب للعرب؛ ليطلوا منها على الصحراء، كانت تموج بالموالي، والمدينة المنورة كانت (لأنها قصبة الدولة) مقصد ذوي الحاجات من كل الطوائف والأمم، والغنائم بما فيها من الأسرى، ما كانت توزع على المجاهدين إلا في المدينة المنورة، ومكة المكرمة كانت مقصد الحجيج من العرب، وغيرهم من المسلمين.

(ب) ولاستخدام العرب للرقيق، لما توزعوه فيئا وغنيمة، وقد كان العبيد والإماء من أمم ذوات حضارات قديمة، فأثر أولئك في البيت العربي، وأدخلوا فيه عادات لم تكن عند العرب.

(جـ) ولكثرة ما أفاء الله عليهم من مال ونعم، فقد ورثوا نعيم كسرى في فارس، وقيصر في الشام ومصر، وكانت لهم من ذلك حياة فاكهة، رقت طباعهم، وطبت نفوسهم، وفي الجملة تغيرت الحياة العربية، وانتقلت من بداوة جافة إلى نوع من الحضارة الممتزجة بالبداوة، قد سيطر عليها الدين، وعقلها من أن تصير انهماكا في الملاذ والعبث والمجون.

الأحوال السياسية:

اجتمع العرب تحت لواء واحد، لا يسيطر عليهم إلا الدين، وذهبوا إلى الممالك، فدوخوها، واستولوا عليها، وورثوا سلطان الفرس، وسلطان الروم في الشرق، وصاروا حكام هذه الأمم، يتضافرون في إدارة شئونها، ويتآزرون في هدايتها، فوحدوا أمرهم، وجمعوا أشتاتهم وجعلوا الحكم ليس مظهر العصبية، ولكن مظهرا لوحدة دينية، فالخلافة فيه لا تمثل قبيلة، ولكن تنفذ حكم الله، والخليفة لا يحكم بسلطانه، ولكن بسلطان الله سبحانه، وهم

جميعا مسئولون عما يوافقون عليه، ويأثمون إذا سكتوا عن إرشاد، فيما لايوافقون فيه من حكم.

أرسلوا حكاما للأمم المفتوحة وهداة ودعاة إلى الإسلام، وهم فى كل هذا لايصدرون إلا عن الدين الجامع بينهم، فالسياسة فى ذلك العصر كان مصدرها الدين، وكان ذلك من أسباب وحدتهم، وتلاقيهم فى جامعة الدين بعد طول افتراق، ولكن الخلافة فى آخر عصر الخلفاء الراشدين طمع إليها أقوام، ليسوا هم الأولى، ونافسوا ذوى الجدارة والأولوية، بل نازعوا الخليفة الرابع بعد أن بويع، فكان من ذلك فتن وحروب وانقسامات، فوق التى انتهت بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وحالت الحال، وتغيرت الأمور والأحوال.

دواعي الخطابة وموضوعاتها في ذلك العصر

كانت دواعي الخطابة في ذلك العصر تتفق مع ما عرض لهم، وما صادفهم من حياة، وما طرأ عليهم من أحوال وشئون سياسية واجتماعية.

وكان بدهيا أن تكون أولى الدواعي للخطابة هي الدعوة المحمدية والرد عليها، فقد جاء محمد ﷺ بذلك الدين الجديد في قوم، القول صناعتهم، والبلاغة جل عنايتهم، فخاطبهم بأبلغ القول، وخاطبهم بأروع الكلام، وخطب في مجامعهم مؤيداً رسالته، ناشراً دعايته، حتى ضاقت صدورهم عن سماع قوله، بعد أن عجزوا عن مجادلته ومقارعة الحجة بالحجة، فامتشقوا الحسام، وتكلموا بالسنان بدل اللسان، فالخطابة كانت الأداة الأولى للدعوة المحمدية، وكانت السلاح الذي يرفعه خصومه في الرد عليه، فكانت تلك الدعوة سببا في انتشار الخطابة، ورفع درجة البيان.

كان النبي ﷺ يلقى الناس في مواسم الحج، وفي المجامع، وفي المنتديات، ويدعوهم إلى الإسلام، ويأتي في ذلك بأبلغ الكلام.

انظر إلى خطبته الموجزة يوم صدع بأمر ربه، وأنذر عشيرته الأقربين، إذ قال ﷺ:

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالشر شراً، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد».

بيان الأحكام الشرعية:

لما دخل الناس في هذا الدين أفواجا أفواجا كان النبي ﷺ، يبين لهم أحكام دينهم، ويعرفهم ذلك الشرع الشريف، وذلك الهدى القويم، ويبين تفصيل ما أجمل القرآن الكريم، كما قال تعالت كلماته: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ ويوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه، أو ما التبس من أمر هذا الدين، وذلك البيان كان بأقوال محكمة، فيها وحي النبوة، وقبس من نور الرحمن، وقد قال تعالى: ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى ﴾. وانظر إلى خطبته عليه الصلاة والسلام التي مطلعها:

«أيها الناس، إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم» . وخطبته ﷺ التي مطلعها: «كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب» . وخطبته في حجة الوداع. انظر إلى تلك الخطب، ترى فيها الترغيب مع الترهيب؛ والموعظة الحسنة، والإيجاز الذي وفي، وجمع فأوعى...!

المشاورة:

كان رسول الله ﷺ إذا قدم على أمر خطير استشار أصحابه، عملا بقوله تعالى: ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ وتلك الشورى تكون بخطبة قيمة، يعرض عليهم الأمر فيها، ويتعرف رأيهم، ويأخذ بما اتفقوا عليه، ورجحوه؛ ليكون في ذلك قدوة للمسلمين؛ فلا يستبد بعضهم ببعض، ولا يغالي أحدهم في تقدير نفسه زاعما أن رأيه إلهام بالصواب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذ كان أولى البشر بالملك سيد البشر، ولكن الله سبحانه جعل فيه أسوة حسنة، وليكون حجة على كل من تحدثه نفسه بالملك الطغيان.

ومما استشار فيه النبي ﷺ أصحابه مسألة فداء أسرى بدر، والخروج إلى المشركين في غزوة أحد. وقد نهج الخلفاء الراشدون منهجه ﷺ عاملين بقوله تعالى: ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ فأبو بكر كان يستشير الصحابة في كل أمر ذي شأن، ويتعرف رأيهم إذا التبس عليه حكم من الأحكام، وكذلك كان عمر رضي الله عنه، بل إنه وسع باب الشورى؛ لما جد في زمنه من شئون وأحداث استدعت المشاورة، وتعرف الرأي الصائب وسط الآراء المتبادلة. وقسم شوراه قسمين:

شورى خاصة:

وتلك كانت تتألف من علية الصحابة، المهاجرين الأولين والأنصار السابقين، وأولئك يستشيرهم في صغرى الأمور وكبراها.

شورى عامة:

وتتألف من أهل المدينة أجمعين، يجمعهم في الحرم النبوي الشريف، وإذا ضاق بهم، جمعهم خارج المدينة المنورة، وعرض الأمر الخطير، ورأيه فيه، وكان سكان المدينة المنورة في هذا يشبهون سكان أثينا، إذ كان كل شخص له رأي في إدارة شئون الدولة. وفي الشورى العامة تتبادل الخطب، ويدلي كل ذي رأي برأيه وحجته، ومن المسائل التي استشار فيها عمر سكان المدينة المنورة، خروجه على رأس الجيش إلى فارس، وقد ذكر الطبري في ذلك خطب الصحابة

علي وطلحة وغيرهما، التي أبدوا فيها آراءهم، وأدلتهم، ومنها مسألة أرض سواد العراق، وغير هذا كثير.

ونرى من ذلك كله، كيف كانت الشورى في ذلك العصر، كشأنها في كل العصور، محركة للألسنة، دافعة أهل البيان إلى البيان.

الحرية الشخصية:

كفل الإسلام للعربي حريته الشخصية بل نماها فيه، وسلك بها الطريق القويم، الذي يجعل تلك الحرية مثمرة صالحة، ولا يجعلها داعية لتمزق الجماعة، وذهاب ريحها، وأفول نجمها، وقد سار الخلفاء الراشدون على سنن هذا الدين في إحياء النخوة العربية والمحافظة عليها.

انظر إلى العربي الذي يقول لعمر بن الخطاب: والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا، فيحمد عمر الله سبحانه أن جعل في المسلمين من يقومه بالسيف إذا اعوج!.

وانظر إلى المرأة التي تقطع على عمر خطبته عند ما دعا إلى حد المهور تالية قوله تعالى: ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتاناً وإثما مبينا ﴾. فيقول أخطأ عمر وأصابت امرأة!

انظر إلى هذين المثالين، ترى كيف كان يتمتع العربي بحرية شخصية كاملة.

ويقول بعض الأدباء: إن الخطابة تزهو وتقوى في كل أمة تتمتع بالحرية الشخصية؛ وكل أمة غلبت على أمرها، وفشت فيها المذلة، ضعفت الخطابة فيها، وتحولت من الحماسة إلى الضراعة، ولذلك امتنعت الخطابة في العبرانيين كما نقل إلينا، وانصرفت قرائحهم إلى نظم المراثي والحكمة، وتنميق الشكوى، وتنسيق التظلم؛ لهذا نقول: إن الحرية التي سادت المسلمين في صدر الإسلام كانت داعياً للقول البليغ، يجابهون به الخلفاء الراشدين، ولولا ما في صدورهم منها، ما ظهر ذلك القول، وما تقدموا معترضين على الخلفاء الراشدين بخطب ممتازة.

الجهاد في سبيل الله:

اعتدى المشركون على المسلمين، فأمر الله، نبيه بأن يقاتل المشركين كافة، كما يقاتلونه كافة، فقاتلهم عليه الصلاة والسلام حتى صار الدين كله لله سبحانه، لا سلطان لأحد

على القلوب. ومن بعده أبلى المسلمون الناشئون بلاء حسناً في قتال المرتدين، وفي حروبهم فاتحين البلاد شرقاً وغرباً، وكانت الخطابة ذخيرة معهم، يحتفظ بها القواد دائماً؛ ليمدوا بها الجند، إن رأوا فيهم إعياء؛ فجعلوا من ضعفهم قوة، ومن تقهقرهم تقدما وانتصارا.

قال نابغة الحروب نابليون في بيان مقدار حاجة الجيوش إلى القوة المعنوية: نسبة القوة الجسدية إلى القوة المعنوية في الانتصار كنسبة ١ : ٣.

وقال أحد القواد الألمان في ذلك العصر: إنه مع التقدم الفني في العصر الحديث، نرى العنصر المعنوي برهن على أنه في الحاضر، كما كان في الغابر، العامل الحاسم في الحرب.

فالجيش من غير روح تدفعه كالسيف من غير يد تحمله، لا يريق دماء، ولا يدفع عادية؛ ولا يغذي الروح إلا الخطابة؛ وكلما كان القائد أملك لعنان القول مع أخذ الأهبة، كان أكثر انتصارا، فالجهاد في سبيل الله فتح للخطابة بابا واسعاً.

ولاية الأمر:

كان أولياء الأمر يعنون بإطلاع المسلمين على سياستهم، ومنة حكمهم. وينتهزون الجمع، والأعياد، والمواسم، وخصوصاً موسم الحج، فرصة لذلك يبينون فيها ما يريدونه من طاعة في الحق، وكان كل خليفة بعد تمام بيعته، يتقدم لجماعة المسلمين، ويبين ما سيأخذهم به، وما يدعوهم إليه، كذلك فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكان الولاة والعمال يسيرون على ذلك النهج، يبينون للرعية ما سيتبعونه في حكمهم، ويسلكونه في إرشادهم، وفي كل ذلك إحياء للخطابة ونشرها، ورفع لعمدها.

الدعوة إلى الوحدة:

كانت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية غرضاً مقصوداً من أغراض الخطابة، وداعياً حافزاً من دواعيها، فقد كانت الوسيلة لجمع المسلمين إذا تنافروا، بها ترجع النفوس الشاردة، وتلتئم الجراح الناغرة، وتهدأ القلوب الثائرة. وقد حدث في عصر النبي ﷺ ما هدد الوحدة الإسلامية، لولا هدى المصطفى، كما حدث في توزيع الغنائم بعد حرب هوازن؛ فقد حز في نفوس الأنصار أن لم يأخذوا منها شيئاً، وسرت القالة منهم بذلك، فوقف عليه الصلاة والسلام خطيباً. ورد نفوسهم الشاردة إلى نور الحق المبين. ولقد كادت تتمزق الجماعة الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ، وتذهب ريح المسلمين باختلافهم، حتى كاد الأنصار يولون عليهم خليفة، والمهاجرون مثله، لولا حكمة أبي بكر في خطبته، وعزمة عمر. وكانت الخطابة هي البلسم الشافي، واللواء الناجع، عندما تطيش أحلام، وتهيج نفوس.

الفتن الداخلية:

لم تستمر الوحدة الإسلامية وارفة الظلال أمدا طويلا، فقد نبتت الفتن في عصر الخليفة الثالث، واضطربت بها مراجل القلوب، حتى أنتجت نتاجها، وأثمرت ثمراتها، وكانت أولاها نفس ذلك الخليفة الشهيد، ولم تذهب الفتن برأسه، بل تشعبت الإحن، واشتدت المحن من بعده، وانقسم المسلمون في عهد الخليفة الرابع إلى أنصار له وأنصار لمخالفيه، ثم خرج من بين الصفوف بعد حرب صفين من أنكر على الفريقين خطتهما، فكان المسلمون بذلك أحزاباً ثلاثة: حزب مع أمير المؤمنين علي، وحزب مع معاوية الخارج عليه، وحزب خارج على الفريقين، وكل له أنصار من الخطباء المصاقع، يؤيد فكرته، وينصر دعوته، وعلي سيد خطباء تلك الفترة، انفتق لسانه بالبيان الرائع، والقول السائغ، والحكمة الفائقة، حتى أورث الأخلاف طائفة من الخطب، هي نهج البيان، ومشرع الحكمة، ونور الحق، ووضح الحقيقة.

وإذا كانت الخطابة قد وجدت في العصر الجاهلي حياة تناسبها لأنها وجدت العربي يحيا حياة فروسية، فقد وجدت في الحياة الإسلامية لها حياة أنسب، إذ أن العرب كونوا فيها لهم دولة تستظل بظل الدين، وتجد في الإيثار والتقوى والإيمان روحاً وقوة وتثبيتاً. وكانت تلك الدولة تثور عليها الزوابع العاتية، والريح العاصفة، فينبرى الخطباء، للمنافحة والمدافعة، والمجاهدة والمصابرة، وكلما اشتدت الحومة كانت الخطب نيراناً متأججة. أو برداً وسلاماً، ترد الغضب إلى الأجفان، والقلوب النافرة إلى الاطمئنان.

عوامل رقي الخطابة

وجدت الخطابة في البيئة الإسلامية عوامل رقي، وأسباب تقدم ونمو، فقد كانت حياة العربي خصبة بالتقوى والإيثار وقوة الروح؛ أحس بأن ملك كسرى يتزلزل تحت سيفه، وقيصر ينكمش فراراً من قوته. وذلك للدين الذي تورد على قلبه، فإنه هو الذي أوجد تلك القوة التي تدكدك العروش، وتزلزل القلوب، وتجعل من ساكن الصحراء حاكما لفارس وملك الروم في الشرق.

وإذا كانت الخطابة كما أسلفنا، تستمد قوتها من النفس، فلابد أن نذكر الأمور التي كانت في تلك الحياة، وغذت النفوس غذاء نمت به الخطابة، وازدهرت، وقويت، ونهضت، وأعظم تلك الأمور شأناً، وأجلها في حياة العرب خطراً، وفي الخطابة أثراً.

القرآن الكريم:

جاء القرآن الكريم، فهز النفس العربية وأصاب شغافها، وقد تحدى أعاظم البلغاء فيهم، أن يأتوا بسورة منه ولو مفتراة، فعجزوا أن يأتوا.

وقد قال الجاحظ في إعجازه: بعث الله محمداً ﷺ، في زمن، أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية، دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب، ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعمامهم وبنى أعمامهم، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن الكريم ويدعوهم صباحاً ومساء إلى معارضته إن كان كاذباً، بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحديا لهم بها وتقريعا بعجزهم عنها، قالوا: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوا، ولو مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده، ويحامى عليه، ويكابر فيه، ويزعم أنه قد عارض وناقض، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض الشعراء من أصحابه، والخطباء من أمته؛ لأن سورة واحدة، وآيات يسيرة، كانت أنقض لقوله، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه، من بذل النفوس، والخروج عن الأوطان، وإنفاق الأموال؛ وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب، في الرأى والفضل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع واللفظ المنثور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم، ومحال أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطاب المكشوف البين، مع التقريع بالتقصير والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد أعمالهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وكما أنه محال أن يطبقوه ثلاثا وعشرين سنة، على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه، وهم يعرفونه، ويجدون السبيل وهم يبذلون أكثر منه»[1] اهـ بتصرف قليل.

---

(١) منقول عن الإتقان في علوم القرآن السيوطي جـ٢ ص ١١٨.

وإذا كان أثر القرآن الكريم في مناوئيه، وهم قوم خصمون، هو ما علمت من تحير ودهشة وعجز، بل إعجاب يخفيه الغرض ومرض النفس بالشرك والعناد، والمخالفة، فكيف يكون أثره في الآخذين بهديه، المقتبسين من نوره؟ لقد أثر القرآن الكريم فيهم أبلغ تأثير، وأفادت الخطابة أعظم فائدة، وجنت منه أكبر الثمرات، وقد كانت فائدتها من ناحيتين:

إحداهما: مما أكسبته اللغة من القرآن الكريم:

(أ) فقد أكسبها سعة في المعنى، إذ قد أتى بمعان لم يتورد العرب من قبل مواردها؛ كانوا قوما حسيين، ولغتهم حسية، فجاء القرآن الكريم، وحدث عن النفوس ووصفها، فأحسن وصفها؛ حلل نفس الضال وعلة ضلاله، ونفس المهتدى وطريق اهتدائه، صور تقلبات القلوب وخلجات النفوس، وما يؤثر في المشاعر، فدعا ذلك المسلمين إلى الاغتراف من منهله العذب، وشاعت بينهم الأقوال في الأمور المعنوية، وسمت اللغة العربية إلى مستوى ما كان يتهيأ لها بغير القرآن الكريم، وأثر القول في الأمور المعنوية وحسن تصويرها في الخطابة جلي لا يحتاج إلى تبيان.

(ب) وقد جاء القرآن الكريم في لفظ سهل متين، خال من الألفاظ الخشنة الجافة، يصل إلى الأغراض من أقرب مسالكها؛ فأعجب بذلك قارئوه وسامعوه، فحاكوه في نهجه، وإن لم يسامِوه في قدره، وبهذبت به اللغة أتم تهذيب، فسهلت عباراتها، ورقت أساليبها، واستأنست ألفاظها، إذ سن لها نوعا من التعبير لم تنهجه، فكان فتحا جديدا فيها بألفاظه وأساليبه، كما كان فتحا جديدا في العالم كله، بهديه وتقويمه وتأديبه. وأثر ذلك في ألفاظ الخطابة واضح غير خفي.

ثانيتهما:

أن الخطباء قد أخذوا ينهجون منهج القرآن الكريم في الاستدلال، إذ وجدوا فيه أبلغ طرق الإقناع الخطابي، فقد اجتمع في أدلة القرآن الكريم مالا يمكن أن يجتمع في أدلة سواها، إذ تجد فيها استقامة المعنى، إذا قسته بمقياس المنطق، فتجد المقدمات قد تلاءمت مع نتائجها، وتوافرت فيها شروط الإنتاج، كما تجد فيها جمال اللفظ، وجودة الأسلوب، ومخاطبة الإحساس، وإثارة الرغبة. اقرأ قوله تعالى: ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ تجد الدقة المنطقية وجمال اللفظ، ومخاطبة الوجدان، قد اجتمعت مع حسن الإيجاز! فتعالت كلمات الله سبحانه وتعالى.

وجد الخطباء في القرآن الكريم ذلك، فوجدوا فيه معلما لطرق الإقناع والاستدلال، لا يقاضيهم أجرا، فتأثروا طريقته، واقتبسوا من عباراته، وشاع بينهم الاقتباس منه؛ حتى كان من مزايا الخطبة أن تكون مشتملة على شئ من القرآن الكريم.

قال الجاحظ: كانوا يسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن الكريم، وتزين بالصلاة على النبي ﷺ بالشوهاء، ففي الحق وجد الخطباء المثل الأعلى في الكتاب العزيز، فنهجوا نهجه في الإقناع، وإقامة الحجة، واقتبسوا من لفظه، واستعانوا بروحه، فحيوا في بلاغتهم وخطبهم حياة جديدة.

الحديث النبوي الشريف:

كلام النبي ﷺ هو الكلام الذي يلي منزلة القرآن الكريم احتراماً وإجلالاً، وقد اجتمعت فيه فصاحة اللفظ وجودة المعنى وحسن الأداء، بلغ من البلاغة الذروة، ووصل من الروعة إلى القمة، هو جوامع الكلم، وفيه روائع الحكم، هو القول الفصل، لا فضول فيه ولا تزيد، أخذ من القرآن الكريم، وأوحى إليه به الرحمن، لكلامه جلال لا تجده في سواه، وتحيط به هالة روحية، تحس منها بشعاع النبوة، ولو أن كلامه عرض عليك منسوبا لغيره لأنكرت النسبة، ورددت الحق إلى نصابه، وقد أثار ذلك روح العجب والإعجاب في أصحابه، حتى قال له أبو بكر رضي الله عنه: لقد طفت في العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟! فقال عليه الصلاة والسلام: «أدبني ربي، فأحسن تأديبي».

وقد قال الجاحظ في وصف كلامه ﷺ: هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قل (يامحمد) وما أنا من المتكلفين﴾ فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير؛ استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات

الخصم إلا بما يعرفه الخصم ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج[1] إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة[2] ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز[3] ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام أعم نفعاً، ولا أحسن لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ. ثم قال بعد ذلك: ولعل بعض من لم يتسع لي العلم، ولم يعرف مقادير الكلام، يظن أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد، ما ليس عنده ولا يبلغ قدره. كلا! والذى حرم التزيد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء، وبهرج[4] الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه.

وقد كان للحديث أثران فى الخطابة:

أحدهما: من ناحية تأثيره فى اللغة:

(أ) لأن الحديث أضاف إلى اللغة ثروة من المعانى، وثروة من الأساليب، التى كانت تعد من النبى ﷺ ابتداعاً وابتكارا مثل قوله: «حمى الوطيس»، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام «المضعف أمير الركب»، وقوله: «مات حتف أنفه»، وقوله: «هدنة على دخن»، وقوله: «لا ينتطح فيه عنزان» وقوله عليه الصلاة والسلام لمن ساق إبلا بعنف، وعليها نساء: «رويدك رفقا بالقوارير».

(ب) ولأن الحديث هذب اللغة تهذيباً قريباً من تهذيب القرآن الكريم إذ سهل ألفاظها، ورقق أساليبها وذهب بالحوشى منها، فكان لكل هذا أثره فى الخطابة؛ لأنها شعبة الأدب الأولى فى ذلك العصر، بل أعظم شعبه وأظهر مظاهره.

ثانيهما:

أن كثيرا من الخطباء كان يرطب لسانه فى خطبه بشىء مما أثر عن الرسول ﷺ، تيمناً بقوله، واسترواحا للسامعين وليكسبوا كلامهم روعة، وليستشهدوا بكلام الرسول ﷺ على صحة ما يدعون، وإذا علمت أن أكثر الخطب فى ذلك العصر، كانت تدور على مبادئ الدين قوامها، علمت مقدار عنايتهم برواية أحاديث رسول الله ﷺ، والاستشهاد بها فى خطبهم؛ فإن

---

(١) الفلج: الظفر والفوز. (٢) الخلابة: الخديعة فى القول.

(٣) يلمز: معناه يغتاب. (٤) بهرج: معناه أهمل.

الحديث إذا صح عندهم كان فيه فصل الخطاب، واعتقدوا أن الخطيب بروايته يصيب محز الصواب.

الحضارة:

أخذت الحضارة تغزو نفوس أولئك البدو، ولكنها لم تستول عليها استيلاء تاما كما علمت، فاجتمعت فيهم قوة البدوى ونخوته وبعض دماثة الحضرى ورقته، وقد علمت أسباب ذلك فيما بيناه من شرح أحوالهم الاجتماعية وبقى أن نعرف أثر ذلك فى خطبهم.

أكسبتهم تلك الحضارة، سهولة في التعبير لم تكن فيهم، إذ هذبت من طباعهم، وقللت من جفوتهم وخشونتهم، فلانت من غير ضعف وابتذال عباراتهم، كما أكسبتهم سعة الخيال، وغزارة فى المعانى وعرفانا تاما بما تقتضيه الأحوال، وقد أكسبهم اختلاطهم بالأمم، وهم ذوو الذكاء الفطرى والفراسة، معرفة كثيرة بأحوال النفوس فاستخدموا كل ذلك فى خطبهم، وبدت غزيرة المعانى متنوعة الموضوعات، وافية فيما يقصد إليه الخطيب من غرض، وما يتجه إليه من هدف ومرمى.

تكوين حكومة نظامية:

كان تكوين الحكومة الإسلامية عاملا عظيما من عوامل اتساع موضوعات الخطابة، فقد كانت هى أداة اتصال الحاكمين بالمحكومين، بها اتصل الخلفاء بالشعب فى خطبهم العامة، وبها اتصل الولاة في الأقاليم بمن يحكمونهم، يبين هؤلاء وأولئك ما يريدون أن يكون المحكومون عليه من طاعة فى الحق وإرشاد للحاكم من غير تمرد أو عصيان.

الوعظ الديني:

كان الوعظ الدينى له الشأن الأول، لأن الدين كان أساس وحدتهم، وجامع كلمتهم، ومكون دولتهم، ولذلك كان له الاعتبار الأول، وقد حث الإسلام على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعله قوام هذه الأمة، ومناط عزها، وطريق ارتقائها، قال تعالى: ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾. وقد كانت الخطبة فرضاً فى الجمعة لذلك الفرض، فكان للخطابة من ذلك المبدأ الدينى السامى، مبدأ التواصى بالحق، والتناهى عن الشر، رقى أى رقى، وسمو عظيم إذ جعلت من شعائر الدين ومظاهره القويمة.

الألفاظ والأساليب والمعاني

(أ) الألفاظ:

صفت ألفاظ الخطابة، وسهلت، ورقت وعذبت؛ وذلك لتأثرهم بالقرآن الكريم، واقتفائهم طريقه، وسلوكهم سبيله؛ إذ رأوه المثل الأعلى للكلام، فحاكوه، وإن لم يتساموا إليه، ولأن نفوسهم هذبت، والآن الإسلام من جفوتها ونهنه من شدتها، وبدلها مكان القسوة رحمة، ومكان العنف رفقاً، حتى إن الرجل الذي كان يئد ابنته، فلا ينشق قلبه لها بعطف؛ أصبح بالإسلام يسمع كلمة الحق، فتنحدر عبرته؛ وتذوب نفسه حسرات؛ وإذا رقت النفس وسهلت، لا يصدر عنها إلا العذب السهل من الألفاظ؛ فإن الكلمات صورة حية للنفس التي تجيش بها، ولأن الله سبحانه أورثهم ملك كسرى وقيصر، فجاءتهم الغنائم، وأصبحوا فاكهين في نعيم، بعد أن كانوا في شظف من العيش، وخشونة من الحياة. ولقد قال خليفة رسول الله ﷺ متنبئاً بما يكون: والله لتألمن النوم على الصوف الأذربي، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان. وقد كان أن نال العرب من نعيم الحياة أشطراً، بعد أن ذاقوا من الشقوة أبؤساً. وتلك الحال التي تنبأ بها ذلك الإمام العظيم، لم تتم في ذلك العصر، وإن أخذت خطواتها فيه.

وإذا كان العربي قد ذاق هذا النعيم، ورأى مناظر الترف، وعاش في مشاهده، فلابد أن تلين ألفاظه، وتسهل عباراته، لأن الألفاظ صورة لما يألفه القائل، ويعرفه المتكلم.

٢ - ولقد ذهب من الألفاظ الغريب الحوشي لاجتماع العرب على لغة واحدة هي لغة قريش، وذهاب اللغات الأخرى، فلم يبق منها إلا النادر من الألفاظ والأساليب؛ ولأن الخطابة كان عمادها في الإسلام المألوف المكشوف؛ لأن الغاية كانت، إما إفهام السنن والأحكام والشرائع، وإما الحث على الجهاد، وإما المشاورة وإبداء الرأي والنصيحة للإمام، وكل هذا يقتضي الوضوح والسهولة.

وكانوا بمقتضى تعاليم الإسلام أبعد الناس عن الإغراب والتوعر، والتفيهق والتشادق، فقد قال عليه الصلاة والسلام، «أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون»، لذلك كان المسلمون يميلون إلى التكلم في خطبهم بكلام يشبه الكلام العادي في سهولته، وعدم تكلفه، لولا انسجام في التعبير، ولولا التحميد والبسملة والثناء على النبي ﷺ، وغير ذلك من الأمور التي اختصت بها الخطبة، كما سنبين إن شاء الله تعالى.

المعاني:

إن المعاني الخطابية سلكت مسلكا يتفق مع الحياة الإسلامية في مظاهرها التي سبق بيانها، إذ أن تلك الحياة هي التي وجهت الخطابة وجهتها، وهي التي استوحت الخطابة منها معانيها.

وقد كانت المعاني دينية، فخطبهم في الحروب، دعوة إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، وإعلاء لكلمته، ورفع لدينه، ونشر لدعوته، وخطبهم في الشورى صورة لفهمهم الدين، كل يدلي بالرأي ويربط دعواه بالمبادئ الدينية. وخطبهم في الاجتماع والألفة أدلتهم فيها القرآن الكريم والسنة، والمبادئ الإسلامية المعروفة من الدين بالضرورة، وهكذا كل أغراضهم الخطابية، الدين فيها قطب الرحى، وعليه يدور كلامهم، وفيه يختلفون، وبه يتفقون، وذلك لأن الدين قد تغلغل في كل مظاهر حياتهم، كما أسلفنا لك، وكان هو المسيطر على ضمائرهم، والقانون الخلقي الذي إليه يحتكمون، والشرع الذي على مقتضاه يسيرون، ولأن كتاب الله وسنة رسوله، كانا ينبوع المعرفة الذي إليه يردون، وعنه يصدرون، فلم يكن لهم علم إلا علم الكتاب، ولا معرفة إلا من سنة رسول الله ﷺ وهديه، فلا عجب إذا صارت معاني الخطابة كلها دينية خالصة.

وقد كان الخطباء يسلكون في الاستدلال الخطابي الطريق المنطقي، والطريق الوجداني، وذلك لتأثرهم طريق القرآن الكريم في الاستدلال وأخذهم من معانيه، ونيلهم من هديه، إذ كان المثال الذي يحتذونه، والمنار الذي يهتدون به.

واقرأ خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة، تر فيها الدليل المنطقي، قد التقى مع الدليل الوجداني، وأحكمت الأواصر بينهما، من غير أن يطغى أحدهما على الآخر، واقرأ خطب الفاروق عمر رضي الله عنه في شوراه، وخطب من يوافقونه، أو يردون عليه، تر الحقائق المنطقية، قد صيغت في قالب ديني يثير الوجدان، ويوقظ العاطفة، ويلهب الحمية! وهكذا في كل أغراضهم البيانية، لأن حماسة الدين تجتمع مع الحقيقة، فتمدها بحرارة الإيمان ويقظة الوجدان، وقوة الإحساس.

وكانت المعاني لما سبق قوية التأثير فيمن يخاطبون، إذ توافرت فيها شروطه. وتكاملت أسبابه، وهما الدقة في الفكر والاستنباط، وإثارة العاطفة، وإنهاض العزيمة.

وكانت المعاني مسلسلة متصلة الأجزاء، محكمة الأواصر، ولم تكن منتثرة، كما كانت في العصر الجاهلي، ولعل السبب في ذلك اجتهادهم في صوغ كلامهم صياغة استدلالية، لينتج النتائج التي يريدونها، واتساع معلوماتهم بسبب ذلك الدين الجديد، ووحدة الغرض الذي جعلوه هدفا لكلامهم، يصوبونه إليه؛ لينالوه، وإنك لترى ذلك الإحكام، وهذا التماسك واضحاً في أكثر خطب ذلك العصر، وخصوصاً خطب الإمام علي رضي الله عنه، واقرأ خطبته عندما استشار الفاروق عمر الصحابة في غزوه فارس بنفسه، تر التماسك بين أجزاء القول، وأخذ بعضه بحجز بعض، واضحاً كل الوضوح!

وعدم المبالغة والإغراق واضح كل الوضوح في الخطابة الإسلامية؛ ذلك لأن الخطباء الإسلاميين من العرب الذين امتازوا بالصراحة والصدق، وهما صفتان تتنافيان مع المبالغة والإغراق، ثم هم قد امتازوا باستقامة الفكر، وسلامة النفس، والإغراق ليس إلا مظهراً للشطط الفكري، ومجاوزة حد الاعتدال البياني، وهو من نوع التفيهق الذي نهى عنه الدين، ولهذا باعدوه، وتجافوا عنه؛ لأنه لا يتفق مع الهدى القويم، والسنن المستقيم.

الأسلوب:

إن الأسلوب الخطابي في العصر الإسلامي بلغ من الإحكام مبلغاً سما عن أن يحاكيه فيه عصر من عصور اللغة، أو يتهد إليه خطباء أي زمن سابق أو لاحق لذلك العصر.

وأول ما يلاحظه القارئ لخطب ذلك العصر أن الخطبة صارت مجزأة ومقسمة، كل قسم يلحق سابقه، تبتدئ بمقدمة فيها يحمد الخطيب الله سبحانه وتعالى، ويثني عليه بما هو أهله، ويصلي على النبي ﷺ، ثم يهجم على الموضوع، فيقدم ما يراه دليلا لدعواه، وبرهاناً لما يراه، وبعد أن يتم القول فيه، ويوفي على الغرض يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، يدعوه أن يوفقه إلى الرشاد ويلهمه السداد. ولبعض الخطباء صيغة دعاء يختم بها قوله. قال ابن عبد ربه: كان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته: اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك.

وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته: اللهم لا تدعني في غمرة، ولا تجعلني من الغافلين.

وقد أكثر الخطباء من الاقتباس من القرآن الكريم، والاستشهاد به، والاستدلال بالمأثور عن النبي ﷺ، يعملون إلى الحديث، فينهلون من نميره، ويتجهون إلى الآية القرآنية ويرطبون

بها كلامهم، فيكون فيها فصل الخطاب، وقطع كل جواب واعتراض، وإذا علمت أن كل معانيهم دينية، علمت مقدار قوة الحديث الشريف والقرآن الكريم في استدلالهم، وفصلهم في خصوماتهم، ففيهما فيصل التفرقة بين الحق والباطل، وصحيح الآراء وسقيمها.

وفوق ذلك، فالكتاب الكريم، والحديث النبوى الشريف، فيهما من البلاغة والفصاحة والروعة واللفظ الجزل والأسلوب الرائع، والحكم من المعانى ما علمت، فاتجهوا إلى الاقتباس منهما؛ ليكسبوا كلامهم طلاوة وليعطوه حلاوة، وليقبسوا من القرآن الكريم والحديث الشريف قوة في التأثير، ورنيناً في الآذان، ورهبة في القلوب، وجمالا فى الأنفس، وبهجة فى المشاعر، وقد تعلو الآية القرآنية بالخطبة فترفعها إلى الذروة من البيان والقمة من التأثير، وبلوغ المقصد من أقصر طريق، وأقرب مهيع، ولذا أكثر الخطباء من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، حتى صار ذلك عرفا شائعاً.

وقد نقلنا آنفاً عن الجاحظ ما حكى من أن الخطبة تسمى شوهاء، إذا لم تجمل بآية من كتاب الله سبحانه وتعالى.

وقال في مقام آخر: كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع، آى من القرآن الكريم؛ فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع.

وفوق أنهم كانوا يستشهدون ويقبسون من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة قد أخذوا يحاكونهما في مناهجهما الكلامية، ويسيرون سيرهما من غير تسام إلى منزلتهما البلاغية، وذلك طبعي، فإن الإنسان إذا وجد أمامه مثلا كاملا، اجتهد فى محاكاته، وإن لم يبلغ مبلغه، ولم يصل شأوه.

وقد تجمل الخطب أحيانا بأبيات من الشعر تناسب المقام، وتتصل بالموضوع، كما فعل أبو بكر رضى الله عنه في خطبته في الأنصار، إذ قال:

يامعشر الأنصار، لو شئتم أن تقولوا: إنا آويناكم في ظلالنا، وشاطرناكم فى أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا، لقلتم؛ وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد، وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوى يشكر جعفرا:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت	بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبــوا أن يملونـا ولــو أن أمنــا	تلاقى الذى يلقون منا لملت
هم أسكنونا فى ظــلال بيوتهـــم	ظلال بيوت أدفأت وأظلــت

عدم التكلف، وكانوا لا يعمدون فى خطبهم إلى التحسين والتزيين، ولا يكاد يمتاز كثير من خطبهم عن لغة التخاطب، إلا بهذه العناية التى يقصد إليها الإنسان عندما يريد اجتذاب السامعين إلى فكرة أو مذهب أو رأى، ولم يكن الذوق العام الأدبى فى ذلك العصر يجيز تكلف التحسين.

ويروى أن الأحنف بن قيس وفد على عمر بن الخطاب، فتكلم بكلام خلاب ذهب فيه كل مذهب، فكان جزاؤه عنده أن حبسه عن الرجوع إلى بلده حولا وبضعة أشهر، ثم دعاه إليه وقال: إن رسول الله ﷺ حذرنا كل منافق صنع اللسان، وإنى خفتك، فاحتبستك، فلم يبلغنى عنك إلا خير.

وللرغبة فى عدم التكلف والتزيين نهى النبى ﷺ عن التشادق، والتفيهق، وسجع الكهان.

وقد قل السجع فى ذلك العصر؛ لأن النفس العربية الأمية كما بينا كانت تميل إلى عدم التكلف والصنعة. وزاد الخطباء ابتعادا عن السجع نهى النبى ﷺ عن سجع الكهان، فقد جاء فى البيان والتبيين للجاحظ: قالوا: فقد قيل للذى قال:يارسول الله، أرأيت من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل؛ أليس مثل ذلك يطل. فقال رسول الله ﷺ: أسجع كسجع الكهان. وقد كان السبب فى نهى النبى ﷺ عن هذا النوع من السجع فوق أنه تكلف كما ذكره الجاحظ فى قوله: إن كهان العرب كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدعون الكهانة، وإن مع كل واحد منهم رئياً من الجن... قالوا فوقع النهى فى ذلك؛ لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم، وفى صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم.

هذا وقد رأينا فى نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على رضى الله عنه سجعا كثيراً فشك كثير من الأدباء فى نسبته إلى الإمام على إذ رأى الخطب ذات السجع الكثير المشتمل عليها ذلك الكتاب لا تتفق مع المعروف من عدم التكلف فى ذلك العصر، وعدم القصد إلى تحسين الكلام تحسيناً متكلفا كما لا يتفق مع ما عرف عنهم من قلة السجع فى خطبهم، وعاب بعض الأدباء المتعصبين على علىّ كرم الله وجهه ذلك السجع؛ للانتقاص من فضله، وقد رد عليهم ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة، فقد جاء فيه: فأما قولهم إن السجع يدل على التكلف فإن المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين. فأما التكلف المستحسن، فأى عيب فيه؛ ألا ترى أن الشعر نفسه لابد فيه من تكلف إقامة الوزن، وليس لطاعن أن يطعن

فيه بذلك.. وقد بينا أن كثيراً من كلامه (ﷺ) مسجوع، وذكرنا خطبته (خطبة الوداع)، ومن كلامه عليه الصلاة والسلام المسجوع خبر ابن مسعود، رحمه الله تعالى، قال: قال رسول الله ﷺ وآله: استحيوا من الله حق الحياء؛ فقلنا إنا لنستحيي يارسول الله من الله تعالى، فقال: ليس ذلك ما أمرتكم به، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا.

ومن كلامه المشهور لما قدم المدينة المنورة عليه الصلاة والسلام أول قدومه إليها قال: أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام. ونحن نوافقه في أن السجع القبيح ما كان التكلف فيه واضحاً تظهر سماجته، ولكن نخالفه في أن كثيراً من كلام الرسول ﷺ كان مسجوعا؛ فإن ذلك هو القليل، إذ أن خطبه ﷺ بين أيدينا وأحاديثه قد جمعتها كتب السنة الصحيحة، فهل يستطيع أحد أن يدعي أن السجع يصل في كلامه عليه الصلاة والسلام إلى عشره، حتى يصح أن يقال إن السجع كان كثيراً، بل الأغرب والأكثر عجبا أن يقول ابن أبي الحديد إنه في أكثر خطبه ﷺ.

فإن الحق الذي أجمع عليه مؤرخو الآداب أن السجع قليل في خطب ذلك العصر، وأن تلك القلة واضحة في خطب النبي عليه الصلاة والسلام وفي كلامه، والحكم الذي لا ترد حكومته هو الرجوع إلى ما أثر عنه عليه الصلاة والسلام، والموازنة بين مقدار المسجوع وغير المسجوع، فستجد حتما أن المسجوع قل، والكثرة غير مسجوعة.

طول الخطب وقصرها:

أكثر الخطب المروية عن هذا العصر قصير لا طويل، فيه الإيجاز أظهر من الإطناب، ولعل هذا الموجز جزء من خطبة طويلة حفظ هذا الجزء، وتبعثر الباقي في الأسماع، أو لعل الموجز من الخطب هو الذي استطاع أن يحفظه الراوي، لسهولة حفظه وجودته أكثر من سواه؛ لأن رواية الخطب في هذا العصر كسابقه، كان المعول فيها على الرواية السماعية، لا على الكتابة؛ إذ لم تكن الكتابة قد انتشرت، ولأن الخطباء لم يعمدوا إلى كتابة خطبهم، ولم يعمد الناس إلى كتابتها، لعدم اعتيادهم ذلك، ومع هذا ففي المروي خطب طويلة كخطبة حجة الوداع المنسوبة إلى النبي ﷺ، وككثير من خطب الإمام علي رضي الله عنه التي صحت نسبتها إليه، وكبعض خطب الشهيد المقتول عثمان رضي الله عنه عندما اندلعت نيران الفتنة واشتعلت، وكخطب الفاروق عمر رضي الله عنه في بعض شؤونه، كخطبته في أرض سواد

العراق، وكل هذا يثبت أن الخطب في ذلك العصر فيها القصير، وفيها الطويل، وقد كانوا يضعون الأمور في موضعها، فلا يطيلون في غير مواضع الطول، ولا يوجزون في غير مواضع الإيجاز، وهم في الحقيقة أميل إلى الإيجاز، أخذاً بأهداب الدين، وتمسكا بأوامره، ولا يطيلون إلا عندما تضطرهم الحاجة إلى الإطالة، ويحملهم الموضوع والمقام على الإطناب، فيطنبون غير مختارين، لأنهم كانوا يخشون أن يكون التطويل من باب احتياز المجالس، والتشادق، والتفيهق، والثرثرة المنهي عنها، ولأن الإنسان كلما كثر لغطه كثر سقطه، فيخافون السقط لأنهم ذوو القلوب النيرة، والنفوس المطمئنة.

يروى أن عمار بن ياسر تكلم يوماً، فأوجز، فقيل له، لو زدتنا، فقال: أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة، وقصر الخطبة، وورد في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام قال: إذا وعظت جندك، فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً.

وسنأتي لك في المختار لصورتي الموجز والمطنب معاً.

الخطيب في صدر الإسلام

اتصف الخطيب الإسلامي بما اتصف به الخطيب الجاهلي من فصاحة بيان وجودة نطق، وسداد رأي، ومراعاة لمقتضى الحال، وسمت ووقار، وقوة شخصية ونفوذ وقوة نفس، وقد كمل الإسلام هذه الصفات فيه، وزاده أخرى، فالخلفاء الراشدون، ومن لهم بهم شبه في الدين والإيمان، فيهم قوة النفس وقوة الروح بمقادير لا توزن بها أقدار الجاهليين، وحسبك أن تعلم أن قوة نفس أبي بكر رضي الله عنه، ونفوذه الشخصي، وما وهبه الله من قوة تأثير هي التي جمعت الوحدة الإسلامية إذ شارفت التمزق، وقد كان عمر لا يسير الشيطان في طريق يسير هو فيه، كما جاء في الأثر، لمهابته، وقوة نفسه، وعظم روحه، حكم العرب بالهيبة والدين، وردعهم بنفسه من غير سيف، ولا ما يشبه السيف، كان إذا لاحظ على أحد أمراً ضربه بدرته؛ فتفعل في نفسه ما لا يفعله السيف في الجسم، والمهابة على ما بينا أعظم ما يعاون الخطيب على اجتذاب النفوس إليه.

وقد زادوا بالإسلام علماً، إذ وجدوا في القرآن الكريم ينبوعا علمياً لا ينضب، ووجدوا في السنة معينا فكريا لا يجف، واختلاطهم بالناس زادهم علماً بأحوال النفوس، وخبرة بمواضع التأثير، فعلم الخطيب الصحابي أغزر من علم الخطيب الجاهلي، وفكره أوسع، ونظره أشمل وأعم، وشتان بين هدى الجاهلية، وهدى الرحمن، وشتان بين عابد الأوثان، والخاضع للديان.

والخطيب الإسلامي قريب إلى النفوس، غير بعيد عنها، لأن أولئك القادة والصفوة المختارة من أصحاب النبي ﷺ، كانوا يحبون الله ويحبهم، وكانوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، ومن أحبه الله ألقى عليه محبة الناس، ومن تواضع مع المهابة وقوة النفس أحبه الناس، وهابوه، فيكون تأثيره فيهم أشد، وقوله أروع.

وكان الخطيب الإسلامي لتهذيب الدين له، ومخالطة بشاشة الإيمان لنفسه، حليما واسع الصدر؛ لا يضيق صدره بالحق حرجا؛ فلا يمتنع عن أخذ الحقيقة من أي قبيل، ولا يجد غضاضة في الرجوع إلى الحق إن وقع في الباطل، ومن كان شأنه كذلك اتصل كلامه بالقلوب ودخل على العواطف، لأن الناس يثقون من أنه لا ينطق إلا بما يجيش به صدره، وما يراه الحق، فيصدقونه، إذ خلا عن شبهة التكلف والرياء، وعن تهمة الملق والنفاق.

كان الخطباء من أصحاب رسول الله ﷺ وهم قد اشتهروا بحبهم للفداء، فدوا رسول الله ﷺ بأنفسهم، وآثروه على كل عرض من أعراض الحياة، ورغبة من رغبات النفوس، قد أحبوا الله ورسوله أكثر من أنفسهم، وارتخصت أرواحهم في سبيل الله تعالى، وليس منهم إلا كل ندب محتسب نفسه لله ورسوله، كانوا كذلك في عهد النبي ﷺ، وكانوا كذلك من بعده، ومن كان شأنه كذلك وثقت به القلوب، وتعلقت به النفوس، والثقة بالخطيب تسهل وصول كلامه إلى مواضع التأثير في السامعين، فيصل كلامه إلى شغاف القلوب، ويفتح مغلقها.

والقول الجملي: أن الخطيب الإسلامي قد ادّرع بصفات ترفعه إلى أسمى منازل خطباء العالم في كل العصور.

الخطباء والمروى من الخطب

كثر عدد الخطباء النابغين في هذا العصر كثرة لا تعدلها كثرة في أي عصر من عصور الخطابة، وإمامهم سيد المتكلمين محمد ﷺ، ودونه منزلة أفواج من الخطباء، أولهم علي بن أبي طالب، ثم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعبد الله بن عباس، ويلي هؤلاء كثيرون منهم عمرو ابن معد يكرب الزبيدي، ومن خطباء الشيعة صعصعة بن صوحان وأبو الأسود، ومن خطباء الخوارج عبد الله بن وهب الراسبي، ويزيد بن عاصم المحاربي وغيرهم، وقد توج هذا العصر بوجود عدد عظيم من النساء يجدن الخطبة والبيان، منهن السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وسودة بنت عمارة، وأم الخير بنت الحريش، والزرقاء بنت عدى، وأم كلثوم بنت الإمام علي رضي الله عنهما، وغيرهن كثير.

ولم يكن المروى بمقدار كثرة الخطباء، وإن كان كثيرا في ذاته؛ وذلك لأن التعويل في الرواية كان على السماع، وقد يتبعثر في الآذان ما يعول فيه على السماع، ولا يصل إلى الأجيال، وهذه خطبة الوداع مع الحاجة إلى روايتها؛ لما اشتملت عليه من الشرائع والأحكام، قد رويت بعدة روايات، اختلفت فيها بعض الألفاظ، وإذا كان ذلك هو الشأن في المروى عن النبي ﷺ، مع منزلة كلامه الشرعية والبلاغية، وله من الاعتبار والتقدير ما نعلم، فكيف يكون الشأن في كلام غيره، ممن لا يتسامى إلى منزلته ﷺ بيانا واعتبارا.

المختار من خطب هذا العصر

خطبة النبي ﷺ في الأنصار:

لما أعطى رسول الله ﷺ، مغانم حنين قريشاً والقبائل العربية، ولم يعط الأنصار شيئاً، حزنوا في أنفسهم، وظنوا أنهم هانوا على رسول الله ﷺ، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه، فدخل سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ. فقال له، يارسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم؛ لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء. قال ﷺ: فأين أنت من ذلك ياسعد؟ قال: يارسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: فاجمع لي قومك في الحظيرة[1]، فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون، فردهم، فلما اجتمعوا إليه، أتاه سعد فقال، قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: يامعشر الأنصار، ما قالة[2] قد بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها في أنفسكم.! ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة[3] فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، لله ولرسوله المن والفضل، فقال: ألا تجيبوني يامعشر الأنصار.! قالوا: وبماذا نجيبك يارسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل، قال: أما والله لو شئتم لقلتم، فصدقتم، ولصدقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلا فآسيناك. وجدتم في أنفسكم يامعشر الأنصار في لعاعة[4] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء، والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا[5] لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أخضلوا[6] لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا.

ثم انصرف رسول الله ﷺ.

---

(١) أرض عليها سور، وكانت حظيرة الأنصار بجوار مسجد الرسول ﷺ. (٢) القالة: حديث الشر.

(٣) عالة: جمع عائل وهو الكثير العيال قليل المال. (٤) اللعاعة: البقية اليسيرة.

(٥) الشعب: طريق بين الجبلين. (٦) أخضل لحيته: بلها.

خطبة الوداع

إن الحمد لله نحمده، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد. أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت. اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع[1] وأول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر[2] الجاهلية موضوعة، غير السدانة، والسقاية. والعمد قود[3] وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك، مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إنما النسيء[4] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما، ويحرمونه عاما، ليواطئوا[5] عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت. اللهم، اشهد.

---

(١) موضوع يعني ساقط، فلا يؤدى الزائد عن رأس المال لأن الربا معناه الزيادة.

(٢) المآثر جمع مأثرة ومآثر الجاهلية مفاخرها التي تؤثر ويروى حديثها وخبرها.

(٣) القود: قتل النفس بالنفس.

(٤) النسيء: شهر كانت العرب تزيده لتفصل بين شهري الحرم ذي الحجة والمحرم بشهر حلال.

(٥) ليوافقوا.

أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقا، وإن لكم عليهن حقا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن[١] وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين، وأطعنكم، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان[٢]، لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم، اشهد. أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟. قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب. أيها الناس إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله.

خطبته ﷺ في مرض الموت

عن الفضل بن عباس قال: جاءني رسول الله ﷺ، فخرجت إليه، فوجدته موعوكا قد عصب رأسه، فقال: خذ بيدي يافضل، فأخذت بيده، حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد في الناس، فاجتمعوا إليه، فقال:

أما بعد. فإني أيها الناس، أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإنه قد دنا مني خفوق[٣] من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري، فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا، فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالا، فهذا مالي، فليأخذ منه، ولا يخش الشحناء من قبلي، فإنها ليست من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقا

---

(١) المراد بالعضل هنا المنع الشديد.

(٢) العوان جمع عانية والمعنى أسيرة.

(٣) الخفوق هنا الغياب.

إن كان له، أو حللني، فلقيت ربي وأنا طيب النفس، وقد أرى أن هذا غير مغن عني، حتى أقوم فيكم مرارا.

خطبة سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة

يبين حق الأنصار في الخلافة

قال بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: يامعشر الأنصار، لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمدا عليه الصلاة والسلام، لبث بضع عشرة سنة في قومه، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن من قومه، إلا رجال قليل وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ولا أن يقروا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا أو كرها، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا[1] حتى أثخن[2] الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض، وبكم قرير عين، استبدوا بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دون الناس.

خطبة أبي بكر في السقيفة

يبين حق المهاجرين

أراد عمر الكلام فقال أبو بكر: على رسلك، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: نحن المهاجرون، أول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسهم رحما برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن الكريم عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ فنحن المهاجرون، وأنتم الأنصار إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء،

(١) الداخر الذليل.

(٢) أثخن المراد بها هنا أخضع.

وأنصارنا على العدو، آويتم، وواسيتم، فجزاكم الله خيرا، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله.

خطبة أبي بكر رضي الله عنه
حين أشير عليه بترك المرتدين

أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله لا يموت، أيها الناس، أن كثر أعداؤكم، وقل عددكم، ركب الشيطان منكم هذا المركب. والله ليظهرن هذا الدين على الأديان كلها، ولو كره المشركون، قوله الحق، ووعده الصدق، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين».

أيها الناس، والله لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده، حتى أبلغ من نفسي عذرا، أو أقتل مقتلا، أيها الناس والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه، واستعنت بالله، إنه خير معين.

خطبة عمر بن الخطاب
رضي الله عنه

خطب عمر بعد توليه الأمر فقال: إن الله عز وجل قد ولاني أمركم، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسني عنده، كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمرني به، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف، إلا ما أعان الله عز وجل، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئا إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحد منكم: إن عمر تغير منذ ولي: أعقل الحق من نفسي، وأتقدم وأبين لكم أمري، فأيما رجل كانت له حاجة، أو ظلم مظلمة أو عتب علينا في خلق، فليؤذني، فإنما أنا رجل منكم، فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم، وحرماتكم وأعراضكم، وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا إلي، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، وأنا حبيب إليّ صلاحكم، عزيز عليّ عنتكم،

وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع، إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلع على ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله.

خطبة أخرى

لعمر بن الخطاب

أيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن الكريم فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض، فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه، فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني خازنا وقاسما. إني بادئ بأزواج رسول الله ﷺ فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أنا وأصحابي، ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة، أبطأ عنه العطاء، فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته. إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي، فابتليت بكم، وابتليتم بي، وإني لن يحضرني من أموركم شئ فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فلئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم.

خطب عثمان وطلحة وعلي

عندما استشار عمر المسلمين في خروجه

على رأس الجيش إلى فارس

جاء في تاريخ الطبري، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أن عمر رضي الله عنه استشار المسلمين لما أراد أن يخرج إلى العجم وجيوش كسرى، وهي مجتمعة بنهاوند.

خطبة عثمان

فقام عثمان فتشهد وقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام، فيسيروا من شامهم، وتكتب إلى أهل اليمن، فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى

المصرين البصرة والكوفة، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرت بمن معك، ومن عندك، تكن في نفسك بالكاثر من عدد القوم، وكنت أعز عزا وأكثر. إنك لا تستبقي من نفسك بعد اليوم باقية، ولا تمتع من الدنيا بعزيز، ولا تكون منها في حرز حريز. إن هذا اليوم له ما بعده، فاشهده بنفسك ورأيك وأعوانك، ولا تغب عنه.

خطبة طلحة:

ثم قام طلحة فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين، فقد أحكمتك الأمور، وعجمتك البلايا، وحنكتك التجارب، وأنت وشأنك، وأنت ورأيك، لا تنبو في يديك، ولا نكل أمرنا إلا إليك، فأمرنا نجب، وادعنا نطع، واحملنا نركب، وقدنا نقد، فإنك ولي هذا الأمر، وقد بلوت، وجربت، واختبرت، فلم ينكشف شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار.

خطبة علي:

ثم قام علي، فقال: أما بعد، فإن هذا الأمر لم يكن نصره، ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، إنما هو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ. فنحن على موعود من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده. وإن مكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه، ويمسكه، فإن انحل تفرق ما فيه، وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا. والعرب اليوم، وإن كانوا قليلا، فإنهم كثير بالإسلام، أقم مكانك، واكتب إلى أهل الكوفة، فإنهم أعلام العرب ورؤساؤهم وليشخص منهم الثلثان وليقم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم، ولا تشخص الشام ولا اليمن، إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم، سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم، سارت الحبشة إلى ذراريهم، ومتى شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها وأطرافها، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا، قالوا هذا أمير العرب وأصلهم، فكان أشد لكلبهم عليك. وأما ما ذكرت من مسير القوم، فإن الله أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالصبر والنصر[1].

فقال عمر: أجل هذا الرأي، وقد كنت أحب أن أتابع عليه.

(١) تقدمت هذه الخطبة في القسم الأول من الكتاب برواية أخرى.

خطبة عثمان بن عفان
رضي الله عنه

خطب سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما عاب حكمه بعض الناس، وجاءوه متظلمين شاكين، فقال بعد أن حمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله.

أما بعد، أيها الناس، فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله، وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه، ولكن منتني نفسي، وكذبتني، وضل عني رشدي.

ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من زل فليتب، ومن أخطأ فليتب، ولا يتمادى في الهلكة، إن من تمادى في الجور، كان أبعد من الطريق».

فأنا أول من اتعظ، أستغفر الله مما فعلت، وأتوب إليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم، فليروني رأيهم، فوالله لئن ردني الحق عبداً، لأستن بسنة العبد، ولأذلن ذل العبد، ولأكونن كالمرقوق، إن ملك صبر، وإن عتق شكر، وما عن الله مذهب إلا إليه، فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إلي، لئن أبت يميني لتتابعني شمالي.

فرق له الناس، وبكى بعضهم.

خطبة لعلي بن أبي طالب
في الحث على القتال

خطب علي ليلة التقى جيشه بجيش معاوية في صفين، فقال: الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض، ولا ينقض ما أبرم، لو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة، ولا من خلقه، ولا تنازع البشر في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار، حتى لفت بيننا في هذا الموضع، ونحن من ربنا بمرأى ومسمع، ولو شاء لعجل النقمة، ولو شاء لكان منه النصر. متى يكذب الله الظالم، ويعلم الحق أين مصيره؟ ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، والآخرة دار الجزاء والقرار، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ألا إنكم لاقوا العدو غداً إن شاء الله، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله الصبر والنصر، والقوهم بالجد والحزم، وكونوا صادقين[1].

---

(١) قد تقدم كثير من خطب علي بن أبي طالب في القسم الأول من هذا الكتاب، فارجع إليه فهو مما يصور الخطابة في صدر الإسلام.

خطبة أم الخير بنت الحريش

جاء في العقد الفريد أن أم الخير بنت الحريش البارقية خطبت في صفين تحرض جند علي بن أبي طالب على قتال معاوية، فقالت: أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، إن الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلهمة، فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفرارا عن أمير المؤمنين! أم فرارا من الزحف! أم رغبة عن الإسلام! أم ارتدادا عن الحق!. أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم ﴾.

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم، قد عيل الصبر[1]، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يارب، أزمة القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل الرضي التقي، والصديق الأكبر، إنها إحن بدرية[2]، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك بها ثارات عبد شمس. ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون، صبرا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض،[3] باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وعما قليل ليصبحن نادمين حتى تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة، ولات حين مناص، إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة ذهب إلى النار، ثم قالت: قد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) يقال عال الشيء فلانا غلبه فعيل الصبر معناه غلب.

(٢) الإحنة الحقد وجمعها إحن.

(٣) الفج الطريق الواسع.

الخطابة في العصر الأموي

تمهيد

هذا العصر هو ثمرة الأحداث التي حدثت في آخر عصر الخليفة الثالث، وطول مدة الخليفة الرابع، أو إن شئت فقل إنه امتداد لبعض الحوادث التي كانت في عصر علي، أو صدى لما كان فيها، فالدعوة إلى الأخذ بدم عثمان كانت هي الفكرة التي ثبت منها السلطان للأموية، واستمر نحو تسعين سنة وسط السيوف والرماح المشرعة، والدم المهراق، ولم يسكن الناس لها إلا بعد أن سفكت دماء، وهتك الحمى، فقد أبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية، وقتل الحسين قتلة فاجرة، وكان بعد ذلك ما كان من خروج ابن الزبير، واتساع سلطانه، ثم استقامة الأمر لعبد الملك بن مروان بعد أن خاض في الدماء خوضا، ومرج فيها مرجا، والخوارج الذين ظهروا في عهد علي رضي الله عنه، تفاقم خطبهم، واستشرى أمرهم في ذلك العصر، وكانوا شوكة حادة في جنب الدولة الأموية، تمنعها من أن تتقلب في أعطاف النعيم الهادئ الساكن، وأن تستسيغ لذة الملك صافية من غير أن ترنق بما يكدرها. والشيعة الذين ظهروا في آخر عصر عثمان رضي الله عنه قد اتسعت مذاهبهم، وكثرت دعاويهم، وتفرقوا فرقا ونحلا مختلفة، وكانوا أحيانا يرفعون السيف، ويدفعون أحد أولاد علي إلى الانتقاض فيذهب دمه على شفرات سيوف بني أمية، كما فعلوا بزيد بن علي، وأحيانا يسكنون، وينشرون بين الناس أفكارا ليست من الدين في شيء، ومنها ما ينقض مبادئ الدين، ويذهب بقوته.

وقد كان الصحابة الذين عاشوا في ذلك العصر، ونقلوا إلى الناس صورة للسلف الصالح، أهل السبق والإيمان، كابن عباس وأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، والتابعين الذين شافهوا علية الصحابة ونقلوا عنهم– كان هؤلاء وأولئك رابطة اتصال بين ذلك العصر وما سبقه فكان متصلا به، وإن لم يكن مثله قوة دين، وثبات يقين، وأخذاً بالسنن القويم، والهدى الحكيم.

وفي هذا العصر لم يفن العرب في غيرهم، ولم تلاشهم المدنيات والحضارات الأجنبية التي غزوها، وحاولت بما عندها من علوم أن تغزوهم، بل كان الأمويون ذوى تعصب شديد للعرب والعربية، وكانوا حريصين على أن يربوا أولادهم على خشونة البادية، وفصاحتها ولسنها، فكانوا يرسلونهم، والعود أخضر إلى البادية، ليتفصحوا بفصاحة أهلها، ويذوقوا شيئا من

خشونتها، ليتربوا على البأس والنجدة والهمة والنشاط، وإذا لم يفعلوا ذلك مع أحد منهم اعتقدوا فيه النقص حتى قال عبد الملك في ابنه الوليد: أضر بالوليد حبنا له، فلم نوجهه إلى البادية، لذلك كانت الحياة العربية مع قوة الحضارة مختلطة بالبداوة.

ولئن كان التاريخ يحفظ للأمويين حفاظهم على العربية وحرصهم على توطيد سلطان العرب، حتى كان منهم الولاة والأمراء وذوو السلطان، فلن ينسى التاريخ أنهم صيروا الخلافة ملكا عضوضا، يتوارث، وأنهم غلبوا سياسة القهر، وحاولوا نشر كل شيء من شأنه أن يمد ملكهم عن منافسة المنافسين، وطمع الطامعين، ودفعهم الأمر إلى مجاوزة حد الاعتدال. وقد كان من أثر منازعة العرب لهم، ومغالبتهم إياهم، ومحاولة الأمويين نشر سياستهم مناحرات بالسيف، ومنازعات بالقول، أفادت منها الخطابة أكبر فائدة، وانتفعت منها أكبر النفع، وسنفصل الأجمال فيما يلي:

الحياة العربية في العصر الأموي

الأحوال السياسية:

تطلع الأمويون للخلافة في وقت سادت فيه الفتن، وتشعبت فيه الإحن، وركب كل امرئ رأسه، اضطربت الحال على أثر مقتل الخليفة الثالث، عثمان رضي الله عنه، فتسامت همة معاوية إلى ولاية أمر المؤمنين، ونازع سيف الإسلام عليا في خلافته، وكاد علي أن يضربه الضربة القاصمة في صفين، لولا خديعة التحكيم التي فرقت جيش علي، وأنبتت نابتة الخوارج، ولما قتل علي رضي الله عنه، ونزل الحسن عن الخلافة لمعاوية، واستقام له الأمر، رجعت القضب إلى أجفانها، وبسياسة جمعت إلى الشدة اللين، وإلى الحزم الحلم، سكنت الفتن إلا قليلا، غير أنه سكون لا شيء فيه من الرضا، فالقلوب كثير منها نافر، ولكنها الرغبة والرهبة، والطمع والخوف، وما أنهكت به الأمة من حروب دائبة مستمرة، كل هذا جعل الناس يسكنون، وإن كانت قلوب تستنكر، ولذا لم تنته خلافة معاوية ويئول يزيد، ويتحرك الحسين وابن الزبير، حتى ظهر الخروج على هذه الدولة في إعلان لا سر فيه، فخرجت المدينة المنورة ومكة المكرمة، وتحركت فتن العراق، وكثر خروج الذين تعددت مذاهبهم، وتباينت آراؤهم، وبكثير من الدماء، وكثير من الإرهاق، عادت الحال إلى نوع من الهدوء، بعد أن أبيحت المدينة، وقتل الحسين.

وهكذا استمرت الدولة فى نزاع تارة يشتد، وأخرى يسكن، خوارج يخرجون أحيانا مختشين الحسام، وأخرى يدعون بدعايتهم قولا، والخلفاء يمحون دماءهم.

وعلويون يسكنون تارة، ويخرجون محاربين تارة أخرى، وملوك الأمويين يدفعون هؤلاء وأولئك مرة بالسيف، وأخرى بالخديعة وثالثة بإلقاء بذور الشر بين خصومها، وفى وسط تلك الزوبعة وجد القول آذانا وقلوبا.

الأحوال الاجتماعية:

فى وسط هذا الاختلاف الذى ألمعنا إليه، وتحت ظل الأمويين، قامت العصبية الجاهلية التى سترها الإسلام ودعا إلى محوها من القلوب، واشتد النفور بين القحطانيين والحجازيين، وبين الربعيين والمضريين، وكان من بعض الخلفاء ما أضرم نيرانها، وزادها حدة وقوة، والحقيقة أن كثيراً من حروب هذا العصر وفتنه كانت العصبية دافعة له، وإن سترت بستار من دعوة دينية أو نزوع إلى طاعة، أو تشيع لآل الرسول ﷺ.

ويلاحظ أن المظاهر الاجتماعية فى ذلك العصر، قد أخذت تختلف باختلاف البلدان التى غلبت فيها العناصر العربية وهى الحجاز والعراق والشام، فهى فى الحجاز غيرها فى العراق وهى فى الشام غيرها فيهما.

ففى المدن الحجازية وجد ترف بعد أن لم يكن، وذلك لأن الدولة الأموية منعت زعماء القبائل من الخروج إلى الأقاليم، حتى لا ينازعوها السلطان، وأدرت عليهم من الخيرات ما منعهم من التفكير فى الانتقاض عليها، وأكثر أولئك من ذوى القلوب والعواطف الشديدة، والعقول القوية، ولكنها ينابيع صافية قد تسلطت على صخور، فلم تنبت ما يظل مستظلا، أو يطعم طعاما، فاتجه بعضهم إلى الملذات يشتارون عسلها، وأنشئوا الحيطان والحدائق، وجعلوا من الطائف وغيرها بين مكة المكرمة والمدينة المنورة جنات فيها متع النفوس، وانصرفوا إلى الإماء والشهوات.

أما فى العراق ففتن دائمة، وقلق مستمر، وحياة اجتماعية غير محكمة الصلات، والسبب فى ذلك أنه قد سكنه فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين طوائف من أجناس مختلفة، فمنهم العرب وأغلبهم مضريون، ومنهم النبط، ومنهم الفرس، ومنهم آراميون، ولكل طائفة من هؤلاء عادات وتقاليد، تستمدها من قوميتها الأولى، وجنسيتها القديمة، وحد الإسلام دينهم، وقرب ما بين لغاتهم، ولكنه لم يجمع أهواءهم، ولم يوحد إحساسهم، ولذلك

بدت في العراق أفكار مختلفة، وأهواء متناقضة وإحساسات متنازعة، إذ قد نجم من هذه العناصر المتخالفة مخلوط غير تام المزاج، يتوحد في ظاهره، ويختلف في باطنه. ومجتمع كذلك تكثر فيه الفتن، ويشتد الاضطراب.

ويذكر ابن أبي الحديد أن لفتن العراق سببا آخر، وهو حدة ذكاء أهل العراق، فقد جاء فيه:

قال أبو عثمان الجاحظ: العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء، وطاعة أهل الشام، أن أهل العراق أهل نظر، وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر، يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح، والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء. وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد، لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال، وما زال العراق موصوفا أهله بقلة الطاعة وبالشقاق على أهل الرياسة.

أما في الشام حيث يحكم الأمويون فقد كان الترف سائدا، ولكن في احتشام في أكثر الأحيان، ليحتفظ الخلفاء بمهابتهم، وليحفظوا لهم صفتهم الدينية، ولئلا تتألب عليهم العرب، وأكثرهم متدين، ففي قصور الخلفاء كل وسائل الترف، قيان وغناء، ولكن لا يظهرون بشيء من ذلك أمام العامة، بل كان الصدر من خلفاء بني أمية يستمع إلى غناء المغنين من وراء حجاب.

والشام لأنها قصبة الدولة، كان الناس يفدون عليها من كل ناحية، وهي تموج بالوفد، ويتبادلون القول مع الخلفاء، وفي الحق أنها كانت ميدان المباراة في تملق الخلفاء ومدحهم، والزلفى إليهم، بالخطب أحيانا، وبالشعر أحيانا، وفيها كانت المفاخرات، والمناظرات بين أيدي الخلفاء، وتحت سمعهم وبصرهم.

الأحوال الدينية:

عاش في صدر هذه الدولة طائفة من أصحاب رسول الله ﷺ، وعاش التابعون أكثر مدتها، وكان هؤلاء وأولئك يدارسون الدين، ويعرفون الناس أحكامه، ويبثون روحه، والخلفاء في الجملة، كانوا يظهرون تمسكهم بالدين، بل حمايتهم له، يقولون ذلك بألسنتهم، وإن كان منهم من يخالفه، فعبد الملك بن مروان الذي وقف يخطب مرة فقال: من قال لي اتق الله قطعت عنقه، يظهر الحمية الدينية، إذ يبلغه أن الحجاج قد شتم أنس بن مالك خادم

رسول الله ﷺ، فينذر الحجاج، ويرعد ويبرق، ويشتد ويحتد، وذلك لتجرى كلمة الثناء من أنس رضى الله عنه، فيكون لها أثرها فى نفوس العامة والدهماء.

والناس قد استمروا على تدينهم، ولكن خفت فيهم حرارة الإيمان ولم يكونوا كسلف هذه الأمة قوة دين وثبات يقين، وحلت العصبية الجاهلية فى بعض النفوس محل الدين، وانتشرت فى بعض الجهات فسوق ومفاجر، وشاع على ألسنة الشعراء تهاج مقذعة، وشتائم لاذعة، وأقوالهم تنتشر بين الناس، فتهزع الأخلاق، وتفسد النفوس، وتضعف روح الدين، وإذا ساغ لولى عهد المسلمين يزيد بن معاوية أن يدفع شاعرا نصرانيا ليس للإسلام فى نفسه حرمة أن يقول فى الأنصار وهم الذين آووا ونصروا:

ذهبت قريش بالمكارم كلها　　　واللؤم تحت عمائم الأنصار

إذا ساغ ذلك لابن الخليفة وهو المسئول الذى يجب أن يظهر حاميا للدين، فكيف يكون شأن دهماء الناس، ومن ليس للنقد عليهم من سلطان، لذلك لم تقيد الألسنة بقيود الدين كما كان الشأن أولا، وكان لذلك أثره فى الخطابة كما سنبين إن شاء الله تعالى.

دواعى الخطابة وموضوعاتها
فى العصر الأموى

كثرت دواعى الخطابة فى صدر الدولة الأموية ووسطها، واتسعت موضوعاتها، وتشعبت نواحيها، وكان أعظم دواعيها وأوسع موضوعاتها:

الفتن:

الفتن التى قامت فى صداها الدولة الأموية، وتأججت نيرانها، واشتد لهيبها بعد موت معاوية عندما تولى يزيد، فقد انقسم المسلمون إلى أحزاب: شيعة، وخوارج، وأمويين، وزبيريين، وكل يدعو الناس إلى فكرته، وتأييد دعوته، واشتبكت الحروب بين هذه الطوائف، فقاتل الحسين جند يزيد، وقتل، وقاتل عبد الله بن الزبير حتى تم له الأمر فى الحجاز والعراق، ثم انتقصت أطراف ملكه وشيكا. والخوارج استمروا إلبا على الدولة لا تسكن لهم ثائرة ولا تخمد لهم جذوة. وكان من وراء السيوف الخطب القوية، والعبارات الشديدة الدافعة إلى الموت، رجاء مثوبة الرحمن، أو طمعا فى السلطان، فالخطابة وجدت فى تلك الفتن معينا للقول، وحافزا

إليه، يذكر المعترضون على بني أمية مساويهم، واجتراءهم على ذوي الحق، ويرمونهم بالخروج على الدين، ويذكرونهم بماضي أسلافهم في محاربة النبي ﷺ والسابقين. والأمويون يرمون أولئك بالبغي والخروج على الطاعة، وسترى ذلك واضحا في المختار من الخطب.

السياسة:

كان الخلفاء وولاتهم في أشد الحاجة إلى أن يبينوا للناس سياستهم، ليأخذوهم بها، إذ كانت نفوس المحكومين في قلق دائم مستمر، وميل للخارجين، فكان الخلفاء وأتباعهم يبينون حكمهم وعدالته، وإحسانهم للناس إن أسلسوا القياد، وأخلصوا، ويرعدون ويبرقون، ويهددون وينذرون من يخرج أو يحيد عن الجادة، وقد كان صوت الترهيب أظهر في البلاد التي نبتت فيها فتن، كالعراق والحجاز. وصوت الترغيب أوضح في البلاد التي وادعت وسالمت، بل عاونت وناصرت، كالشام.

انظر إلى خطبة زياد البتراء بالبصرة، وخطب الحجاج في العراق، وخطبة عبد الملك بعد قتل مصعب بن الزبير، تر ذلك واضحا كل الوضوح.

الفتوح الإسلامية:

لم تنقطع الفتوح في العصر الإسلامي، ولعل الأمويين وجدوا فيها شاغلا للعرب، يمنعهم من التفكير في أمرهم، والانقضاض عليهم، فوجهوهم إلى البلدان، لكيلا يكون بأسهم بينهم، ففي عصر معاوية فتحت بلاد في شمال أفريقية، والسند، وبعض أفغانستان ، وفي عهد عبد الملك والوليد ابنه تم الاستيلاء على شمال أفريقية، والأندلس، وامتد السلطان الإسلامي إلى بلاد البنجاب في الهند، واستولى مسلمة بن عبد الملك على آسيا الصغرى، وفي عهد سليمان بن عبد الملك حوصرت الأستانة. والحروب كما بينا تحتاج إلى الخطابة والبيان، وقد أسهبنا في بيان ذلك في العصر الإسلامي السابق، فارجع إليه.

الوفادة:

كثرت الوفادة على الخلفاء والأمراء في ذلك العصر لرفع شكاة، أو لامتياح، أو إعلان النصرة والتأييد، وقد يدعو الخليفة بعض الوفود إليه، ليسدي إليهم يداً، أو يعقد حبل مودتهم، أو يستعتبهم على سابقة منهم، والوفود عادة من كبار المتكلمين المجيدين يلقون كلامهم في لسان مبين، وقول حكيم، وأسلوب محكم، وإذا اعترض عليهم، سددوا الجواب، وأتوا بأحسن الخطاب. قال ابن عبد ربه في الوفادة:

إنها مقامات فضل، ومشاهد حفل، يتخير لها الكلام، وتستعذب الألفاظ، وتستجزل المعاني، ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم، وزعيمهم الذي عن قومه ينزعون، وعن رأيه يصدرون، فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يعرب عن ألسنة.

فالوفد يكون من أرباب البيان، والوفادة روحها اللسان والجنان، لذلك كانت كثرة الوفادة في ذلك العصر عاملا من عوامل انتشار الخطابة، وموضوعا من موضوعاتها.

المدح والتهنئة والعزاء:

كانت الخطابة في هذا العصر تقال في بعض الموضوعات التي كان يقال فيها الشعر، فكان من الخطباء من تكون كل خطبتهم مدحا في خليفة، أو تهنئة بولاية، أو تعزية لفقد عزيز كريم، وقد تكون الخطبة أحيانا مشتملة على التهنئة والتعزية عندما يتولى الخلافة ابن الخليفة، فيجتهد الخطيب في أن تكون خطبته جامعة بين تعزية للمواسى في فقد، والمهنيء بنيل أمل كان مرتجى، كما فعل كثيرون من الخطباء في عزاء يزيد في معاوية، وتهنئته بالملك.

الوعظ الديني:

كانت سيطرة الدين على بعض النفوس دافعة لأن ينصرفوا إلى العبادة والنسك، والتقوى والإرشاد، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ومنهم من انصرف إلى دراسة العقائد، والتعمق في بحثها، وكون له رأيا فيها، دعا إليه، وحث عليه، ومنهم من عكف على مناقشة الخارجين على الإسلام الهادمين لبنائه، والرد عليهم، فلحن بالحجة، وقدم الدليل، ومن هؤلاء وأولئك الحسن البصري، وواصل بن عطاء، ومطرف بن عبد الله الحرشي، وبكر بن عبد الله المزني، ويزيد بن أبان الرقاشي، ومالك بن دينار. وأكثر هؤلاء قاص مجيد بليغ ذو منطق وجيز.

مجالس المباراة في الخطابة:

كانت تعقد مجالس للمباراة في الخطابة، والسبق فيها، وكثيرا ما كان يدعى الشخص إلى القول مفاجأة، ليختبر مقدار بيانه، وقوة جنانه، وحضور بديهته، ونهوض حجته، ومن ذلك ما عقده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق من مجلس للخطابة تبارى فيه خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى، وواصل بن عطاء، وقد نال في ذلك المجلس قصب السبق واصل بن عطاء. وقال فيه بشار مادحه بتلك الخطبة:

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا   وحبروا خطبا ناهيك من خطب

فقام مرتجلا تغلي بداهته   كمرجل القين[1] لما حف باللهب

وجانب الراء لم يشعر به أحد   قبل التصفح[2] والإغراق في الطلب

ولقد كانت مجالس معاوية تشتمل على شيء كثير من هذا النوع من المباراة، وما كانت خطبة سحبان التي كانت من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر إلا من ذلك النوع. فإنه يروى أن وفدا من خراسان، فيهم سعيد بن عثمان، قدم على معاوية، فطلب سحبان، فلم يوجد في منزله، فاقتضب من ناحية القضايا، وأدخل عليه، فقال: تكلم، فقال: انظروا إلى عصا تقوم من أودى، قالوا: وما تصنع بها، وأنت بحضرة أمير المؤمنين، قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه، فضحك معاوية، وقال: هاتوا عصا فجاءوا بها إليه، فرجلها برجله، ولم يرضها، وقال: هاتوا عصاي، فأخذها وتكلم من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر، ما تنحنح، ولا سعل ولا توقف، ولا ابتدأ في معنى فخرج منه، وقد بقي عليه منه شيء، فمازالت تلك حاله، حتى أشار معاوية، فأشار إليه سحبان أن لا تقطع عليّ كلامي، فقال معاوية: الصلاة. قال: هي أمامك، ونحن في صلاة وتحميد، ووعد ووعيد. فقال معاوية: أنت أخطب العرب، فقال سحبان: والعجم والإنس والجن[3].

ألا ترى من ذلك القصص أن تلك الخطبة ما كان القصد منها إلا المباراة الكلامية من غير غرض منشود، ولا موضوع محدود. وقد كانت تلك المباراة من أسباب انتشار الخطابة، وكثرتها، وهي تشبه المباراة الخطابية التي كانت تقوم بين خطباء أثينا في عصر بيركليس.

عوامل رقي الخطابة وعوامل ضعفها
في ذلك العصر

قال المرحوم الأستاذ محمد المهدي (بك) في وصف الخطابة في هذا العصر:

هذا عصر سارت الشجاعة فيه وراء البيان، وملك اللسان منه ما لم يملك السيف، وتسابق الناس فيه إلى غاياتهم. بحسب مقالاتهم، وقد رأوا المثل الأعلى في الكتاب العزيز

---

(١) القين هو الحداد.   (٢) التصفح النظر.   (٣) سرح العيون صفحة ٢٧.

فتساموا إلى طريقه في الإقناع، وإقامة الحجة، واقتبسوا من لفظه، واستعانوا بروحه فحيوا في بلاغتهم حياة جديدة. ثم قال: والعرب أقدر الناس على بيان، فإذا كان في حكمة رائعة، ودين قيم، وعزيمة صادقة، ملك الواحد منهم من قلوب الناس مالا تملكه الدنيا بحذافيرها، وقد سما بأنفسهم نصرهم الباهر، وعزتهم القديمة، وأنسابهم المصونة، وأيامهم المشهورة، وأمثالهم المأثورة، ومواقعهم المشهودة، فلم يكن للواحد منهم إلا أن يتكلم، أو يكلم، ولذلك كثر في هذا العهد خطباؤهم كثرة لم تعهد فيهم من قبل، ولا من بعد، وأجادوا إجادة لا نظير لها، وتفننوا في مجامعهم، وجمعهم وأعيادهم؛ ومواسم الحج، ومضارع السقيا، ومشاهد الحرب، ومنافر الجهاد، ومرابد الأمصار، ومحافل الملوك، ومجالس الموعظة، وأندية الأدب، وحاولت كل قبيلة أن يكون خطيبها أخطب، وكل حزب أن يكون لسانه أغلب، لتسابق الملوك والأمراء والنساك والزهاد، ورؤساء الأحزاب والقبائل، وكثير من دهماء الناس في هذا الميدان، حتى انبثق نور الأذهان، وتفجرت ينابيع الحكمة، وفاضت بدائع البداله في الناس.

هذا قول حق إذا كان موضوعه صدر الدولة ووسطها. أما في آخرها فقد ركدت ريحها قليلا حتى استيقظت قوية أمدا قصيرا في صدر الدولة العباسية.

والأسباب في بلوغ الخطابة ذلك الشأو هي ما بيناه في عوامل نهوض الخطابة في صدر الإسلام وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والحضارة وغيرها، فإن تلك الأمور كان لها أثرها في ذلك العصر كما كان لها أثرها في سابقه، ومازالت لها قوتها وروعتها في النفوس، وقد جدت عوامل أخرى فوق تلك زادت الخطابة رفعة ونهوضا:

فالمجادلات التي كانت تقوم بين الفرق السياسية المختلفة التي ظهرت في ذلك العصر، بعد أن غرست أصولها في آخر سابقه، خصوصا ما كان بين الخوارج وغيرهم، كانت عوامل رفعة للخطابة،فإنك تجد في تلك الخطب الجدلية روحا عالية، ودقة في التفكير، وسلامة في التعبير، وحرصا على وزن العبارات بميزان دقيق.

اقرأ خطبة أبي حمزة الشاري التي يرخص فيها عن الخوارج الأباضية، ويقذف غيرهم بأشنع التهم، وكذلك خطب قطري بن الفجاءة وغيرهما ترى فكرا دقيقا، وعبارات عالية، جمعت إلى الجزالة والسلامة روح الدين.

وقد ظهر في ذلك العصر، خطباء من علماء الكلام، يعظون ويدافعون عن مذاهبهم في أصول الاعتقاد، كالحسن البصري الذي قال فيه أبو عمر بن العلاء:

ما رأيت أفصح من الحسن البصري، ومن الحجاج الثقفي، فقيل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

وكواصل بن عطاء، فقد كان نادرة زمانه في حضور البديهة، وسداد الجواب، وقد كان انضمام هؤلاء إلى صفوف الخطباء مما جعل الخطبة تستفيد من دقة تفكيرهم، وغزارة علومهم إحكاما، وثروة في المعاني والأفكار.

وكان الخلفاء في صدر الدولة الأموية يحثون على الخطابة ويدعون إليها، ويحملون على ترويجها، وكانت دورهم منتديات لها، يتبارى فيها أبلغ الخطباء، وأهل اللسن والبيان، وخصوصا إذا جاء وفد، وكان صغار النشء يحرصون على استماع البلغاء من الخطباء، ليحاكوهم، وينسجوا على منوالهم، وقد ساد التفاخر بالقدرة على الخطابة وإجادة البيان، لأن الخطبة كان لها الشأن الأول عند الخلفاء والأمراء، يروى أن عبد الملك بن مروان سقطت له إحدى ثناياه، فذكر أنه لولا الخطبة والنساء ما حفل لسقوطها.

وقد دفعهم التفاخر بالخطابة، إلى أن أخذوا يزورون الكلام، ويهبكونه، ويضمنون فيه من ضروب التحسين الشيء الكثير، وإذا قرأت خطب الحجاج تلمح فيها صناعة لفظية، وإن لم تكن بادية التكلف، وكذلك ترى خطب كثير من خطباء ذلك العصر.

ومع عوامل الرقي الخطابي التي ظهرت في ذلك العصر، وكان لها كل هذه الثمرات ظهرت بجوارها مظاهر ضعف نسبي، وإن كانت قد اختفت تحت لألاء الرقي الذي بدا، وغفلت عنها الأنظار في وسط ضجيج الرفعة التي كانت للخطابة في ذلك العصر، ومن ذلك:

أن اللحن ابتدأ يجري على ألسنة الخطباء، فيروى أن الحجاج كان يفتح إن في موضع الكسر، ويروى أن الوليد بن عبد الملك كان كثير اللحن في الخطبة، بل في الصلاة حتى إنه يروى أنه كان يصلي مرة فقرأ: «ياليتها كانت القاضية» ورفعها. فقال عمر بن عبد العزيز إذ بلغه ذلك «عليك» وأراحنا الله منك، وقد سرى اللحن على ألسنة كثير من الفصحاء، جاء في البيان والتبيين:

ومن اللحانين البلغاء خالد بن عبد الله القسري، وخالد بن صفوان. وجاء فيه: وقد زعم رؤبة ابن العجاج، وأبو عمر بن العلاء أنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن والحجاج، وغلط الحسن في حرفين من القرآن.

ولا شك أن اللحن في الخطبة مع قرب العهد، وعدم فساد السليقة مظهر من مظاهر الضعف وإن أخفته بلاغة المتكلمين.

وقد عادت العصبية الجاهلية فعاد معها التفاخر بالأحساب والأنساب، وكثر ذلك فى الخطابة، كما كثر المدح الكاذب، والملق الخادع، ونفاق اللسان، وكل هذه عوامل من شأنها أن ترجع بمعانى الخطابة القهقرى، وأن ترتد عما اكتسبته من روعة وجلال فى عصر الخلفاء الراشدين، ولذا ضعف تأثير الكلام الجيد فى القلوب.

يروى أن الحسن البصرى تكلم عنده رجل بمواعظ جمة، ومعان تدعو إلى الرقة، فلم ير الحسن قد رق، فقال الحسن: إما أن يكون بنا شر، أو بك؛ والحقيقة أن أكثر الخطباء الأمويين في ذلك العصر كانوا إما منافقين أو مستبدين، أو جلادين، وكل أولئك لا تصل كلماتهم إلى أعماق القلوب لأنها لم تخرج منها، وعامر بن قيس يقول: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.

وكانت كثرة المتشادقين من أسباب ضعف تأثير الكلام في القلوب لأن شهوة الكلام سادت، والرغبة في الحجاج واللجاج، وإن لم تكن لغرض أو إصابة هدف، قد تغلبت، إذا كثر الكلام قل التأثير، ومن كان كثير التشديق، كان أشد افتقارا إلى السامع، من السامع إليه، لشغفه أن يذكر فى البلغاء، وقال الجاحظ فى وصف هذا النوع من المتكلمين: ومن أسف هذا الإسفاف، وغلب الشيطان عليه هذا الغلبة، كانت حاله داعية إلى قول الزور، والفخر بالكذب، وصرف الرغبة إلى الناس والإفراط فى مديح من أعطاه، وذم من منعه.

ولا شك أن هذا الصنف من المتكلمين كان كثيرا في الأمويين وأنصارهم، ولا شك أيضاً في أن سيادتهم للمنابر، واستيلاءهم عليها مؤد حتما إلى انصراف الناس عن الخطبة والخطباء، وذلك مؤد حتما إلى ضعفها شيئا فشيئا.

وفي آخر العصر الأموى ضعفت الدواعي إلى الخطابة، لقلة الخروج على الخلفاء علنا. والاتجاه إلى التدبير السرى، وسيرت الأمور فى جنح الظلام، ولأن الخطب بين أيدى الخلفاء قد قلت، إذ الوفود قد قلوا، بعد أن قل الخارجون، واستغنى الخلفاء عن استدناء القلوب، وقد علمت أن ذلك كان من دواعي القول والبيان، ولهذا كله ضعفت الخطابة نسبيا كما بينا، إلى أن نهضت في صدر الدولة العباسية أمدا قصيرا كما ستبين إن شاء الله تعالى.

الألفاظ والأساليب والمعاني

الألفاظ:

كانت ألفاظ الخطابة صافية لا خشونة فيها، ولاحوشي، مع الجزالة والقوة، كما كانت في العصر السابق، وذلك لما اكتسبته من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والحضارة التي لم تفسد النفس، كما بينا آنفا فارجع إليه.

المعاني:

كانت المعاني الخطابية في ذلك العصر مختلفة باختلاف الخطباء: فخطب الخوارج سادتها المعاني الدينية، وهي في الجملة تشبه الخطب في العصر الإسلامي من هذه الناحية، وإنك لتقرأ خطب قطري بن الفجاءة أو أبي حمزة الشاري، فتجد مشابهة واضحة بينها وبين خطب الخلفاء الراشدين في معانيها وروحها، وإن كانت الثانية لقوم سلم تفكيرهم من الاندفاع، والخوارج لم تسلم خطبهم منه، ولولا ذلك، وأن في خطب الخوارج قذفا بالكفر لكثيرين، لكانت هي وخطب الأولين من المهاجرين والأنصار خرجتا من معين واحد.

وخطباء الوعظ الديني كالحسن البصري، والشعبي، وابن سيرين، وواصل بن عطاء، كانت كخطب السلف الصالح من كل الوجوه، لا من جهة المعاني فقط، غير أنها زيد فيها أمر لم يكن في خطب السلف، وهو القصص، والوعظ به، وضرب الأمثال الكثيرة، وسوق أخبار الماضين، ليتعظ بها السامعون لهم، وترى ذلك واضحا كل الوضوح في خطب الحسن البصري رضي الله عنه.

أما معاني خطباء الأمويين ومن لف لفهم، وسايرهم في أعمالهم وعاونهم في نهجهم فقد امتازت في الجملة:

١ – بأنها كانت معاني تهديدية، يكثر فيها الإرعاد والتهديد، إذا كانت من الوالي أو الخليفة لقوم في نفوسهم شئ من السخط على الأمويين وحكومتهم، كخطبة زياد ابن أبيه في العراق، وخطب الحجاج فيه، فإن تلك الخطب تشبه الصخور التي يقذف بها الخطيب وجوه السامعين، وتشبه الإنذارات التي ينذر بها من يريد إيقاع عقوبة صارمة، أو إعلان حرب داهمة، ولا تعد خطبا يقصد بها إدناء القلوب، وجمعها على الجادة والسير بها في طريق الرشاد.

٢ – وبأنها كان أكثرها في الفخر إذا كانت من خطباء القبائل المناصرة لهم، كقول خطيب الأزد عند عبد الملك: وقد علمت العرب أنا حي فعال، ولسنا بحي مقال، وإنا نجزي بفعلنا عن أحسن قولهم، إن السيوف لتعرف أكفنا، وإن الموت ليستعذب أرواحنا، وقد علمت الحرب الزبون أنا نقرع جماحها، ونحلب صراها. وإنما كثر الفخر بين هؤلاء لعودة العصبية، واستيلائها على نفوسهم، وبينما كثر عند هؤلاء الفخر، كثرت معاني المدح والملق والنفاق في أتباع الخليفة، وأتباع الأمراء وبطانتهم، ومن لهم عندهم حاجة، أو يطمعون في نيل أمل.

٣– وبأنها كانت تشتمل على السب والإقذاع أحيانا، وإنك لترى ذلك واضحا في كثير من خطب الحجاج في أهل العراق، فإنك ترى فيها إفحاشا في الهجو، وإقذاعا. وكأن الهجو العنيف، الذي ساد الشعر في ذلك العصر سرى بعضه إلى الخطابة، فأخذت منه أشطرا، أو لعلهما صدرا عن ينبوع واحد، وهو التنابز الذي فرق جماعات المسلمين، فاستباح كل أعراض الباقين، ولم ترع حرمة الدين، ولا وشائج القربى، ولا صلة الأرحام، واقرأ خطبة زياد ابن أبيه التي خطبها قبل أن يلتحق بمعاوية يرد بها على كتاب أرسله إليه، وجاء فيها: العجب من ابن آكلة الأكباد، وقاتلة أسد الله، ومظهر الخلاف، ومسر النفاق، ورئيس الأحزاب، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله، كتب إلي يرعد بي، ويبرق عن سحابة جفل،[1] لاماء فيها، وعما قليل تسيرها الرياح قزعا[2]، والذي يدلني على ضعفه تهدده قبل القدرة، أفمن إشفاق على يعذر وينذر. كيف أرهبه وبيني وبينه ابن بنت رسول الله ﷺ، وابن عمه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار، والله لو أذن لي فيه، أو ندبني إليه، لأرينه الكواكب نهارا، ولأسعطنه ماء الخردل.

وما في الخطبة من الهجو لا يعتبر كثيرا بالإضافة إلى الهجو الذي كثر على ألسنة خطباء هذا العصر.

٤ – والمبالغة والإغراق، لكثرة النفاق، والخداع والملق والمدح؛ فإن هذه الأمور يكون صوت الصدق فيها خافتا، وصوت الكذب عاليا، والمبالغات والغلو، ترد من أبواب الكذب، حيث تختفي الصراحة، هذا إلى أن تسابق الخطباء، في مدح الخلفاء جعل كلا يجتهد في المعاني، والغوص فيها ليصلوا إلى قصب السبق قبل غيرهم، وذلك يدفعهم حتما إلى الإغراق.

(١) السحابة الجفل التي لا ماء فيها لأنه أريق. (٢) قطع السحاب المتفرقة.

اقرأ خطبة عمرو بن سعيد التي مدح فيها يزيد بن معاوية، عند العهد له، فقد جاء فيها: أما بعد، فإن يزيد بن معاوية، أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، إن استضفتم إلى حلمه وسعكم، وإن افتقرتم لذات يده أغناكم، جذع قارح[1] سوبق فسبق، ووجد فمجد، وقورع ففاز سهمه، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه.

الأسلوب:

كان الأسلوب في ذلك العصر يشبه الأسلوب في عصر الخلفاء الراشدين في الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية وتجميل الخطبة أحيانا ببعض أبيات الشعر، وتقسيم الخطبة إلى مقدمة تشتمل على حمد الله، والثناء عليه، وموضوع، وخاتمة.

ولكن كثر في خطب ذلك العصر الازدواج، وهو أن تكون الخطبة مقسمة إلى فقرات متناسقة، وإن لم تكن ذات قواف متحدة. اقرأ خطبة عبد الملك بن مروان التي خطبها بعد قتل مصعب بن الزبير في العراق، تراها ذات فقرات متناسقة، وقد كان على شاكلتها كثير من خطب هذا العصر.

وكثر أيضاً الاجتهاد في تحسين الخطب، وتجميل الكلام، وإن كانت السليقة العربية التي امتاز بها أكثر خطباء الأمويين والخوارج، قد سترت ذلك التكلف، ولم تظهره، وإنك لتلمح في خطبة الحجاج التي قالها في أول مقدمه إلى العراق، الصناعة المحكمة، والقصد إلى التحسين. ولعل السبب في كثرة تحسين الخطبة في ذلك العصر أن كثيرا من الخطباء كانوا يزورون كلامهم قبل إلقائه، ويجمعون الفكرة قبل أن يتقدموا للخطبة، واقرأ ذلك الخبر الذي جاء في العقد الفريد:

قيل لبعض الخلفاء: إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعده، فلو أمرته أن يصعد المنبر لرجوت أن يفتضح، قال: فأمر رسولا أن يأخذ بيده إلى المسجد، فلم يفارقه حتى صعد المنبر.

ألا يدل ذلك الخبر على أن التهيئة قد كثرت حتى كان يتهم بها بعض المجيدين المقال، فإنه لا اتهام في أمر يكون بعيد الحصول، غير قريب من المألوف المعروف. وربما كان من أسباب الاتجاه إلى تحسين الكلام وتنميقه- المباريات التي كانت تقوم بين الخطباء فإن كلا

---

(١) شاب قوي.

كان يحاول السبق، والإبداع فى الأسلوب والمعانى، ليكون الأغلب والأسبق. ومن الأسباب أيضاً أن الكلام صار شهوة، وصار موضع فخر، وكل ذلك يدفع الإنسان إلى التحسين. وقد دفعهم ذلك أيضاً إلى محاولة أن يضعوا أصولا للخطابة ويلقنوها الشبيبة، كما كان يفعل الأثينيون فى عصور ازدهار الخطابة، فقد ورد فى البيان والتبيين والعقد الفريد أن إبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى كان يعلم الفتيان الخطابة، ومر به بشر بن المعتمر على ما بينا فى القسم الأول، وإبراهيم هذا كان من أصحاب عبد الملك بن مروان، وعاش إلى خلافة المنصور العباسى، وهذا الخبر فى جملته، يدل على أن الخطابة كانت تلقن، وتعلم فى آخر العصر الأموى، وابتداء العصر العباسى، وأن الناس قد ابتدأوا يفكرون فى وضع أصول لها، حتى جاء العصر العباسى بترجمته وعلومه، فترجمت الأصول الخطابية اليونانية فيما ترجم فى العصر العباسى كما بينا.

طول الخطب وقصرها:

خطب الخوارج فى جملتها أميل إلى الطول، لما كانت تشتمل عليه من الحجج والأدلة، والمآخذ على حكم الأمويين، وإعلان مساويهم، فترى خطب أبى حمزة الشارى، وقطرى وغيرهما من خطباء الخوارج فيها الطول واضحا، وقد رويت مع طولها، ونقلتها المصادر الأدبية كالبيان والتبيين، والعقد الفريد، والأمالى، والكامل، فدل ذلك على نفاستها وجودتها.

وخطب الوعاظ والزهاد، كالشعبى وابن سيرين والحسن البصرى أميل إلى الإيجاز، أخذا بمذهب السلف الصالح، ولنهى النبى ﷺ عن طول الخطبة، ولخوفهم من أن تكون الإطالة ثرثرة، وتفيهقا، وتشادقا، وكل أولئك قد نهى عنه النبى ﷺ.

وخطب الأمويين ومن والاهم، ومن كان على شاكلتهم فيها الطول المفرط فى الطول، وفيها المتوسط، وفيها القصير المفرط فى القصر، فترى خطبة سحبان بين يدى معاوية، عندما أحضره لقولها مفرطة فى الطول كما ذكرنا، وخطب الحجاج، وزياد ابن أبيه وغيرهما. بين الطول والقصر، وخطب الذين أرتج عليهم فى الخطبة قصيرة جداً، ومن ذلك خطبة خالد بن عبد الله القسرى عندما أرتج عليه، فاعتذر قائلا:

أيها الناس إن الكلام يجئ أحيانا، فيتسبب سببه، ويعزب أحيانا، فيعز طلبه، فربما طولب فأبى، وكوبر فعصى، فالتأنى لمجيه أصوب من التعاطى لأبيه.

وقد كان بعض الخطباء يعمد إلى ذلك النوع من الإيجاز من غير ضرورة ولا إرتاج، كما فعل يزيد بن المقفع، عند أخذ البيعة ليزيد بن معاوية، إذ قال: أمير المؤمنين هذا- وأشار إلى معاوية- فإن هلك فهذا- وأشار إلى يزيد- فمن أبى فهذا- وأشار إلى سيفه.

فقال معاوية: اجلس، فإنك سيد الخطباء.

وربما كان يدفعهم إلى ذلك التطويل المفرط، والقصر المفرط، قصد التفنن، وبيان البراعة، وإثبات قدرتهم على الوفاء في الطول من غير إملال، وعلى الإيجاز الذى يعد الأكثرون البلاغة فيه.

وليس معنى ذلك أن تطويلهم وإيجازهم لم يكن مراعى فيه مقتضى الحال، بل إن مراعاة المقام كانت ثابتة في كثير من أقوالــهم، ولكن حرصـــهم على الاشـتهار بالبراعة كان لا يقل عن حرصـــهم على ملاحظة المقام، لأن القول صار غرضا لذاته في ذلك العصر على ما بيناه آنفاً.

المأثور من الخطب

المأثور من خطب ذلك العصر كثير، ولكنه إذا أضيف إلى كثرة الخطباء، وإلى تنوع الموضوعات، واتساع أغراض القول، كان قليلا، ولعل السبب في ذلك أن الرواية كان المعول فيها على الحافظة، والنسيان قد يتطرق إليها. قال الأستاذ المرحوم المهدى (بك) : لقد نظرت في عدد الخطباء المجيدين، فوجدته يربو على عدد الشعراء، ولكن ما أثر عنهم من الخطب دون ما أثر عن الشعراء، وسبب ذلك فيما أرى أن الأمة كانت حديثة العهد بالكتابة، وكانت معتمدة على حافظتها.. على أن الذى وصل إليها ليس في نفسه قليلا، وإن قل بالإضافة إلى قائليه، فإن كثيراً من الخطباء المشهورين، لا يحفظ له إلا خطبة واحدة.

الخطباء

كثر عدد الخطباء في ذلك العصر كثرة مدهشة، وتعددت طوائفهم، واختلفت نواحيهم، ومذاهبهم الفكرية، وكان لكل حزب خطباء، ولكل فئة من الناس متكلمون.

فمن خطباء آل البيت عبد الله بن الحسن، وزيد بن على بن الحسين وكانا أقوم أهل زمانهما لسانا وحجة.

ومن خطباء الأمويين معاوية، ويزيد، وعبد الملك بن مروان، ومعاوية بن يزيد، وعمر بن عبد العزيز وزياد ابن أبيه، وهو الذى يقول فيه الشعبي: ما سمعت متكلماً على منبر قط فأحسن، إلا تمنيت أن يسكت خوفا من أن يسيء، إلا زياداً، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاما، والحجاج بن يوسف الثقفي.

ومن الخطباء الذين نازعوا بنى أمية الخلافة عبد الله بن الزبير ومصعب أخوه، وكثيرون من أسرتهما.

ومن خطباء الخوارج قطرى بن الفجاءة، وعمران بن حطان، وأبو عبيدة الأباضى، وأبو حمزة الشارى.

ومن خطباء المجالس خالد بن يزيد بن معاوية، وأيوب بن القرية وهو الذى قال للحجاج وقد خافه: أقلنى عثرتى، واسقنى ريقى، فإنه لابد للجواد من كبوة، وللسيف من نبوة، وللحليم

من حفرة. فقال له الحجاج: كلا حتى أوردك جهنم، ألست القائل: تغدوا الجدى قبل أن يتعشاكم.

ومن النساك الحسن البصرى، ومطرف بن عبد الله الحرشى، وبكر بن عبد الله المزنى، ومالك بن دينار، وكل هؤلاء قاص موجز.

وغير هؤلاء الذين ذكرناهم كثيرون جداً. وقبل أن نترك هذا الموضوع لابد أن نشير إلى طائفة من الموالى أجادوا الخطابة، كالعرب، بل ربما فاقوا كثيرين من بلغاء الخطباء، ومن هؤلاء الحسن البصرى، وقد روى أن السيدة عائشة رضى الله عنها سمعته يتكلم، فقالت: من هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين. ومنهم طارق بن زياد صاحب الخطبة المشهورة التى قالها عند غزو الأندلس، فإنه كان بربريا، ولم يكن عربيا.

نماذج من خطب هذا العصر

٣- خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح

يأهل الكوفة، أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون، وتحجون، ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني الله ذلك، وأنتم كارهون. ألا إن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته، فتحت قدمي هاتين، ولا يصلح الناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محله، وإقفال الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره، فإنه إن لم تغزوهم غزوكم.

— خطبة معاوية في المدينة المنورة

جاء في العقد الفريد: لما قدم معاوية المدينة المنورة عام الجماعة، تلقاه رجال من قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك، وأعلى كعبك. فوالله ما رد عليهم، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد، فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة. ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها على سنيات عثمان، فأبت علي، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة، مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإني خير لكم ولاية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له دبر أذني، وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه فإن السيل إذا جاء يثري، وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة.

رثاء ابن الحنفية لأخيه الحسن

لما مات الحسن بن علي رضي الله عنه، رثاه أخوه ابن الحنفية، فقال: رحمك الله أبا محمد، فلئن عزت حياتك، لقد هدت وفاتك، ولنعم الروح روح تضمنه بدنك، ولنعم الجسد

جسد تضمنه كفنك، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك، وكيف لا تكون كذلك، وأنت سليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء[1]، وخلف أهل التقوى، وجدك النبي المصطفى وأبوك علي المرتضى، وأمك فاطمة الزهراء، وعمك جعفر الطيار في جنة المأوى. وغذتك أكف الحق، وربيت في حجر الإسلام، ورضعت ثدي الإيمان، فطبت حيا وميتا. فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك، إنها غير شاكة أن قد خير لك، وأنك وأخاك سيدا شباب أهل الجنة، فعليك أبا محمد منا السلام.

خطبة زياد بن أبيه بالبصرة

جاء في البيان والتبيين: قال أبو الحسن المدائني عن مسلمة بن محارب، وعن أبي بكر الهذلي، قال: قدم زياد البصرة واليا لمعاوية بن أبي سفيان، وضم إليه خراسان، وسجستان، والفسق بالبصرة كثير فاش ظاهر، قالا: فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها. وقال غيرهما: بل قال: الحمد لله على أفضاله، وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه، اللهم، كما زدتنا نعما، فألهمنا شكرا. أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيه الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت[2] عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من ترككم الضعيف يقهر، ويؤخذ ماله!. هذه المواخير[3] المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر، والعدد غير قليل. ألم تكن منكم نهاة عن دلج الليل.[4] ؟ قربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغضون عن المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه، صنيع من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معادا، ما أنتم

---

(١) أصحاب الكساء هم فاطمة وعلي والحسن والحسين والنبي ﷺ لأن النبي ﷺ ضمهم إليه في مرط أسود عندما دعا نصارى نجران إلى مباهلته كما قال تعالى: قل تعالوا ندع أبناءنا، وأبناءكم... إلخ.

(٢) يقال طرف عينيه إذا أطبق أحد الجفنين على الآخر.

(٣) جمع ماخورة وهي بيت الزانية. فارسي معرب أو عربي مشتق من مخرت السفينة إذا ترددت في البحر، لأن الناس يترددون عليه.

(٤) الدلج: السير ليلا.

بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا[١] فى مكانس الريب. حرام على الطعام والشراب، حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا. إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين فى غير ضعف، وشدة فى غير عنف. وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصى، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه، فيقول: انج سعد، فقد هلك سعيد، أو تستقيم قناتكم. إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى، فإذا سمعتموها منى، فاغتمزوها[٢] فى، واعلموا أن عندى أمثالها. من نقب منكم عليه، فأنا ضامن لما ذهب منه. فإياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة، ويرجع إليكم، وإياى ودعوى الجاهلية فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوما غرقناه، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نقب على أحد نقبنا على قلبه، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى. ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه. وقد كانت بينى وبين أقوام إحن، فجعلت ذلك دبر أذنى، وتحت قدمى، فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته، إنى والله لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى، لم أكشف له قناعا، ولم أهتك له سترا، حتى يبدى لى صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا علىّ أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا، نذود عنكم بفىء الله الذى خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أنى مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجبا عن طالب حاجة، ولو أتانى طارقا بليل، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانه، ولا مجمرا لكم بعثا. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذى إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم، لكان شرا لكم،

---

(١) كنوسا جمع كانس. وهو المستتر، والكامن.

(٢) الاغتماز: الطعن.

أسأل الله أن يعين كلا على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى.

خطبة عبد الله بن همام السلولى يعزى يزيد فى معاوية ويهنئه بالخلافة

يا أمير المؤمنين، آجرك الله على الرزية، وبارك لك فى العطية، وأعانك على الرعية، فلقد رزئت عظيما، وأعطيت جسيما، فاشكر الله على ما أعطيت، واصبر له على ما رزئت، فقد فقدت خليفة الله، ومنحت خلافة الله، ففارقت جليلا، ووهبت جزيلا، إذ قضى معاوية نحبه، فغفر الله ذنبه، ووليت الرياسة، فأعطيت السياسة، فأوردك الله موارد السرور، ووفقك لصالح الأمور. وأنشد:

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة	واشكر حباء الذى بالملك أصفاكا
لا رزء أصبح فى الأقوام نعلمه	كما رزئت ولا عقبى كعقباكا
أصبحت والى أمر الناس كلهم	فأنت ترعاهم والله يرعاكا
وفى معاوية الباقى لنا خلف	إذا نعيت، ولا نسمع بمنعاكا

خطبة عبد الله بن عباس ينهى الحسين عن الخروج إلى العراق

قال ابن عباس ينهى الحسين عن الخروج إلى العراق: يابن عم، إنى أتصبر، ولا أصبر، وإنى أتخوف عليك من هذا الوجه الهلاك والاستئصال، إن أهل العراق قوم غدر[1]، فلا تقربنهم، أقم بهذا البلد، فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا، فاكتب إليهم، فلينفوا عدوهم، ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلا أن تخرج، فسر إلى اليمن، فإن بها حصونا وشعابا[2]، وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة. وأنت عن الناس بعزلة، فتكتب إلى الناس، وترسل، وتبث دعاتك، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية.

---

(١) جمع غدور كصبور. (٢) الشعاب جمع شعب وهو الطريق فى الجبل.

خطبة الحسين رضى الله عنه
وقد أحس بغدر أهل العراق

أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال:

«من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله ﷺ، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله».

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيره، وقد أتتنى كتبكم، وقدمت على رسلكم ببيعكم، ألا تسلمونى ولا تخذلونى، فإن تممتم على بيعتكم، تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن على، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسى مع أنفسكم، وأهلى مع أهليكم، فلكم فىّ أسوة، وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتى من أعناقكم، فلعمرى ما هى لكم بنكر. لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم، والمغرور من اغتر بكم،فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغنى الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خطبة المسيب بن نجبة الفزارى
يعلن التوبة عن التقصير فى نصرة الحسين

حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبى ﷺ، ثم قال:

أما بعد فإنا قد ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غدا، أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير، فإن أمير المؤمنين قال: العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا، وتقريظ شيعتنا، حتى بلا الله أخيارنا فوجدنا كاذبين فى موطنين من مواطن ابن ابنة نبينا ﷺ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه، وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا يسألنا نصره، عودا وبدءا، وعلانية، وسرا، فبخلنا عنه بأنفسنا، حتى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألسنتنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا

إلى ربنا، وعند لقاء نبينا ﷺ، وقد قتل ولده وحبيبه وذريته ونسله، لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله، والموالين عليه، أو تقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن.

أيها القوم، ولوا عليكم رجلا منكم، فإنه لابد لكم من أمير تفزعون إليه، وراية تحفون بها، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

خطبة عبد الملك بن مروان في العراق

دخل الكوفة بعد أن قتل مصعب بن الزبير، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: أيها الناس إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرة، وقد زبنتنا[1] الحرب، وزبناها، فعرفناها، وألفناها، فنحن بنوها، وهي أمنا. أيها الناس، فاستقيموا على سبيل الهدى، ودعوا الأهواء المردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين، وأنتم لا تعملون أعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم، إلا عقوبة، فمن شاء منكم أن يعود لمثلها، فليعد، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة:

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة ... يصل بنار كريم غير غدار

أنا النذير لكم مني مجاهرة ... كيلا ألام على نهيي وإنذار

فإن عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا ... أن سوف تلقون خزيا ظاهر العار

★ خطبة الحجاج حين قتل عبد الله بن الزبير

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ارتجت مكة المكرمة بالبكاء، فصعد المنبر، فقال:

ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانعا للعصاة، لمنع آدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته؛ فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته؛ وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة.

(١) زبنه معناها دفعه، وحرب زبون يعني يدفع بعضها بعضا.

خطبة له أخرى في أهل العراق وأهل الشام

يا أهل الكوفة، إن الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف، أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم، زعمتم أني ساحر، وقد قال الله تعالى: ﴿ولا يفلح الساحر﴾ وقد أفلحت، وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر، فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: لأزواجكم أطيب من المسك، ولأبناؤكم آنس بالقلب من الولد، وما أنتم إلا كما قال أخو ذبيان:

إذا حاولت في أسد فجورا فإني لست منك ولست مني

هم درعي التي استلأمت فيها إلى يوم النسار وهم مجني

ثم قال: بل أنتم يا أهل الشام كما قال الله سبحانه: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون﴾.

خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

خطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال: أيها الناس، لا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، ولا يستعتب من شيء، ولا يزيد في حسن، ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإني أعالج أمرا لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وأفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينا لا يرون الحق غيره. ثم قال: إنه لحبيب إلي أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها، ولا قوة إلا بالله.

خطبة لقطري بن الفجاءة

أما بعد.. فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم نضرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرارة

ضرارة، وحائلة زائلة، ونافدة بائدة. لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، والرضا عنها، أن تكون كما قال الله عز وجل.

﴿ كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيما تذروه الرياح، وكان الله على كل شئ مقتدرا ﴾.

مع أن امرءا لم يكن منها في حبرة[١]، إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرائها بطنا، إلا منحته من ضرائها ظهرا، ولم تطله منها ديمة رخاء، إلا هطلت عليه مزنة بلاء. وحرية إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى، أمر عليه جانب فأوبأ، وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعماء، أرهقته من نوائبها غما، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن، إلا أصبح منها في قوادم[٢] خوف، غرارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها، لا خير في شئ من زادها إلا التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه[٣]، كم واثق بها قد فجعته، وذى طمأنينة إليها قد صرعته، وكم من مختال بها قد خدعته، وكم ذى أبهة قد صيرته حقيرا، وذى نخوة قد ردته ذليلا، وذى تاج قد كبته[٤] لليدين والفم. سلطانها دول، وعيشتها رنق[٥]، وعذبها أجاج[٦]، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام[٧]، وأسبابها رمام، وقطافها سلع[٨]، حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اهتضام، مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب. وجامعها[٩] محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت وزفراته، وهول المطلع، والوقوف بين يدى الحكم العدل **﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾** ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول منكم أعمارا، وأوضح منكم آثارا، وأعد عديدا، وأكثف جنودا، وأعتد عتادا[١٠]، وأطول عمادا، تعبدوها أى تعبد، وآثروها أى إيثار، وظعنوا عنها بالكره والصغار. فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية، وأغنت عنهم مما قد أملتهم به، بل أرهقتهم بالفوادح، وضعضعتهم بالنوائب، وعفرتهم للمناخر، وأعانت عليهم ريب المنون، وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها وآثرها،

---

(١) أثر نعمه وحسن. (٢) قوادم الطير الريش الذى فى مقدمته، والمراد هنا مظاهر الخوف.

(٣) يوبقه يهلكه. (٤) كبه صرعه أو رماه فى هوة. (٥) رنق كدر.

(٦) الماء الأجاج المليح المر. (٧) السمام جمع سم.

(٨) القطاف اسم لما يقطف من عنب أو نحوه، والسلع بفتح اللام شجر مر أو الصبر أو سم.

(٩) المحروب المسلوب. (١٠) العتاد ما يعد به في الحياة من مال وسلاح وقوة.

وأخلد إليها، حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد، إلى آخر الأمد، هل زودتهم إلا الشقاء، وأحلتهم إلا الضنك، أو نورت لهم إلا الظلمة، وأعقبتهم إلا الندامة، أفهذه تؤثرون، أو على هذه تحرصون، أو إليها تطمئنون، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا يعملون** ﴾.

فبئست الدار لمن لم يتهمها. ولم يكن فيها على وجل منها، فاعلموا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لابد، فإنما هي كما نعت الله عز وجل لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، فاتعظوا فيها بالذين يبنون بكل ريع آية، وبالذين قالوا من أشد منا قوة، واتعظوا بمن رأيتم من إخوانكم، كيف حملوا إلى قبورهم، فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا، فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الضريح أكنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعيا، ولا يمنعون ضيما، يزارون ولا يستزارون، حلماء قد ذهبت أضغانهم، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجعهم، ولا يرجى دمعهم، وهم كمن لم يكن، قال الله تعالى: ﴿ **فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا، وكنا نحن الوارثين** ﴾، استبدلوا بظهر الأرض بطنا، وبالسعة ضيقا، وبالآل غربة، وبالنور ظلمة، فجاءوها حفاة عراة فرادى، وظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة إلى خلود الأبد، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا، إنا كنا فاعلين** ﴾، فاحذروا ما حذركم الله، وانتفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله، عصمنا الله وإياكم بطاعته، ورزقنا وإياكم أداء حقه.

خطبة أبي حمزة الشاري بمكة المكرمة

جاء في كتاب البيان والتبيين: دخل أبو حمزة الخارجي مكة المكرمة، وهو أحد نساك الأباضية، وخطبائهم، واسمه يحيى المختار- فصعد المنبر متوكئا على قوس له عربية، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان لا يتأخر، ولا يتقدم، إلا بإذن الله، وأمره ووحيه، أنزل الله له كتابا، بين له فيه ما يأتي، وما يتقي، فلم يكن في شك من دينه، ولا شبهة في أمره. ثم قبضه الله إليه، وقد علم المسلمين معالم دينهم، وولى أبا بكر صلاتهم، فولاه المسلمون أمر دنياهم، حين ولاه رسول الله ﷺ أمر دينهم، فقاتل أهل الردة، وعمل بالكتاب

والسنة، فمضى لسبيله رضي الله عنه. ثم ولي عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فسار بسيرة صاحبيه، وعمل بالكتاب والسنة، وجبى الفيء، وفرض الأعطية، وجمع الناس في شهر رمضان، وجلد في الخمر ثمانين، وغزا العدو في بلادهم، ومضى لسبيله رضي الله عنه، ثم ولي عثمان بن عفان، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه، وكان دونهما، ثم سار في الست الأواخر بما أحبط به الأوائل، ثم مضى لسبيله رضي الله عنه. ثم ولي علي بن أبي طالب فلم يبلغ من الحق قصدا، ولم يرفع له منارا، ثم مضى لسبيله رضي الله عنه، ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله، وابن لعينه، اتخذ عباد الله خولا[١] ومال الله دولا[٢] ودين الله دغلا[٣] ثم مضى لسبيله، فالعنوه، لعنه الله. ثم ولي يزيد بن معاوية، يزيد الخمور، ويزيد القرود، ويزيد الفهود، الفاسق في بطنه..... ثم اقتصهم خليفة خليفة فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه، ولم يذكره، ثم قال: ثم ولي يزيد بن عبد الملك الفاسق في بطنه....... الذي لم يؤنس منه رشد، وقد قال تعالى في أموال اليتامى، ﴿ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ فأمر أمة محمد أعظم. يأكل الحرام، ويشرب الخمر، ويلبس الحلة قومت بألف دينار، قد ضربت فيها الأبشار، وهتكت فيها الأستار، وأخذت من غير حلها، حبابة[٤] عن يمينه، وسلامة عن يساره تغنيانه، حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قدّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما، فقال: «ألا أطير» نعم فطر إلى لعنة الله، وحريق ناره، وأليم عذابه.

وأما بنو أمية ففرقة ضلالة، وبطشهم بطش جبرية، يأخذون بالظنة، ويقضون بالهوى ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، ويأخذون الفريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها، وقد بين الله أهلها، فجعلهم ثمانية أصناف، فقال سبحانه: ﴿إنما الصدقات للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين وفي سبيل الله، وابن السبيل﴾. فأقبل صنف تاسع ليس منها، فأخذها كلها تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله.

وأما هذه الشيع فشيع ظاهرت بكتاب الله، وأعلنت الفرية على الله، لم يفارقوا الناس ببصر نافذ في الدين، ولا بعلم نافذ في القرآن الكريم، ينقمون المعصية على أهلها، ويعملون إذا ولوا بها، يصرون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها، جفاة عن القرآن الكريم، أتباع كهان، يؤملون ألا تبعث الموتى، ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا، قلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم، قاتلهم

---

(١) عبيدا. (٢) جمع دولة وهي ما يتداول من المال.

(٣) الدغل ما فيه فساد. (٤) حبابة وسلامة قينتان كان يحبهما.

الله، أنى يؤفكون، ثم أقبل على أهل الحجاز، فقال: يا أهل الحجاز، أتعيروننى بأصحابى، وتزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا، أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم، شباب والله مكتهلون فى شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء[1] عبادة، وأطلاح[2] سهر، فنظر الله إليهم فى جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن الكريم، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه، وصل كلالهم[3] بكلالهم، كلال الليل بكلال النهار، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت[4] والرماح قد أشرعت[5]، والسيوف قد انتضيت[6]، ورعدت الكتيبة بصواعق من الموت وبرقت، استخفوا بوعيد الكتيبة، لوعيد الله، ومضى الشباب منهم قدما[7]، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت إليه طير السماء، فكم من عين فى مناقير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله، ثم قال: «أوه أوه أوه» ثم بكى ثم نزل.

خطبة للحسن البصرى

خرج الحسن البصرى يوما على أصحابه، وهم مجتمعون، فقال: والله لو أن رجلا منكم أدرك من أدركت من القرن الأول، ورأى من رأيت من السلف الصالح، لأصبح مهموما، وأمسى مغموما، وعلم أن الجد منكم كاللاعب، والمجتهد كالتارك، ولو كنت راضيا عن نفسى لوعظتكم، ولكن الله يعلم أنى غير راض عنها، ولذا أبغضتها وأبغضتكم.

---

(١) جمع نضو وهو المضعف من التعب.

(٢) جمع طلح وهو المهزول.

(٣) الكلال التعب.

(٤) فوّق السهم جعل له فوقا وهو ما يضع منه فى القوس.

(٥) رفعت ووجهت وجهة العدو.

(٦) قد سلت.

(٧) مضى قدما معناها مضى إلى الحرب.

أيها الناس، إن لله عبادا قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا الأيام القلائل، لما رجوه في الدهور الأطاول. أما الليل فقائمون على أقدامهم، يتضرعون إلى ربهم، ويسعون في فكاك رقابهم، تجرى من الخشية دموعهم، وتخفق من الخوف قلوبهم، وأما النهار فحلماء أتقياء أخفياء، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تخالهم من الخشية مرضى، وما بهم من مرض، ولكنهم خصصوا بذكر النار وأهوالها. لهم والله كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم، وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم، منكم لدنياكم بأبصاركم، ولهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم: ﴿ أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾.

الخطابة في المائة الأولى

من العصر العباسي

تمهيد:

اشتد إيذاء الأمويين لآل البيت الأطهار، وكثر القتل الذريع فيهم، وفي أنصارهم، وكان بجوار ذلك الإيذاء تعصب للعرب والعروبة فأحنق ذلك الفرس وغيرهم، فوجد آل البيت السبيل للانقضاض عليهم ممهداً، إذ قد مل الناس مظالمهم، ونفروا من حكمهم، لما شاع من قالة السوء عنهم، ثم وجد الفرس المنتقمون لجنسيتهم مبررا للخروج وهو الانتصار لأهل البيت، بينما وجد هؤلاء فيهم نصراء لهم يناضلونهم في اللأواء، ويؤازرونهم في الشديدة، فحصروا دعوتهم فيهم، لذا دبر العباسيون الأمر في وسط فارس، وبيتوا مكرهم، وأخفوا تدبيرهم حتى لاحت لهم الفرصة، فانتهزوها، وأبعدوا الأمويين عن عرش المسلمين، وتولوه هم باعتبار أنهم أقرباء إلى النبي ﷺ الأدنون، وورثته المستحقون للخلافة من بعده، ولم يكد الأمر يستقر لهم، حتى انتقض عليهم أبناء علي رضي الله عنهم، لأنهم أصحاب البلاء، وأهل الجلاد، والنضال، ولأن العباسيين وصلوا إلى الحكم على كواهلهم، وابتزوه منهم، اشتد النضال بالكلام وبالسيف بين الفريقين المتناحرين كل يدعو الناس إلى تأييده، ويبرهن على صدق دعواه بما يستطيع من بيان، ويدلي بما عنده من دليل. وقد شغل ذلك النضال أكثر مدة أبي جعفر المنصور، حتى تم له الانتصار عليهم بالسيف، وأهواء كثيرين من أنصاره معهم.

وقد كان العباسيون يسيئون الظن بالعرب، لأنهم أنصار الأمويين، شديدي الثقة بالفرس، لأنهم أنصارهم ومقيمو دولتهم، ولذلك كان كبار القواد والزعماء والوزراء والنابهين في الدولة منهم، وقد انتهزها الفرس لنشر سلطانهم، وإحياء قديم مجدهم، ونشر المقبور من آدابهم وأفكارهم. ولذلك أخذت العادات الفارسية تصبغ الحياة الإسلامية بصبغتها، وأخذت الأفكار الفارسية تتورد على الذهن الإسلامي، وتسيطر على البيئة الفكرية، وانتشرت بين المسلمين حكمهم، وكثير من معلوماتهم، لأنهم كانوا أقوياء بذلك السلطان وأقوياء بآمالهم في إحياء دارس حضارتهم، وكانوا أقوياء بحضارتهم القديمة وميراثهم الفكري الذي ورثوه عن أسلافهم.

والفكر الفارسي الذي أثر في الحياة الإسلامية ذلك التأثير كان يحمل معه ثمرات من الفكر اليوناني، فإن الفلسفة اليونانية كانت منتشرة في بلاد فارس قبيل الإسلام. وقد كان هذا وغيره سببا في كثرة العلوم الفلسفية، وانتشارها بين المسلمين، وكانت تعقد المناظرات والمناقشات في كل مكان، وكثير منها كان يعقد في مجالس بعض الخلفاء، كالمأمون الذي كان معجبا بالفلسفة اليونانية وغيرها، بل كان هو يعد فيلسوفا حكيما ذا رأي وسط معتلج الآراء، ومتناحر الأفكار. وقد كانت هذه المناظرات موضوع سبق الجيدين للقول، فيها يتبارون في البيان وروعته، ويتسابقون في المعاني وإحكامها؛ ولذلك أخذت المناظرات تحل محل الخطابة على ما سنبين إن شاء الله تعالى في عوامل انحطاط الخطابة.

موضوعات الخطابة ودواعيها في ذلك العصر

يتشابه صدر الدولة العباسية مع صدر الدولة الأموية ووسطها في بعض الوجوه، لأن كلتا الدولتين نشأت في وسط فتنة هوجاء، كثيرة العنف قوية الأثر، شديدة اللجب، ولأن كلتيهما ما تكاد أن تستقر حتى يخرج الخارجون من كل ناحية، ولهدد الدولة بالتمزيق، والوحدة بالانقسام والخلفاء الأوائل في كلتا الدولتين، كانوا ذوي بيان ولسن، القول البليغ عدتهم وذخيرتهم. ولهذا التشابه كانت الخطابة رائجة في صدر الدولة العباسية، كما كانت رائجة في صدر الدولة الأموية ووسطها، وكانت موضوعات الخطابة في الدولتين متقاربة، ودواعيها متشابهة.

ومن الدواعي للخطابة في العصر العباسي:

الدعوة العباسية:

قامت الدعوة العباسية على إثبات حق آل البيت رضوان الله عليهم في الخلافة، وأنهم أولى الناس بها، لقرابتهم من رسول الله ﷺ، ولأنهم صفوة قريش المختارة، ولأن الله سبحانه اختصهم بفضل ليس في غيرهم، قامت دعوة بني العباس على ذلك، وعلى بيان مظالم الأمويين، واعتسافهم، وما ارتكبوه من مآثم في أول عهدهم وآخره، وما انتهكوه من حرمات، وما أباحوه من دم آل النبي ﷺ، إذ قتلوا الحسين أولا قتلة فاجرة. وقتلوا أحفاده زيد بن علي ويحيى ابنه، وقتلوا إبراهيم الإمام آخرا.

وذلك كله ببيان رائع، وخطب قيمة، وقول بارع، وبلاغة واصلة إلى أعماق النفوس، مثيرة نقمة الناس عليهم، وحافزة الأنصار على الانتقام منهم، لذلك كانت الدعوة العباسية موضوعا من موضوعات القول، وداعيا من أعظم دواعيه، واقرأ خطب داوود بن علي وغيره من خطباء العباسيين تر ذلك واضحا كل الوضوح.

بيان سياستهم:

لما تم الأمر لبني العباس، كانوا يعلنون سياستهم على المنابر، ليوازن الناس بين حكمهم وحكم الأمويين، وقد كان بعضهم يحاول أن ينهج في ذلك منهج الخلفاء الراشدين، بحسن الخطة، ويبين أنه يقيم الحدود، وينفذ أحكام الله تعالى، ويعلن سلطانه، وانظر إلى قول السفاح في بعض خطبه: والله لا أعدكم إلا وفيت بالوعد والوعيد، ولأعملن اللين، حتى لا تنفع إلا الشدة، ولأغمدن السيف إلا في إقامة حد، أو بلوغ حق، ولأعطينكم حتى أرى العطية ضياعا.

وانظر أيضاً إلى قول داوود بن علي: لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول ﷺ، وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ.

انظر إلى هذا وذاك تر أن هذين الخطيبين يحاولان أن ينهجا في خطبهما منهج الخلفاء الراشدين، وإن كان العمل بنأى عن عملهم، وكذلك كانت خطب كثيرين منهم، وقد كان الخلفاء يحاولون أن يتصلوا بالعامة، ويذكروهم العهود، كلما جد أمر، أو حدث شأن من الشئون، كما فعل أبو جعفر عند مقتل محمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالنفس الزكية، وعند مقتل أبي مسلم الخراساني، وترى من كل هذا أن اتصال الخلفاء بالشعب، والعمل على إعلان سياستهم، كان داعيا من دواعي الخطابة، وموضوعا من موضوعاتها.

الفتن:

قامت الدولة العباسية في وسط فتن كثيرة، ولم تنته بقيامهم، بل رأى أبناء عمهم العلويون أنهم اغتصبوا الأمر منهم، وابتزوه ابتزازاً دونهم. وهم الأولى لسابقتهم، وقديم بلائهم، وسالف جهادهم، وأن الشيعة التي ناصرت، وأقامت ملك العباسيين شيعتهم، وأن أولئك استخدموا مجدهم، وبنوا عليه ما أرادوا، واستبدوا به دونهم، لذلك شغلوا الدولة بخروجهم

وتقدموا بشرفهم التليد، وحاضرهم العظيم، ودعوا لأنفسهم. ورد عليهم المنصور بخطب قد ملأها بالأدلة التي تثبت حق العباسيين، والبراهين على صدق دعواهم، وإبطال دعاوى خصومهم من بني عمهم، وكان ذلك الخروج حافزا للبيان، وموضوعا من موضوعاته.

ولم يكن الخروج مقصورا على العلويين، بل خرج في عهد المهدى المقنع الخراساني، فشاور المهدى أهل بيته، فكانت تلك المشاورة ميدانا واسعاً للبيان الجيد، والقول المبين، وقد جاءت مفصلة في العقد الفريد، فارجع إليها.

وكانت بعد ذلك- الفتنة بين الأمين والمأمون، وفيها وجدت الخطابة مرتعا خصيبا، وترى من هذا أن الفتن التي ادلهمت في ذلك العصر، واتسع نطاقها، وتوالت أحداثها، كانت كشأنها في كل العصور عاملا من عوامل نهوض الخطابة، وموضوعا من موضوعاتها.

الوفادة:

كان يفد على الخلفاء والأمراء، وفود في ذلك العصر كما كان الشأن في العصر الأموي، وإن كان ذلك أقل، وقد كانوا يتبادلون الخطب، ومن ذلك وفد أهل الشام على المنصور بعد استقامتهم إذ جاءوا إليه يعتذرون، وكانت تلقى الخطابة في موضوع تلك الوفادات فكانت الوفادة داعيا من دواعي الخطابة: وموضوعا من موضوعاتها.

المجالس:

كانت المجالس تعقد، ويتسابق أصحاب اللسن والبيان في الإجادة، وكثيراً ما كانت تلك المجالس مكان مناقشات علمية، وكلامية ودينية وتناحر مذاهب، تستخدم فيها كل أساليب الخطابة الرائعة،من محاولة تأثير، واجتذاب إلى فكرة، وقد كان أولو السبق في تلك المجالس المعتزلة أصحاب الكلام، إذ هم أهل السبق في فنون البيان من بين الفرق الدينية،وامتاز من بينهم بالإجادة والفصاحة عمرو بن عبيد، وبشر بن المعتمر، وأبو الهذيل، والنظام، وكثيراً ما كانت مباريات هؤلاء الكلامية، في مناقشة أصحاب المبادئ الهادمة للأديان.

الوعظ الديني:

وقد كان الوعظ الديني هدفا يرمي إليه الخطباء ومقصدا يقصدونه، وكثيراً ما كان يجري ذلك الوعظ على ألسنة الخلفاء أنفسهم، لما يعتقدونه في أنفسهم من أنهم قادة الأمة في

دينهم، وعباداتهم في معرفة أمر ربهم، واستمع إلى قول المنصور يرد على من اعترض عليه في خطبته يذكره الله قائلا: أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به، فقد قال أبو جعفر في كلام: وإياك وإياكم معشر الناس وأختها، فإن الحكمة علينا نزلت وعندنا فصلت، فردوا الأمر إلى أهله، توردوه موارده، وتصدروه مصادره. ألا ترى من هذا الرد أن خلفاء بني العباس يضعون أنفسهم موضع المرشدين القادة في الدين والدنيا جميعا، ويزعمون أنهم أعلم الناس بأمور الدين، فلا عجب بعد ذلك إذا كان الوعظ الديني قد راج على ألسنتهم، وقد ورد في كثير من خطب الرشيد، والمأمون وعظ ديني ممتاز.

ولم يكن الوعظ مقصورا على الخلفاء كما أشرنا، بل كان منهم ومن غيرهم، لأنه مبدأ ديني مسلم فرض في صلاة الجمعة والحج والعيدين، وكان شريعة عامة تجب على كل مسلم ما استطاع اليه سبيلا، بمقتضى إلزام المسلمين جميعاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل بما يستطيعه، ولذا كان الوعظ الديني غرضا خطابيا للخطابة في كل عصورها الإسلامية.

ألفاظ الخطابة ومعانيها وأسلوبها

كانت الخطابة في الجملة في ألفاظها، وأساليبها، ومعانيها تقارب الخطابة في العصر الأموي، لتشابه الشئون التي دفعت الألسنة إلى البيان، وما بينهما من فرق سببه تباعد الزمن، واتساع نطاق الحضارة، واستبحار المعارف، وكثرة العلوم، وتدوينها تلك الأمور التي امتاز بها العصر العباسي.

الألفاظ:

الألفاظ في ذلك العصر كانت تشابه ألفاظ الخطابة في العصر الأموي وصدر الإسلام، ولكنها قد زادت عذوبة، مع الفخامة والقوة أحيانا، والسبب في ذلك أن الحضارة قد تمكنت من النفس العربية، وتغلغلت في ثناياها، فسهلتها وألانتها، ولم يعد للصحراء أثر قوي في نفوس خطبائهم، فكانت الألفاظ مؤائمة لما صدرت عنه، ومطابقة لما اقتضاها.

المعاني:

والمعاني تقارب المعاني في العصر الأموي، ولكنها زادت عليها في أمور منها:

١ – زيادة المبالغة والتهويل، خصوصاً فيما يتعلق بمنصب الخلافة ومنزلة الخلفاء وذلك لما كانوا يذكرونه من نسبتهم إلى النبي ﷺ وأنها مناط العزة وسبب الرفعة، ويبالغون فيما ينبني على ذلك النسب من استحقاق للاستعلاء، ولأن المبالغة تسود حيث تكثر صناعة الكلام، ومحاولة إجادته، وذلك كان قائماً عندما كان للخطابة سوق رائجة.

٢ – زيادة التفنن في المعاني والبحث عن دقيقها، والغوص وراء عميقها، وذلك لكثرة الترجمة، وسيادة البحوث العلمية، فقد كان الخطباء ينالون من ثمرات الترجمة الذهنية التي تخدمهم في أغراضهم البيانية، فإذا استطاعوا أن يقبسوا مما ترجم ابن المقفع وأمثاله من حكم، قبسوه وحلوا به خطبهم، وربما حاكى بعضهم ذلك النهج في خطبه، فبدت عميقة الفكرة، محكمة المعنى، انظر إلى قول المأمون في بعض خطبه في الوعظ: «واعلموا أن الدنيا ليست بدار، فاستبدلوا، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار، إلا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة، لجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة، وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة، فاتقى عبد ربه، ونصح نفسه، وقدم توبته، وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به. فإنك ترى في الكلام روح الفلسفة ودقتها، وعمقها، وحكمتها.

٣ – كثرة المعاني الدينية:

فقد كثرت هذه المعاني على ألسنة الخطباء، خصوصاً الخلفاء، لأنهم ولوا إلى الخلافة باسم الدين، لقرابتهم من النبي الكريم، وبتهويلهم في مظالم الأمويين، وخروجهم عن جادة العدل، فطبعي أن تكون خطب الخلفاء منهم تنحو منحى دينياً إذ يؤيدون بالدين دعوتهم، ويدافعون عن أعمالهم بوصلها به، وبيان أنها صادرة عنه، وواردة إليه، واقرأ خطباء صدر هذه الدولة، تر ذلك واضحاً كل الوضوح، ومن ذلك قول أبي جعفر المنصور في إحدى خطبه: أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وتأييده، وأنا خازنه على فيئه، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه، قد جعلني الله عليكم قفلا، إن شاء أن يفتحني لأعطياتكم، وقسم فيئكم، فتحني، وإن شاء أن يقفلني أقفلني.

وقد كانت المعاني تهديدية عنيفة في بعض الأحيان، وذلك عند خطاب قوم يتوقع الخليفة انتقاضهم، أو لم يتعود نصرتهم، بل عودوه الحرب والخصام، كشأن أهل الشام، ففي خطاب هؤلاء نرى الخطابة الحجاجية على أتم ظهورها ووضوحها.

الأساليب:

وكانت الأساليب أيضاً تقارب في جملتها أساليب الخطابة الأموية، ففيها كان الاستشهاد بالقرآن الكريم، والاقتباس من آيه، والاستشهاد بالشعر العربي المناسب ولكن زادت في أمور منها:

١ – المبالغة في تنسيق الخطبة، وإحكام تقسيمها، حتى أن بعضهم كان يضمن مقدمته إشارة إلى موضوعها، وذلك لأن الخطابة أخذت تصير علماً له قواعد وأصول، وعني بعض الناس بنشر بعض أصولها، وتعليم قواعدها. وقد ذكرنا لك آنفاً ما كان بين بشر بن المعتمر، وإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني من حديث، وهو يدل الدلالة كلها على أن الخطابة قد صارت قواعد تلقن، وعلماً يدرس، ويتبع ذلك حتماً أن يأخذ الخطباء أنفسهم بأن تكون خطبهم موافقة لقواعد النقد التي كانت مقاييس، وموازين لوضع الخطب في مواضعها الأدبية.

٢ – وكثرة الكلام ذي الفقرات القصيرة المختومة بكلمات ذات رنين قوي، تذهب أصداؤه في النفس، فتستولي عليها. وفي الحق إن الكلام الخطابي كان فيه المرسل، وكان فيه الكلام المزدوج المقسم إلى فقرات قصيرة، وكان فيه السجع، ولكن المرسل كان أقلها، والمزدوج أكثرها، والسبب في قلة الإرسال في هذا العصر عن سابقه، أن إعداد القول قد كثر، وحيث كان ذلك، قل الكلام المرسل، ولكثرة الخطباء من الموالي، وهؤلاء من دأبهم محاولة التحسين والتكلف، ليعوضوا به ما نقصته سليقتهم اللغوية.

الإيجاز والإطناب

كان في خطب هذا العصر الخطب الطويلة، والخطب القصيرة، وكان لكل مقام ما يقتضيه، ولكنهم كانوا إلى الطول أميل، يختارون مواضع البسط والإطناب، ويكررون المعنى الواحد بعبارات مختلفة الألفاظ والأساليب، مرة بالاستفهام، وأخرى بالتقرير، وأخرى بالنفي،

ويحاولون بذلك أن يثبتوا المعاني في نفوس سامعيهم، ليكون الغرض بعيد الغور، فيثمر أطيب الثمرات، وأدناها جنى، وهم في ميلهم إلى الطويل من الكلام دون قصيره يشبهون بني أمية، وينهجون نهجهم، وسنرى نموذجا من خطبهم بنوعيها إن شاء الله.

أسباب قوة الخطابة في ذلك العصر وأسباب ضعفها

قويت الخطابة في صدر الدولة العباسية، وضاهأت صدر الدولة الأموية في علوها وارتفاع شأنها، وذلك:

١- لأن الدولة أحيطت بنطاق من الفتن والثورات والخروج على حكامها، فكانت الحاجة ماسة إلى الخطب الرائعة، يدافع الخلفاء بها عن أنفسهم، ويدعون الناس إلى البقاء على تأييدهم، ومقاومة خصومهم،وليذيدوا عن حياضهم، وليلحنوا بالحجة على مخالفيهم، والفتن دائما تحرك الألسنة، وتدفعها إلى القول، إذ يلتبس الحق بالباطل ويكون الغلب لمن هو أقوى بيانا، وأسبق خصاما، وقد سبق بيان ذلك كثيراً.

٢- والخلفاء في صدر الدولة كانوا أولي الأمر والنهي، وقد كانوا من بني هاشم الذين اشتهروا بالفصاحة واللسن، وقوة الحجة،سلفهم وخلفهم في ذلك سواء، سئل سعيد بن المسيب: من أبلغ الناس؟ فقال: رسول الله ﷺ. فقال السائل: إنما أعني من دونه. فقال: معاوية وابنه، وإن ابن الزبير لحسن الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح. فقال له الرجل: فأين أنت من علي وابنه، وابن عباس وابنه؟ فقال: إنما عنيت من تقاربت أشكالهم، وتلاقت أحوالهم، وكانوا كسهام الجعبة، وبنو هاشم أعلام الأنام، وحكام الإسلام.

وقد ظهرت مواهب بني العباس الخطابية في صدر دولتهم، وإبان سطوتهم. قال الجاحظ في بيان مقدرتهم البيانية:

وجماعة من ولد العباس في عصر واحد، لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي، وفي الكمال والجلالة، وفي العلم بقريش والدولة، وبرجال الدولة، مع البيان العجيب، والغور البعيد، والنفوس الشريفة، والأقدار الرفيعة، وكانوا فوق الخطباء، وفوق أصحاب الأخبار، وكانوا يجلون عن هذه الأسماء، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك، منهم عبد الملك بن صالح،

وسأله الرشيد، وسليمان بن جعفر وعيسى بن جعفر شاهدان، فقال له: كيف رأيت أرض كذا وكذا؟ فقال: مسافي[1] ريح، ومنابت[2] شيح. قال: فأرض كذا وكذا؟ قال: هضاب حمر، وبراث[3] عفر، حتى أتى على جميع ما أراد. ثم قال عيسى لسليمان: «والله ما ينبغي لنا أن نرتضي لأنفسنا بالدون من الكلام».

ونرى من هنا كيف كانت منزلة هؤلاء من البيان، وقد كانت الخطابة قوية ناهضة، ما كان السلطان في الدولة للخلفاء أنفسهم.

٣- وقد كانت جمهرة الأمة في صدر الدولة ممن يقيمها القول البليغ ويقعدها، يفقهون مرامي العبارات، ومرامي الكلام، فكان من حالهم مشجع للخطباء على القول، فلما حالت الحال، وغلبت العجمة وماتت النعرة العربية أو خبت، لم يكن من القوم من يحسن الاستماع ولا من الزعماء من يجيد البيان.

وقد أخذت الخطابة في الضعف بعد المائة الأولى من حكم العباسيين وتضافرت أمور في إضعافها، ومن أعظمها أثرا، وأبينها شأنا:

١- إن الدواعي إلى القول، قد ضعفت، فقد ثبتت دعائم الدولة، وقامت أركانها وقل الخروج عليها، إذ قضوا، أو كادوا يقضون على أبناء عمهم العلويين في الشرق، وقل خلاف العباسيين فيما بينهم، فذهب بسبب ذلك السكون أعظم دواعي الخطابة، وإذا ضعف الداعي إلى الخطابة، وقلت الحاجة إليها، ضعف أمرها، وهان شأنها.

٢- وأن الجند وهم حماة الدولة غلبت عليهم العجمة، إذ كان العباسيون يستعينون في حماية دولتهم، بالفرس والترك، وهؤلاء لا يثيرهم القول العربي البليغ، وإنما تثيرهم عصبياتهم الجنسية التي كان لها السلطان الأكبر في ذلك العصر، إذ حلت محل العصبيات القبلية عند العرب، فذهبت بذلك الخطابة في الجند حثا لهم على الجهاد، أو إيقاظا للإيثار والتقوى في نفوسهم، أو لإلقاء الحمية في قلوبهم. فذهب من الخطابة داع من أعظم دواعيها، وموضوع من أكثر موضوعاتها.

---

(١) المسافي جمع مسفى وهو اسم مكان من سفى يسفي بمعنى ذرا يذرو.

(٢) الشيح اسم لنبت، والكلام كله كناية عن الجدب والمحل وأن لا زرع إلا الشيح.

(٣) البراث الأرض السهلة اللينة وعفر جمع عفراء وهي الأرض البيضاء التي لم توطأ.

٣- ضعف أمر العرب، وذهاب سلطانهم، وضياع نفوذهم، حتى كادوا ينحازون إلى صحرائهم لا يعدونها، وبضعف العرب، وهم أهل الفصاحة والبيان واللسن والارتجال ضعفت الخطابة، لأنهم أقدر الناس عليها، إذ ليس المتعرب كالعربي، ولا الكسبي كالطبعي، ولا الملقن كالسلقي.

٤- وأن الكتابة قد حلت محل الخطابة، فقد اتسعت موضوعاتها وتعددت أغراضها حتى صار الخليفة أو الوالي أو القائد إذا أراد أن يدعو من هم تحت إمرته إلى شيء، أناب كتابه عن خطابه، فأرسل إليهم كتابا يقرأ، ويرجع إليه آنا بعد آن، وبذلك استغنى عن الخطابة في أخص موضوعاتها.

٥- وقعود الخلفاء عن الخطابة، وإنابة غيرهم منابهم في الصلاة بالناس، فاستهان الناس بمواقف الخطابة تقليدا لخلفائهم، ومحاكاة لأمرائهم، والناس لملوكهم تبع، وقد تبع استهانة الناس بالخطابة استهانتهم بالخطيب، وقلة احترامهم له، وبهذا ضعفت الرغبة في القول.

وإذا كانت الخطابة قد ركدت لهذه الأسباب، فقد خلفها فن من القول صاحبها زمنا، ثم انفرد بعدها بالسلطان، وذلك الفن هو المناظرة، يتفق مع الخطابة في الارتجال، ومحاولة الغلب بالبيان، والسبق باللسان، ويخالفها في الموضوع، وقد سادت المناظرات ذلك العصر، لأن الحياة العقلية كانت لها السيادة، وعظم أمر العلم فكثرت مساجلات العلماء فيما بينهم، وصارت مجالس العلم ميدانا للمسابقة الكلامية والجدلية بين زعماء الفرق الإسلامية، وكان المتكلمون يحرصون على بلاغة الكلام، وإيضاح البيان، والتأثير بالإقناع بعد الإفحام.

الخطباء

امتاز بالخطابة عدد عظيم من رجال هذا العصر، أقواهم بيانا وأشدهم تأثيرا، وأقدرهم على الإدلاء بالحجة خطباء الهاشميين: عباسيين وعلويين، ومن خطباء العباسيين داوود بن علي بن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن علي، وصالح بن علي، وابنه عبد الملك بن صالح، وسليمان بن جعفر الذي قال فيه البصيرون بالكلام من أهل مكة عندما وليها: إنه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام، إلا وسليمان أبين منه قاعدا، وأخطب منه قائما.

ومن خطباء العلويين محمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالنفس الزكية، وأخوه إبراهيم، وجعفر الصادق، والعباس بن الحسين، وكان مقربا من الرشيد والمأمون، حتى قال فيه المأمون: من أراد أن يسمع لهوا بلا حرج، فليسمع كلام العباس.

وممن عرف بالخطابة من غير الهاشميين خالد بن صفوان، وابن عمه شبيب، والفضل ابن عيسى، وابنه عبد الصمد، وهما من الموالي، ومن الموالي أيضاً جعفر بن يحيى البرمكي، والفضل بن سهل، وأخوه الحسن، وطاهر بن الحسين، وابنه عبد الله بن طاهر، وغير هؤلاء كثيرون.

نماذج من خطب هذا العصر

خطبة داود بن علي بعد بيعة أبي العباس السفاح

الحمد لله، شكرا شكرا، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ. أيها الناس، الآن أقشعت[1] حنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه[2]، ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم، والعطف عليكم.

أيها الناس، إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر، لنكثر لجينا ولا عقيانا[3]، ولا نحفر نهرا، ولا نبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم[4] حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرثنا[5] من أموركم، وبهظنا[6] من شئونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا[7] ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم، ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ. تبا تبا[8] لبني حرب بن أمية وبني مروان، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا[9] الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد، وسنتهم في البلاد، التي استلذوا بها تسربل الأوزار، وتجلبب الآصار[10]، ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا[11] في

---

(١) أقشعت تفرقت وحنادس جمع حندس وهي الظلمة.

(٢) المنزع مكان النزوع والرمي والمراد عاد الأمر إلى أهله.

(٣) اللجين الفضة. والعقيان الذهب.

(٤) ابتزاز الشيء أخذه بالقهر والغلبة.

(٥) كرثه الأمر إذا اشتد عليه.

(٦) بهظه الأمر ثقل عليه.

(٧) أرمضه الأمر أوجعه وآلمه.

(٨) تبا معناها هلاكا، فهو دعاء عليهم بالهلاك والخسار.

(٩) غشوا معناها باشروا الجرائم وارتكبوها.

(١٠) الآصار جمع إصر وهو الذنب والوزر.

(١١) الركض العدو، وحث الفرس ليعدو.

ميادين الغي جهلا باستدراج الله، وأمنا لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتا، وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين. وأدالنا[١] الله من مروان، وقد غره بالله الغرور، أرسل لعدو الله في عنانه، حتى عثر في فضل خطامه[٢]، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه، وعن يمينه وشماله، من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله، ومحق ضلاله، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا.

أيها الناس، إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا- إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطع عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر فيه[٣] شدة الوعك، وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها، بإبدال الدين، وانتهاك حريم المسلمين الشاب المتكهل المتمهل، المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا في الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى – فعج الناس له بالدعاء- .

ثم قال: يأهل الكوفة، إنا والله مازلنا مظلومين، مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج[٤] بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم له تنتظرون، وإليه تتشوقون، فأظهر فيكم الخليفة من بني هاشم، وبيض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام، ومن عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة[٥] فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا، ولا تخدعوا عن أنفسكم، فإن الأمر أمركم، فإن لكل أهل بيت مصرا، وإنكم مصرنا، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده إلى أبي العباس) فاعلموا أن هذا الأمر فينا، ليس بخارج منا، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

---

(١) أدالنا معناها جعل الدولة لنا.

(٢) الخطام ما يوضع في أنف البعير.

(٣) اسحنفر: سار فيها واتسع.

(٤) الإفلاج التمكين من الظفر والفوز.

(٥) الإيالة حسن السياسة مصدر آل الملك الرعية يؤولها ساسها بكياسة.

خطبة أبي جعفر المنصور بعد هزيمة النفس الزكية

يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا، وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإن أهل بيتي هؤلاء ولد علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة، فلم نعرض لهم بقليل ولا كثير، فقام فيها علي بن أبي طالب، فتلطخ[1]، وحكم الحكمين، فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته، فقتلوه. ثم قام من بعده الحسن بن علي، فوالله ما كان فيها برجل، قد عرضت عليه الأموال فقبلها، فدس إليه معاوية، إني أجعلك ولي عهدي من بعدي، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه، وسلمه إليه، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة، فيطلقها غدا، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسين بن علي، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة، أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن، أهل هذه المدرة[2] السوداء (وأشار إلى الكوفة)، فوالله ما هي بحرب فأحاربها، ولا سلم فأسالمها، فرق الله بيني وبينها، فخذلوه وأسلموه حتى قتل. ثم قام من بعده زيد بن علي، فخدعه أهل الكوفة، وغروه، فلما أخرجوه وأظهروه، أسلموه، وقد أتى محمد بن علي فناشده في الخروج، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة، وقال له:

إنا نجد في بعض علمنا إن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب، وناشده عمي داود بن علي، وحذره غدر أهل الكوفة، فلم يقبل وتم[3] على خروجه، فقتل وصلب بالكناسة. ثم وثب علينا بنو أمية، فأماتوا شرفنا، وأذهبوا عزنا، ووالله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم، وبسبب خروجهم، فنفرنا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام، ومرة بالشراة، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودمغ بكم أهل الباطل، وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ، فقر الحق قراره، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها، من فضل الله فيها، وحكمه

(١) تلوث

(٢) المدرة البلدة.

(٣) تم على خروجه يعني صمم.

العادل لنا، وبغوا علينا ظلمـا وحسـدا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ.

جهلا علي وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

فإني والله يأهل خراسـان، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم[1] وقد دسست لهم رجالا فقلت: قم يافلان، فخذ معك من المال كذا، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة، فدسوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب، ولا صغير ولا كبير، إلا بايع بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم، وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروج علي، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين. ثم نزل، وهو يتلو على درج المنبر «وحيل بينهم وبين ما يشتهون، كما فعل بأشياعهم من قبل، إنهم كانوا في شك مريب».

خطبة أخرى لأبي جعفر المنصور قالها بعد قتل أبي مسلم

أيها الناس، لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة، فإنه لم يسر أحد قط منكرة، إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه لإعزاز دينه، وإعلاء حقه، وإنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه عليكم، إنه من نازعنا عروة هذا القميص، أجزرناه[2] خبيء هذا الغمـد، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا، فقد أباح دمه، ثم نكث بنا، فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له، من إقامة الحق عليه.

خطبة لسليمان بن علي

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ۝ إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾.

(١) التعرم الفساد والشر والفتنة.

(٢) أجزرناه جعلناه يجزره أي يقطعه. وخبيء الغمد هو السيف.

قضاء مبرم، وقول فصل، وما هو بالهزل. الحمد لله الذى صدق عبده، وأنجز وعده، وبعدا للقوم الظالمين، الذى اتخذوا الكعبة غرضا، والفئ إرثا، والدين هزؤا، وجعلوا القرآن عضين[١]. لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وكأين ترى من بئر معطلة، وقصر مشيد، ذلك بما قدمت أيديهم، وأن الله ليس بظلام للعبيد، أمهلوا والله، نبذوا الكتاب وأجهدوا العترة[٢]، ونبذوا السنة، واعتدوا واستكبروا، وخاب كل جبار عنيد، ثم أخذهم، فهل تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم ركزا[٣].

خطبة المأمون بعد أن قتل الأمين

حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه، ثم قال: أيها الناس، إنى جعلت الله على نفسى إن استرعانى أموركم، أن أطيعه فيكم، ولا أسفك دما عمدا لا تحله حدوده، وتسفكه فرائضه، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثا، ولا نحلة تحرم على، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضاى، إلا ما كان فى الله وله. جعلته كله لله عهداً مؤكداً، وميثاقا مشددا، أنى أفى به رغبة فى زيادته إياى فى نعمتى، ورهبة من مسألته إياى عن حقه وخلقه، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا، وللنكال متعرضا، وأعوذ بالله من سخطه، وأرغب إليه فى المعونة على طاعته، وأن يحول بينى وبين معصيته.

خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر وقد تهيأ لقتال الخوارج فقال: إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه، الذابون عن دينه، الذائدون عن محارمه، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله، والطاعة لولاة أمره، الذين جعلهم رعاة الدين، ونظام المسلمين، فاستنجزوا موعود الله ونصره بمجاهدة عدوه، وأهل معصيته الذين شذوا، وتمردوا، وشقوا عصا الطاعة، وفارقوا الجماعة، ومرقوا من الدين، وسعوا فى الأرض فسادا، فإنه يقول تبارك وتعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

---

(١) جعلوا القرآن عضين أى جعلوه متفرقا فى الأخذ به. يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

(٢) العترة الأسرة والمراد أسرة النبى ﷺ.

(٣) الركز الصوت الخفى.

فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجئون، وعدتكم التى بها تستظهرون، فإنه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه، والجنة الحصينة التي أمركم الله بلباسها، غضوا أبصاركم، واخفتوا أصواتكم فى مصافكم، وامضوا قدما على بصائركم، فازعين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله، فإنه يقول: ﴿إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيرا، لعلكم تفلحون﴾.

أيدكم الله بعز الصبر، ووليكم بالحياطة والنصر.

(تم بحمد الله)

فهرست الموضوعات

القسم الثاني

مؤلفات الإمام الشيخ

محمد أبو زهرة

العالم الجليل الذى أثرى المكتبة الفقهية بموسوعاته، والذى ستبقى ذكراه شعلة وعناية فى العلم والفقه الإسلامى. تلك المؤلفات الخصبة التى وهبه الله سبحانه وتعالى إياها لتكون منارا يهتدى به العلماء من بعده فى دراسة الفقه الإسلامى.

١ - خاتم النبيين ﷺ (ثلاثة أجزاء فى مجلدين)
٢ - المعجزة الكبرى - القرآن الكريم
٣ - تاريخ المذاهب الإسلامية (جزءان فى مجلد واحد)
٤ - العقوبة فى الفقه الإسلامى
٥ - الجريمة فى الفقه الإسلامى
٦ - الأحوال الشخصية
٧ - أبو حنيفة - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
٨ - مالك - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
٩ - الشافعى - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٠ - ابن حنبل - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١١ - الإمام زيد، حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٢ - ابن تيمية - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٣ - ابن حزم - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٤ - الإمام الصادق - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
١٥ - أحكام التركات والمواريث
١٦ - علم أصول الفقه
١٧ - محاضرات فى الوقف
١٨ - محاضرات فى عقد الزواج وآثاره
١٩ - الدعوة إلى الإسلام
٢٠ - مقارنات الأديان
٢١ - محاضرات فى النصرانية

٢٢ - تنظيم الإسلام للمجتمع

٢٣ - في المجتمع الإسلامي

٢٤ - الولاية على النفس

٢٥ - الملكية ونظرية العقد

٢٦ - الخطابة «أصولها ، تاريخها في أزهى عصورها عند العرب»

٢٧ - تاريخ الجدل (الذي مضى على طبعه مايقارب الخمسين عاما).

٢٨ - تنظيم الأسرة وتنظيم النسل

٢٩ - شرح قانون الوصية

٣٠ - الوحدة الإسلامية

٣١ - العلاقات الدولية في الإسلام

٣٢ - التكافل الاجتماعي في الإسلام

٣٣ - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام

٣٤ - الميراث عند الجعفرية

تطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

مؤسسة

دار الفكر العربي

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى - القاهرة

ص ب ١٣٠

دار الفكر العربي

مؤسسة مصرية للطباعة والنشر والتوزيع

تأسست ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

مؤسس الدار وصاحبها : محمد محمود الخضري

الإدارة : ١١ ش جواد حسني - القاهرة

ص . ب : ١٣٠ الرمز البريدي ١١٥١١

فاكس : ٣٩١٧٧٤٣ - ٢٦١٩٠٤٩ (٠٠٢٠٢)

ت : ٣٩٢٥٥٢٣ - ٣٩٣٠٩٥٦

نشاط المؤسسة : ١- طبع ونشر وتوزيع جميع الكتب العربية في شتى مجالات المعرفة والعلوم.

٢- استيراد وتصدير الكتب من وإلى جميع الدول العربية والأجنبية

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا بجمهورية مصر العربية

الفرع الرئيسي : ١٦ شارع جواد حسني القاهرة

ت : ٣٩٣٠١٦٧

فرع الدقي : ٢٧ شارع عبد العظيم راشد المتفرع من

شارع محمد شاهين - بالعجوزة

ت : ٧١٧٤٩٨

فرع مدينة نصر : ٩٤ شارع عباس العقاد - المنطقة السادسة

وإدارة التسويق - مدينة نصر ت ٢٦١٩٠٤٩ - ٦١٨٩٦٦ فاكس ٢٦١٩٠٤٩

وكذلك تطلب جميع منشوراتنا من الكويت من

مؤسسة دار الكتاب الحديث

ص . ب ٢٠٥٦٦ السالمية ٢٢٠٧١

ت : ٢٤٦٠٦٣٤ فاكس ٢٤٦٠٦٢٨

